علي مولا

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

الرواية التي تتصدر لائحة نيويورك تايمز لأكثر الكتب مبيعاً والتي تحولت إلى فيلم سينمائي مثير من إخراج مارتن سكورسيزي وبطولة ليوناردو دي كابريو

الجزيرة المغلقة
SHUTTER ISLAND

دينيس ليهان
DENNIS LEHANE

الجزيرة المغلقة

Shutter Island

رواية

تأليف

دينيس ليهان

Dennis Lehane

ترجمة

تيا معوض

مراجعة وتحرير

مركز التعريب والبرمجة



الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L



يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي

Shutter Island

حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من الناشر

Harper Perennial

بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.

الطبعة الأولى

1431 هـ - 2010 م

ردمك 978-9953-87-949-9



عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم

هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)

ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 1102-2050 - لبنان

فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb

الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (9611+)

الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (9611+)

مقدمة

من يوميات الدكتور ليستر شيهان.

3 مايو، 1993.

لم أرَ الجزيرة منذ أعوام عدة. آخر مرة رأيتها فيها كانت من على متن مركب صديق دخل المرفأ الخارجي، واستطعت رؤيتها من بعيد – وراء الحلقة الداخلية – مغطاة بالضباب الصيفي، أشبه ببقعة ملونة قبالة السماء الزرقاء.

لم تطأهـــا قدماي منذ أكثر من عقدين، لكن إميلي تقول (أحياناً عن طريق المزاح، وأحياناً أخرى لا) إنها ليست أكيدة من أنني غادرتها أصـــلاً. قالـــت ذات مرة إن الوقت بالنسبة إليّ ليس سوى سلسلة من المؤشـــرات التي أستخدمها للتنقل جيئة وذهاباً في نص حياتي، والعودة مراراً وتكراراً إلى الأحداث التي تميّزني، في عيون زملائي الأكثر دهاء، مع كل خصائص المكتئب التقليدي.

قد تكون إميلي محقة. إنها محقة في أغلب الأحيان.

سأخـــسرها قريباً هي الأخرى. إنها مسألة أشهر، حسبما أخبرنا الدكتور أكسلرود يوم الخميس. نصحني بالقيام بتلك الرحلة. تلك التي تتحدث عنها دوماً. إلى فلورنسا، وروما، والبندقية في الربيع. لأنك يا ليستر، أضاف الدكتور، لا تهتم بنفسك جيداً.



يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي
Shutter Island
حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من الناشر
Harper Perennial
بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.

الطبعة الأولى

1431 هـ - 2010 م

ردمك 978-9953-87-949-9



عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص.ب: 5574-13 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (9611+)

الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (9611+)

على أعلى الجدار في أواخر الخريف، أو تناثرت على العشب. في وسط المجمّع، هناك مبنيان توأمان مغطيان بالقرميد الأحمر على جانبي المستشفى، ومجموعة من الصخور الكبيرة والغرانيت الجميل. في الخلف، هناك أجراف عالية، ومستنقع كبير، وواد طويل أنشئت فيه مزرعة جماعية، لكنها أقفلت في السنوات التي تلت الثورة الأميركية. إلا أن الأشجار التي تمت زراعتها بقيت على حية. وهي أشجار دراق، وإجاص، وتوت، لكنها لم تعد تثمر. تعصف رياح الليل غالباً في ذلك الوادي، وتطلق صرخات عالية مثل القطط.

الحصن، طبعاً، الذي شيّد قبل وصول أول موظفي المستشفى، لا يزال شامخاً هناك في وجه المنحدر الجنوبي. والمنارة في الخلف، التي أصبحت عتيقة الطراز، وخارج الخدمة قبل الحرب الأهلية بفعل شعاع ضوء *بوسطن* (بوسطن لايت).

من البحر، لا تبدو المستشفى على حقيقته. عليك تصوّره بالطريقة التي رآه فيها تيدي دانيالز في ذلك الصباح الهادئ في سبتمبر 1954. سهل مع أشجار خفيضة في وسط المرفأ الخارجي. قد تقول إنها بالكاد جزيرة، إذ لا تشبه مفهوم الجزيرة. ما هو غرضها؟ ربما قال ذلك في نفسه.

كانت الجرذان الأكثر وفرة بين الحيوانات. تخربش في الشجيرات، وتشكل خطوطاً بمحاذاة الشاطئ ليلاً، وتتسلق بجهد فوق الصخور الرطبة. بعضها كان بحجم الأسماك المفلطحة. في السنوات التي تلت تلك الأيام الأربعة الغريبة، في أواخر صيف العام 1954، دأبت على دراسة الجرذان الموجودة في الهضبة المطلة على الشاطئ الشمالي. تفاجأت حين اكتشفت أن بعض الجرذان حاولت السباحة إلى جزيرة بادوك، التي هي أكبر قليلاً من صخرة في كومة الرمل تبقى مغمورة

بالماء اثنتين وعشرين ساعة كل يوم. وحين تظهر الصخرة للعيان خلال تلــك الساعة أو الساعتين فيما ينــزل البحر إلى أدنى مستوياته، تسبح الجــرذان أحــياناً إليها، بمعدل اثني عشر جرذاً تقريباً، وتعود دائماً إلى الخلف بفعل المدّ البحري.

أقــول دائماً، ولكن لا. رأيت واحداً نجح في الوصول إليها. مرة واحــدة، ليلة قمر الحصاد في أكتوبر 56، رأيت جسمه الأسود يندفع بسرعة عبر الرمل.

أو هكذا أظن. تقول إميلي، التي التقيتها في الجزيرة، "ليستر، هذا ليس ممكناً. كنت بعيداً جداً".

إنها محقة.

لكــنني أعرف ماذا رأيت، جرذاً بديناً يندفع بسرعة عبر الرمل، رمــل رمادي لؤلؤي بدأ يغرق مجدداً في الماء، فيما عاد البحر لابتلاع جزيــرة بادوك، وابتلاع ذلك الجرذ، حسبما أفترض، لأنني لم أره أبداً يسبح في طريق العودة.

لكــن في تلــك اللحظة، فيما راقبته يندفع بسرعة نحو الشاطئ، رأيــته - واللعنة على المسافات - فكّرت في تيدي. فكّرت في تيدي والمــرحومة زوجته المسكينة، دولوريس شانال، والتوأم المرعب راشايل سولاندو وآندرو لايديز، والفوضى التي سبباها لنا جميعاً. فكّرت في أنه لو كان تيدي جالساً معي، لرأى ذلك الجرذ أيضاً. لا بد من ذلك.

سأقول لك شيئاً آخر:

تيدي...

لكان صفق بيديه.

اليوم الأول

راشيل

1

كـــان والد تيدي دانيالز صياداً. خسر مركبه لصالح المصرف عام 1931، حـــين كان عمر تيدي أحد عشر عاماً، وأمضى بقية حياته في العمـــل على مراكب أخرى حين يوجد فيها عمل، وفي إفراغ الحمولة على الأرصفة حين لا يوجد عمل في المراكب، والقيام بنـــزهات طويلة في طريق عودته إلى المنـــزل عند العاشرة ظهراً، والجلوس على كرسي بـــذراعين، والتحديق إلى يديه، والهمس لنفسه بين الحين والآخر، فيما تصبح عيناه كبيرتين ومعتمتين.

اصطحب معه تيدي إلى الجزر حين كان تيدي لا يزال صبياً فتياً، صـــغيراً جداً لمساعدته في المركب. كل ما استطاع فعله حينها هو فك العقـــد مـــن الشباك؛ وربط صنارات الصيد. جرح نفسه بضع مرات، ولطخ الدم أطراف أصابعه وراحتي يديه.

كانا يغادران في الظلام، وحين تشرق الشمس مجدداً، كان الهواء البارد يهبّ من شاطئ البحر، وتظهر الجزر للعيان من الغسق المختفي، مجتمعة قرب بعضها، كما لو أنها وقعت في شرك.

رأى تيدي أكواخاً صغيرة باهتة اللون على طول شاطئ إحدى الجزر، ومبنى كلسياً متفتتاً في جزيرة أخرى. أظهر له والده السجن في جزيـــرة الأيائـــل، والحصن الكبير في جزيرة جورج. في جزيرة تومبـــسون، كانت الأشجار العملاقة مليئة بالعصافير، التي صدحت زقـــزقتها مثل صوت البَرَد على الزجاج. وراء كل هذه الجزر، ثمة

جزيـــرة يسمونها شاتر تشبه شيئاً مراقاً من سفينة شراعية إسبانية. بالعـــودة إلى تلك الأيام، في ربيع العام 1928، تُركت هذه الجزيرة وحـــدها وسط شغب نباتاتها، والحصن الذي كان ممتداً فوق أعلى نقطـــة فـــيها بـــدا نـــنوقاً بالعرائش ومغطى بسحابات كبيرة من الطحالب.

سأل تيدي: "لماذا شاتر؟".

هزّ والده بكتفه. "أنت والأسئلة. دوماً هناك أسئلة".

"نعم، لكن لماذا؟".

"بعض الأماكن تتخذ أسماء تلتصق بها. ربما بسبب القراصنة".

"قراصنة؟". أحب تيدي ذلك. استطاع تخيلهم، رجالاً كباراً مع رقع على العيون، وجزمات عالية، وسيوف لامعة.

قال والده: "كانوا يختبئون هنا في الأيام الغابرة". مسحت ذراعه الأفق. "في هذه الجزر. كانوا يختبئون. ويخبئون ذهبهم".

تخيل تيدي أكواماً منه، والنقود الذهبية متناثرة على الجانبين.

شعر لاحقاً بالغثيان، وتقيأ تكراراً وبقوة سيولاً سوداء فوق حافة مركب والده، وفي البحر.

تفاجـــأ والـــده، لأن تـــيدي لم يبدأ بالتقيؤ إلا بعد ساعات من الرحلة، فيما كان المحيط هادئاً ومسطحاً. قال والده: "لا بأس. إنها المرة الأولى. لا داعي للخجل من أي شيء".

أومأ تيدي برأسه، ومسح فمه بمنديل أعطاه إيّاه والده.

قال والده: "هناك أحياناً حركة في البحر، ولا يمكنك أن تشعر بها إلا حين تتراكم داخلك".

إيمـــاءة أخـــرى، إذ كان تيدي عاجزاً عن إخبار والده أن حركة البحر ليست هي المسؤولة عن اضطراب معدته.

المسألة تكمن في الماء. لقد كان الماء ممتداً حولهما، وبدا كأنه كل ما بقي من العالم. كيف صدّق تيدي أن البحر قادر على ابتلاع السماء؟!

نظر إلى والده، فيما كانت عينه حمراء وترشح دمعاً، فقال والده: "ستكون بخير". وحاول تيدي الابتسام.

سافر والده على متن مركب لصيد الحيتان في صيف العام 1938 ولم يعد أبداً. في الربيع التالي، تم العثور على بعض من حطام المركب على شاطئ نانتاسكت في هال، حيث ترعرع تيدي. تم العثور على جزء من العارضة الرئيسة للمركب، وصحن كبير حُفِر عليه اسم القبطان، وعلب من حساء البندورة والبطاطا، وبعض شباك الكركند الممزقة.

أقاموا جنازة للصيادين الأربعة في دار عبادة القديسة تيريزا، التي تدير ظهرها للبحر نفسه الذي ابتلع العديد من أبنائها. وقف تيدي مع أمه، وسمع شهادات عن القبطان، ومساعده الأول، والصياد الثالث، رجل عجوز اسمه جيل ريستاك أثار الرعب في مشارب هال منذ عودته من الحرب العظيمة مع قدم مصابة، والعديد من الصور البشعة في رأسه. لكن عند موته، قال أحد رواد المشرب الذي كان يخافه: "إن الله عفا عما مضى".

صاحب المركب، نيكوس كوستا، اعترف أنه بالكاد عرف والد تيدي، وأنه وظّفه في الدقيقة الأخيرة بعدما كسر أحد عمال الطاقم ساقه نتيجة سقوطه من شاحنة. بالرغم من ذلك، أشاد القبطان به، وقال إن جميع أهل البلدة يعرفون أنه كان عاملاً نشيطاً جداً. أليس هذا أفضل مديح يمكن أن يتلقاه إنسان؟

واقفاً في دار العبادة تلك، تذكر تيدي ذلك اليوم على متن مركب والده، لأنه لم يكرره أبداً. استمر والده في قول إنهما سيعيدان

الكـــرّة، لكن تيدي فهم أن والده قال ذلك فقط كي يحافظ ابنه على بعـــض الكبرياء. لم يعترف والده أبداً بما حصل في ذلك اليوم، لكنهما تـــبادلا نظـــرة في طريق عودتهما إلى المنـــزل، مروراً بسلسلة الجزر، وجزيرة شاتر خلفهما، فيما جزيرة تومبسون لا تزال أمامهما، وكانت سمـــاء المدينة صافية جداً وقريبة جداً، بحيث يخال المرء إنه يستطيع رفع مبنى بقمته المستدقة.

قـــال والـــده وهو يفرك بيده ظهر تيدي: "إنه البحر". فيما كانا منحنـــيين فوق الجزء الخلفي من السفينة. "يتغلب عليه بعض الرجال. ويتغلب هو على بعض الرجال".

ثم نظر إلى تيدي بطريقة عرف تيدي أي نوع من الرجال سيكون هو على الأرجح.

للوصـــول إلى هناك عام 1954، أخذا المركب من المدينة، وعبرا مجمـــوعة مـــن الجزر الأخرى الصغيرة المنسية؛ تومبسون وسبكتاكل، غـــرايب وبامبكين، راينفورد ولونغ، تلك الجزر الممتدة في البحر على شكل مجموعات من الرمل والأشجار والأشكال الصخرية البيضاء مثل العظام. باستثناء الرحلات الثابتة يومي الثلاثاء والسبت، كان المركب يقـــوم برحلات غير منتظمة، وكان داخله فارغاً من كل شيء باستثناء رقاقة معدنية تغطي أرضه، ومقعدين فولاذيين ممتدين تحت النوافذ. كان المقعدان مثبتين بالأرض ومثبتين بعمودين أسودين غليظين عند الطرفين، مع أغلال وسلاسل معلقة في كومات ملتوية فوق العمودين.

إلا أن المـــركب لم يكن ينقل مرضى إلى المصحّ اليوم، وإنما فقط تـــيدي وشريكه الجديد، تشاك أول، وبضعة أكياس من البريد، وبعض علب الموارد الطبية.

بـــدأ تيدي الرحلة جاثياً على ركبتيه أمام المرحاض، يتقيأ بشدة، فيما محرك المركب يطقطق ويصدر أصواتاً، وامتلأ أنف تيدي بالروائح الـــزيتية للغـــازولين وللبحر في نهاية فصل الصيف. لم يستطع تقيؤ أي شـــيء باســـتثناء دفـــق صغير من الماء، إلا أن حنجرته بقيت تنكمش ومعدتـــه تنقـــبض على قاعدة المريء، والهواء أمام وجهه مليء بذرّات الغبار التي ومضت مثل العيون.

تلا التقيؤ الأخير دفق من الأوكسيجين الذي بدا وكأنه يحمل معه جـــزءاً مـــن صدره، فيما انفجر خارج فمه، جلس تيدي على الأرض المعدنـــية، ومسح وجهه بمنديله، وفكّر في أنها ليست الطريقة التي أراد بدء فيها شراكة جديدة مع زميله.

تخـــيل تشاك وهو يخبر زوجته عند عودته إلى المنـــزل - إذا كان لديـــه زوجـــة؛ لا يعرف تيدي الكثير عنه بعد - عن لقائه الأول مع الأســـطوري تيدي دانيالز. "استلطفني الرجل كثيراً، يا عزيزتي، لدرجة أنه تقيأ".

مـــنذ تلك الرحلة، حين كان ولداً صغيراً، لم يستمتع تيدي أبداً بوجـــوده في الماء، ولم يستمتع أبداً بمناظر اليابسة من البحر، والأشياء الـــتي يمكـــن الـــتمدد إليها ولمسها من دون أن تحتك بها يداك. تقول لنفسك إنه لا مشكلة في ذلك، لأن هذا ما يجدر بك فعله لعبور الماء. لكـــن في الحقيقة توجد مشكلة. حتى في الحرب، لم يخف من الهجمات العنـــيفة على الشواطئ، بقدر ما كان يخاف من تلك الياردات القليلة، الفاصـــلة بـــين المراكب والشاطئ، فيما الأرجل تغرز في أعماق المياه، وتدخل كائنات غريبة إلى جزمتك.

لا يزال يفضل أن يكون خارجاً على المنصة، في وجه الهواء النقي، بدلاً من العودة إلى هنا، مترنحاً ومريضاً.

حين تأكد من أنه انتهى من التقيؤ، وتوقفت معدته عن البقبقة، ورأسه عن الدوران، غسل يديه ووجهه، وتحقق من مظهره في مرآة صغيرة معلقة فوق المغسلة، علماً أن معظم الطلاء تآكل بفعل ملح البحر، وبقيت فقط سحابة صغيرة في الوسط، استطاع تيدي من خلالها أن يرى صورته، صورة رجل شاب، نسبياً، مع قصة شعر عسكرية قصيرة. إلا أن وجهه كان محفوراً بأدلّة الحرب والسنوات التي مرّت منذ ذلك الحين، وميله إلى سحر المطاردة والعنف الكامن في عينيه والذي أسمته دولوريس ذات يوم *الجندي الكئيب*.

قال تيدي لنفسه: "لا أزال شاباً جداً، حتى أبدو بهذه القساوة".

عدّل حزامه حول خصره بحيث اتكأ المسدس وقرابه فوق وركه. أخذ قبعته من على رف المغسلة، ووضعها على رأسه، وعدّل حافتها بحيث باتت مائلة قليلاً إلى اليمين. شدّ ربطة عنقه. إنها واحدة من ربطات العنق المزينة بالأزهار التي باتت خارج الموضة، منذ أكثر من عام، لكنه لا يزال يضعها لأنها أهدته إياها، ومررتها أمام عينيه يوم ذكرى ميلاده، فيما كان جالساً في غرفة الجلوس. ضغطت بشفتيها على تفاحة آدم. وضعت يدها الدافئة على جانب وجنته. فاحت رائحة البرتقال من لسانها. جلست في حضنه، وفكت ربطة عنقه، وأبقى تيدي عينيه مغمضتين. فقط لشمها، لتخيلها، لتصورها في عقله والإمساك بها هناك.

لا يزال في وسعه فعل ذلك، إغماض عينيه ورؤيتها. لكن، في الآونة الأخيرة، بدأت لطخات بيضاء تشوش أجزاء منها؛ شحمة أذنها، أهدابها، محيط شعرها. لم يحصل أن اختفى شكلها كله بعد، لكن تيدي خاف من الوقت الذي بدأ يسرقها منه، ويسحق أطر الصورة في رأسه.

قال: "اشتقت إليك". وخرج إلى منصة المركب.

كان الطقس دافئاً وصافياً في الخارج، لكن مياه البحر مليئة بخيوط صـــدأ داكنة وشحوب رمادي إجمالي، ما يوحي أن شيئاً ما يتراكم في الأعماق.

ارتشف تشاك القليل من قنينته، وأمال عنقه باتجاه تيدي، وقطّب أحـــد حاجبـــيه. هزّ تيدي رأسه، وأعاد تشاك القنينة إلى جيب بذلته، وشدّ معطفه حول وركيه، ونظر إلى البحر.

سأل تشاك: "هل أنت بخير؟ تبدو شاحباً".

هزّ تيدي كتفيه. "أنا بخير".

"هل أنت متأكد؟".

أومأ تيدي برأسه. "أصبت فقط بدوار البحر".

وقفـــا صـــامتين لبعض الوقت، فيما البحر يتموج حولهما، مع تيارات داكنة وحريرية مثل المخمل.

قال تيدي: "هل تعرف أنها كانت معتقلاً لأسرى الحرب؟".

قال تشاك: "الجزيرة؟".

أومأ تيدي برأسه. "أيام الحرب الأهلية. شيدوا حصناً هناك، ثكنة عسكرية".

"وماذا يفعلون الآن بالحصن؟".

هزّ تيدي كتفه. "لا أعرف. هناك بعض الحصون في عدد من الجزر. كانت معظمها أهدافاً لقنابل المدفعية خلال الحرب. لم يبقَ منها الكثير".

"لكن... المؤسسة؟".

"حسبما أعرف، إنهم يستخدمون مقرّ الجيش القديم".

قال تشاك: "يبدو وكأننا نعود إلى الأساس، أليس كذلك؟".

اســـتدار تيدي على الدرابزين: "لا تتمنَ ذلك لنا، ما هي قصتك هناك، تشاك؟".

ابتسم تشاك. كان أكثر بدانة من تيدي وأقصر منه، فيما رأسه مغطى بشعر أسود مجعد، مع بشرة زيتونية، ويدين نحيلتين ودقيقتين بدتا غير متناسقتين مع شكله، كما لو أنه استعارهما إلى أن تعود يداه الأصليتان من المحل. كشفت وجنته اليسرى عن ندبة صغيرة، ربّت عليها بسبابته.

"أبدأ دوماً من الندبة. يسألني عنها الأشخاص عاجلاً أم آجلاً".

"حسناً".

قال تشاك: "ليست من الحرب. تقول صديقتي إنه يجدر بي القول إنها من الحرب، وأنتهي من الشرح، لكن...". هزّ كتفه. "إنها من *لعبة* الحرب. حين كنت ولداً. كنت وذلك الولد الصغير نرمي الحجارة على بعضنا بعضاً في الغابة. لم يصبني حجر صديقي، فبقيت على ما يرام، أليس كذلك؟". هزّ رأسه. "ارتطم الحجر بشجرة، وأرسل قطعة من اللحاء إلى وجنتي. هكذا ولدت الندبة".

"من لعبة الحرب".

"نعم، من لعبة الحرب".

"انتقلت من أوريغون".

"سياتل. جئت الأسبوع الماضي".

انتظر تيدي قليلاً، لكن تشاك لم يقدم أي شرح إضافي.

قال تيدي: "كم مضى من الوقت على وجودك مع فرقة المارشالات؟".

"أربعة أعوام".

"تعرف إذاً، كم هي صغيرة".

"طبعاً. تريد أن تعرف لماذا تم نقلي". أومأ تشاك برأسه، كما لو أنه يقرر شيئاً في نفسه. "إذا قلت إنني سئمت من المطر؟".

برم تيدي راحتي يديه فوق الدرابزين. "إذا قلت ذلك...".

"لكـــن الفرقة صغيرة، مثلما قلت. يعرف الجميع بعضهم بعضاً. لذا، سيكون هناك في النهاية – ماذا يقولون – إشاعة؟!".

"هذا وصف صحيح".

"ألقيت القبض على بريك، صحيح؟".

أومأ تيدي برأسه.

"كيف عرفت إلى أين ذهب؟ طارده خمسون رجلاً، وذهبوا جميعاً إلى كليفلاند. أما أنت فذهبت إلى ماين".

"أمضى فصل الصيف هناك ذات مرة مع عائلته حين كان صغيراً. ذلك الشيء الذي فعله مع ضحاياه. إنه ما تفعله مع الأحصنة. تحدثت إلى عمـــة أخـــبرتني أن المرة الوحيدة التي كان فيها سعيداً كانت عند وجوده في مزرعة أحصنة، قرب منـــزله المستأجر في ماين. لذا، ذهبت إلى هناك".

قـــال تـــشاك: "أطلقت النار عليه خمس مرات". ونظر إلى زبد الأمواج في البحر.

قـــال تيدي: "كنت مستعداً لإطلاق خمس طلقات إضافية، لكنه احتاج إلى خمس طلقات فقط".

أومـــأ تـــشاك برأسه، وبصق فوق الدرابزين. "صديقتي يابانية. حسناً، ولدت هنا، لكنك تعرف... ترعرعت في مخيم. لا يزال يوجد الكـــثير مـــن التوتـــر هناك؛ بورتلاند، سياتل، تاكوما. لا يحب أحد وجودي معها".

"لذا، تم نقلك".

أومـــأ تـــشاك برأسه، وبصق مجدداً، وشاهد البصقة تسقط في الرغوة الزبدية.

قال: "يقولون إنها ستكون كبيرة".

رفع تيدي مرفقيه عن الدرابزين ومددهما. كان وجهه رطباً، وشفتاه مالحتين. غريب كيف استطاع البحر الوصول إليه، فيما لا يذكر ارتطام الرذاذ بوجهه.

ربّت على جيبي معطفه، بحثاً عن علبة سجائر تشسترفيلد. "من هم الذين سيقولون، ومن هي الكبيرة؟".

قال تشاك: "هم. أصحاب الجرائد، العاصفة. عاصفة كبيرة حسبما قالوا. عملاقة". لوّح بذراعه إلى السماء الشاحبة، الشاحبة مثل الرغوة المرتطمة بالسفينة. لكن هناك، بمحاذاة الحافة الجنوبية، ثمة خط رفيع من كرات القطن الأرجوانية بدأ يكبر مثل بقع الحبر.

شمّ تيدي الهواء. "لا تزال تتذكر الحرب، أليس كذلك تشاك؟".

ابتسم تشاك بطريقة جعلت تيدي يشك في أنهما بدأا يفهمان بعضهما بعضاً، ويتعلمان كيف يستفزان بعضهما بعضاً.

قال تشاك: "قليلاً، أذكر الركام، الكثير من الركام. ينبش الأشخاص في الركام؛ لكنني أقول إنه مهم. أقول إنه يملك جماله الخاص. المسألة تعود إلى وجهة نظر الشخص".

"تتحدث مثل رواية رخيصة. هل أخبرك بذلك أحد آخر؟".

"الأمر قيد البحث". وجه تشاك إلى البحر ابتسامة أخرى من ابتساماته الصغيرة، وتمطط فوق الجزء الخلفي من السفينة، ممدداً ظهره.

ربّت تيدي على جيبي سرواله، وفتّش في الجيوب الداخلية لسترة بذلته. "تذكر كيف كانت عمليات نشر الجنود ترتبط، غالباً، بتقارير الأحوال الجوية".

فرك تشاك ذقنه بكعب يده. "أوه، نعم، أذكر".

"وهل تذكر كم مرة كانت تقارير الأحوال الجوية تلك صحيحة؟".

قطّب تشاك حاجبيه، وهو يرغب في إعلام تيدي أنه يولي أهمية كبيرة لذلك. ثم زمّ شفتيه وقال: "في ثلاثين بالمئة من الأوقات، حسبما أظن".

"في أفضل الأحوال".

أومأ تشاك برأسه. "في أفضل الأحوال".

"وهكذا الآن، بالعودة إلى العالم كما نحن...".

قال تشاك: "أوه لقد عدنا، ويمكن القول، بطريقة خفية".

قمع تيدي ضحكته، وأصبح يستلطف هذا الرجل كثيراً الآن. بطريقة خفية. يا الله!

قال تيدي: "بطريقة خفية، لماذا تصدق الآن التقارير الجوية أكثر مما كنت تفعل حينها؟".

"حسناً"، قال تشاك، فيما ظهر رأس مثلث صغير فوق خط الأفق: "لست واثقاً من أنه يمكن قياس درجة تصديقي بطريقة كمية. هل تريد سيجارة؟".

توقف تيدي وسط جولة ثانية من البحث في الجيوب، ووجد أن تشاك يراقبه، فيما ابتسامته الساخرة ممتدة إلى وجنتيه، مباشرة تحت الندبة.

قال تيدي: "كانت معي حين أبحرنا".

نظر تشاك إلى ما فوق كتفه. "موظفو الحكومة. يسرقونك على غفلة". رجّ تشاك سيجارة من علبة سجائر لاكي خاصته، وأعطاها إلى تيدي، وأشعلها له بقداحة زيبو النحاسية، فيما ارتفع لهب الكيروزين فوق الهواء المالح، وعثر على الجهة الخلفية لحنجرة تيدي. أغلق تشاك القداحة، ثم فتحها مجدداً، بفتلة معصم، وأشعل سيجارة لنفسه.

زفـــر تيدي سحابة دخان، واختفى رأس مثلث الجزيرة للحظة، وسط سحابة الدخان.

قـــال تـــشاك: "وراء البحار، حين يأمرك تقرير الأحوال الجوية بالـــذهاب إلى مكـــان الإنـــزال، مع عدّة المظلة، أو التوجه إلى رأس الشاطئ، حسناً، يكون الأمر أكثر خطورة، أليس كذلك؟".

"صحيح".

"لكـــن، بالعـــودة إلى المنــــــزل، أين هي المشكلة في القليل من الاعتقاد العشوائي. هذا كل ما أريد قوله، سيدي".

بـــدأ رأس المثلث يكشف عن نفسه أكثر أمامهما، وامتلأت الأقسام الـــسفلية تدريجياً إلى أن تسطّح البحر مجدداً على الجهة الأخرى منه، بحيث اســـتطاعا رؤيـــة الألوان تتبلور، كما لو أنها مرسومة بريشة فنان. أخضر متنوع حيث كبرت النباتات على هواها، وخط أسمر على طول الشاطئ، ووجـــه محمرّ لجرف صخري في الطرف الشمالي. وفي الأعلى، فيما اقتربا أكثر، بدأا يلاحظان الحواف المسطحة، المستطيلة للمباني نفسها.

قال تشاك: "هذا مثير للشفقة".

"ما هو؟".

"ثمـــن التقدم". وضع قدماً واحدة على حبل القطر، وانحنى على الدرابـــزين قرب تيدي. "مع التطورات – ولا تزال هناك تطورات، لا تخدع نفسك، تطورات كل يوم – في مجال الصحة العقلية، سيزول هذا المكـــان عن الوجود. سيقولون عنه بعد عشرين سنة إنه مكان بربري. حـــصيلة تعيسة للتأثير الفيكتوري القديم. وسيقولون إنه يجب التخلص مـــنه بالدمج. سيقولون الدمج سيد الموقف. أهلاً بكم جميعاً في عملية الـــدمج. ســـنهتم بكم. نعيد تنظيمكم. جميعنا مارشلات. نحن مجتمع جديد، ولا مكان للاستثناء. لا استثناءات".

اختفت المباني مجدداً وراء الأشجار، لكن تيدي استطاع رؤية الشكل المشوش لبرج مخروطي، ومن ثم زوايا حادة افترض أنها الحصن القديم.

"لكن، هل نخسر ماضينا لضمان مستقبلنا؟". رمى تشاك سيجارته في الرغوة الزبدية. "هذا هو السؤال. ماذا تخسر حين تمسح الأرض، تيدي؟ الغبار. الأوساخ التي كانت ستجلب النمل. لكن ماذا عن قرط الأذن الذي وضعته في غير مكانه؟ هل أصبح الآن في القمامة هو الآخر؟".

قال تيدي: "من هي؟ من أين أتت تشاك؟".

"هناك دوماً هي. أليس كذلك؟".

سمع تيدي هدير المحرك يتبدّل خلفهما، وأحس بالمركب يتمايل قليلاً، واستطاع رؤية الحصن بشكل أوضح الآن فوق الجرف الجنوبي، فيما اقتربا من القسم الغربي للجزيرة. لقد اختفت المدافع، لكن تيدي استطاع تمييز أبراج الهجوم بسهولة. تحولت الأرض إلى هضاب وراء الحصن، وتصوّر تيدي أن الأسوار موجودة هناك، مشوشة وسط المشهد الطبيعي من زاويته الحالية، ثم رأى مستشفى آشكليف في مكان ما وراء الأجراف العالية، يطلّ على الشاطئ الغربي.

قال تشاك: "هل لديك فتاة في حياتك تيدي؟ هل أنت متزوج؟".

"كنت". قال تيدي وهو يتصوّر دولوريس، والنظرة التي وجهتها إليه ذات مرة خلال شهر العسل، وهي تدير رأسها، ويكاد ذقنها يلامس كتفها العارية، والعضلات تتحرك تحت اللحم قرب عمودها الفقري. "لقد ماتت".

ابتعد تشاك عن الدرابزين، وأصبح عنقه وردي اللون. "أوه، يا الله!".

قال تيدي: "لا بأس".

"لا، لا". وضع تشاك راحة يده على صدر تيدي. "إنه... سمعت ذلك. لا أعرف كيف نسيت. قبل عامين، أليس كذلك؟".

أومأ تيدي برأسه.

"يا الله! تيدي، أشعر أنني غبـــي. فعلاً. أنا آسف جداً".

رآها تيدي مجدداً، وهي تدير له ظهرها، فيما تمشي في ممر الشقة، وتـــرتدي واحدة من قمصان بذلاته القديمة، وتدندن، فيما هي داخلة المطـــبخ، وشـــعر بالحزن الاعتيادي يسري في عظامه. يفضل فعل أي شـــيء - حتى السباحة في هذا الماء - بدلاً من الحديث عن دولوريس، عـــن حقائـــق وجودها على هذه الأرض لواحد وثلاثين عاماً، ومن ثم موهّا. هكذا. كانت لا تزال هناك حين غادر إلى العمل ذلك الصباح. لكنها ماتت بعد الظهر.

لكنه افترض أن الأمر مماثل لندبة تشاك، القصة التي يجب إخبارها قبل المضي قدماً، وإلا ستكون المسألة عالقة دوماً بينهما. كيف؟ أين؟ ولماذا؟

ماتـــت دولوريس قبل عامين، لكنها تعود إلى الحياة ليلاً في أحلامه، ويمـــضي أحياناً دقائق كاملة في صباح جديد، وهو يفكر في كيف كانت تخـــرج من المطبخ، أو تشرب قهوهّا على المصطبة الأمامية لشقتهما في باتونوود. صحيح أهّا خدعة عقلية قاسية، لكن تيدي تقبل منطقها منذ زمـــن بعيد؛ فالاستيقاظ، في النهاية، هو حالة فطرية. تستيقظ من دون تـــاريخ، ثم تبدأ بطَرْفِ عينيك والتثاؤب بطريقة تشبه ماضيك، وتخلط الأشياء المبعثرة بتسلسل زمني قبل تعزيز نفسك للحاضر.

الأكثـــر قـــساوة هي الطرائق التي يمكن للائحة غير منطقية من الأشـــياء أن تحفـــز ذكريات زوجته القابعة في دماغه مثل عود ثقاب

مـــشتعل. لا يـــستطيع أبـــداً أن يـــتوقع ما هو الشيء الذي قد يحفز الذكـــريات؛ مرشـــة ملح، مشية امرأة غريبة في شارع مزدحم، قنينة كوكا كولا، لطخة أحمر شفاه على زجاج، وسادة ناعمة...

لكـــن، بـــين كل هذه الأشياء، ما من شيء غير منطقي لناحية النـــسيج الـــضام، أو أكثـــر إيلاماً لناحية التأثير، من الماء؛ الجاري من الـــصنبور، أو المنهمـــر من السماء، النازل على الرصيف، أو كما هي الحال الآن، المنتشر حوله لأميال عدة في كل اتجاه.

قـــال لتشاك: "اندلع حريق في مبنى شقتنا. كنت في العمل. مات أربعـــة أشخاص. كانت واحدة منهم. الدخان هو الذي قتلها، تشاك، ولـــيس النار. لذا، لم تمت متألمة. ربما ماتت خائفة. ولكن ليس متألمة. هذا هو المهم".

ارتشف تشاك القليل من قنينته، وعرضها على تيدي مجدداً.

هـــزّ تيدي رأسه. "توقفت عن الشرب. بعد الحريق. كانت تقلق بـــشأن ذلك، هل تعرف؟ كانت تقول إننا نحن الجنود ورجال الشرطة نـــشرب الكـــثير من الشراب. لذا...". أحسّ بتشاك قربه، يغرق في الإحـــراج، وقـــال: "تعرف كيف تتقبل شيئاً كهذا، تشاك. لا تملك خياراً. مثل كل اللعنات التي رأيناها في الحرب. هل تذكر؟".

أومأ تشاك برأسه، وصغرت عيناه مع الذكريات للحظة.

قال تيدي بهدوء: "هذا ما تفعله".

قال تشاك في النهاية: "طبعاً". فيما لا يزال وجهه متورداً.

ظهر الرصيف، كما لو أنه ظهر بفعل حيلة ضوئية، متمدداً على الرمل، مثل قطعة علكة من هذه المسافة، وهمية ورمادية.

شـــعر تيدي أنه مصاب بالجفاف منذ خروجه من الحمام، وربما بالقلـــيل من الإرهاق في الدقيقتين الأخيرتين، مهما تعلم تقبل المسألة،

تقبل غياها، لا يزال ثقل المصيبة ينهكه بين الحين والآخر. ثمة ألم كليل استقر في الجهة اليسرى من رأسه، مباشرة خلف عينه، كما لو أنه يتم الضغط بالجهة الخلفية لملعقة قديمة. لا يزال الوقت باكراً جداً لمعرفة إذا، كـــان هذا مجرد تأثير جانبـــي بسيط للنشفان، أو بداية صداع عادي، أو تلمـــيحاً أولـــياً لشيء أسوأ؛ صداع الشقيقة الذي طارده منذ أيام المـــراهقة، والذي يعود في أوقات مختلفة بقوة كبيرة، بحيث يسلبه النظر مؤقـــتاً في عـــين واحدة، ويحوّل الضوء إلى عاصفة هوجاء من المسامير الساخنة، وجعله مرة – مرة واحدة فقط لحسن الحظ – مشلولاً جزئياً ليوم ونصف اليوم. صداع الشقيقة، أو صداعه هو على الأقل، لا يزوره أبـــداً خلال أوقات الضغط أو العمل، وإنما بعد ذلك، حين يهدأ كل شيء، بعدما تتوقف كل القذائف عن السقوط، بعدما تنتهي المطاردة. بعد ذلك، في المخيم أو الثكنة، أو منذ الحرب، في غرف الفنادق أو في أثـــناء العودة إلى المنـــزل، على الطرقات السريعة، يأتي صداع الشقيقة ليفعل أسوأ أفعاله. الحيلة التي تعلمها تيدي منذ زمن بعيد، تقضي بإبقاء نفـــسه مشغولاً ومركزاً. لا يستطيع صداع الشقيقة اللحاق بك إذا لم تتوقف عن الركض.

قال لتشاك: "هل سمعت الكثير عن هذا المكان؟".

"إنه مستشفى للأمراض العقلية، هذا كل ما أعرفه".

قال تيدي: "للمجانين المجرمين".

أجاب تشاك: "حسناً، ما كنا سنأتي إلى هنا لو لم يكن كذلك".

رآه تـــيدي وهو يبتسم تلك الابتسامة الخجولة مجدداً. "لا تعرف أبداً تشاك. لا تبدو لي عاقلاً مئة في المئة".

"قـــد أحجز ربما سريراً لي في أثناء وجودنا هنا، للمستقبل، بحيث أتأكد من أنهم حجزوا مكاناً لي".

قـــال تيدي، فيما توقفت المحركات عن العمل للحظات: "ليست فكـــرة ســـيئة". وتمايل المركب مع حركة التيار، ثم عادت المحركات للعمــــل مجـــدداً، وأصبح تيدي وتشاك أمام البحر المفتوح، فيما تراجع المركب إلى الخلف، في اتجاه الرصيف.

قـــال تـــيدي: "حـــسبما أعلم، إنهم متخصصون في المقاربات الجذرية".

قال تشاك: "الحمراء؟".

أجاب تيدي: "ليس الحمراء. الجذرية فقط. ثمة فرق بين الاثنين".

"لا يمكنك معرفة ذلك مؤخراً".

وافقه تيدي الرأي: "صحيح، لا يمكنك ذلك أحياناً".

"وهذه المرأة هربت، ممن؟".

قـــال تـــيدي: "لا أعرف الكثير عن ذلك. هربت الليلة الماضية. دوّنت اسمها في دفتري. أتصوّر أنهم سيخبروننا بكل شيء آخر".

نظـــر تشاك إلى الماء حوله قائلاً: "إلى أين ستذهب؟ هل ستسبح للعودة إلى ديارها؟".

هزّ تيدي كتفه قائلاً: "المرضى هنا يعانون – على ما يبدو – من مجموعة منوعة من الأوهام".

"انفصام في الشخصية؟".

"نعم، حسبما أظن. لن تعثر هنا على المعاقين الاعتياديين على كل حـــال. أو علـــى رجـــل يخاف من تشققات الرصيف، أو ينام كثيراً. حسبما أعرف من الملف، الجميع هنا مجانين *فعلاً*".

قـــال تشاك: "لكن ما عدد الأشخاص الذين يتظاهرون بذلك؟ لطالمـــا فكرت في ذلك. هل تذكر فرقة الثمانية التي التقيتها في الحرب؟ كم كان فعلاً عدد المجانين برأيك؟".

"خدمتُ مع رجل في أردين...".

"كنتَ هناك؟".

أومـــأ تيدي برأسه. "ذاك الرجل، استيقظ ذات يوم وهو يتكلم بالمقلوب".

"الكلمات أو العبارات؟".

قال تيدي: "العبارات. كان يقول: *الرقيب حضرة اليوم هنا الدم مــن الكــثير يوجد*. لكن في أواخر بعد الظهر، عثرنا عليه في حفرة، يضرب رأسه بصخرة. يضربه فقط. مراراً وتكراراً. كنا مذهولين جداً، لدرجة أننا احتجنا إلى دقيقة لإدراك أنه جرح عينيه".

"أنت تكذب عليّ".

هــزّ تــيدي رأسه. "سمعت من رجل، بعد سنوات، أنه صادف الــرجل الأعمــى في مستشفى بيطري في سان دييغو. لا يزال يتكلم بالمقلــوب، وأصــيب بــنوع من الشلل، لم يستطع أحد من الأطباء تــشخيص ســببه، وكان يجلس على كرسي نقّال قرب النافذة طوال الــيوم، يتحدث باستمرار عن محاصيله، وأنه عليه العودة إلى محاصيله. تبين أن الرجل ترعرع في بروكلين".

"حــسناً، رجل من بروكلين يظن أنه مزارع، أعتقد أنه من قسم المجانين".

"هذا أمر مؤكد".

2

التقاهما نائب آمر السجن واردن ماكفرسون عند رصيف المرفأ. كان شاباً بالنسبة إلى رجل في منصبه، وكان شعره الأشقر أطول قليلاً من المألوف، وكشف عن لباقة طفيفة في حركاته، بحيث ربطها تيدي بأهل تكساس، أو بالرجال الذين ترعرعوا حول الأحصنة.

كان محاطاً بالجنود، معظمهم من العبيد مع بعض الرجال البيض ذوي الوجوه المفتقدة إلى الحيوية، كما لو أنه لم يتم إطعامهم كفاية، حين كانوا أطفالاً، وبقوا مذهولين ومنزعجين منذ ذلك الحين.

ارتدى الجنود قمصاناً بيضاء وسراويل بيضاء وتحركوا في مجموعة واحدة. بالكاد ألقوا نظرة على تيدي وتشاك. بالكاد ألقوا نظرة على أي شيء، وإنما تحركوا فقط على الرصيف نحو المركب، وانتظروا حتى يفرغ حمولته.

أخرج تيدي وتشاك بطاقتيهما بناء على الطلب، وأخذ ماكفرسون وقته في تفحصهما، وراح ينقل نظره من بطاقتي التعريف إلى وجهيهما.

قال لهما: "لست واثقاً من أنني رأيت بطاقة مارشال[1] أميركي من قبل".

(1) المارشال هو موظف إداري يقوم بمثل المهام الموكولة إلى الشريف أو عمدة البلدة. أو موظف قضائي مكلف بالقيام بمهام معينة. (المصحح)

أجابه تشاك: "والآن رأيت اثنتين. يوم عظيم".

وجه إلى تشاك ابتسامة كسولة، وأعاد إليه البطاقة.

بدا الشاطئ وكأنه تعرض لهجوم البحر خلال الليالي الفائتة؛ فقد كان مليئاً بالأصداف والأخشاب الطافية، والهياكل العظمية للأسماك الميتة التي أكلتها الحيوانات المفترسة التي تعيش هنا. لاحظ تيدي قمامة لا بد من أنها وصلت إلى هنا من المرفأ الداخلي، علباً معدنية ولفافات ورق مشبعة بالماء، ولوحة سيارة مشطورة وباهتة وخالية من الأرقام، بفعل تأثير الشمس. كانت الأشجار بمعظمها من الصنوبر والقيقيب، نحيلة وهزيلة، واستطاع تيدي رؤية بعض المباني عبر الفجوات، مشيدة أعلى الهضبة.

ثمة احتمال أن دولوريس كانت لتحب هذا المكان، إذ كانت تستمتع بالاستلقاء تحت أشعة الشمس، لكن تيدي أحسّ فقط بالاندفاع المستمر لهواء المحيط، وهو تحذير من البحر أنه يستطيع الثوران حين يشاء، وجرّك إلى قعره.

عاد الجنود إلى الرصيف، وهم يحملون البريد والعلب الطبية، ووضعوها في العربات الصغيرة، فيما وقّع ماكفرسون على مستند صغير لتأكيد استلام الأغراض، ثم أعاد المستند إلى أحد حرّاس المركب وقال الحارس: "سنبحر مجدداً".

طرفت عينا ماكفرسون تحت الشمس.

قال الحارس: "العاصفة. يبدو أن أحداً لا يعرف كيف ستكون".

أومأ ماكفرسون برأسه.

قال تيدي: "سنتصل بالمحطة حين نرغب في العودة".

أومأ الحارس برأسه. قال مجدداً: "العاصفة".

أجابه تشاك: "طبعاً، طبعاً. سنتذكر ذلك".

أخـــذهما ماكفرســـون في طريق ممتد بين الأشجار. وبعد انتهاء الأشـــجار، بلغوا طريقاً معبّداً عبر مسارهم مثل ابتسامة عريضة، ورأى تـــيدي منــــــزلين على يمينه ويساره. المنـــزل إلى اليسار كان الأكثر بساطة بين الاثنين، وهو عبارة عن منـــزل فيكتوري مسقوف بالقرميد الأحمـــر الـــداكن، مع حواف سوداء، ونوافذ صغيرة بدت على شكل أكشاك للحرس. أما المنـــزل إلى اليمين فكان ثيودوري الطراز ومرتفعاً مثل قصر.

تابعوا طريقهم، وتسلقوا منحدراً شاهقاً ومكسواً بطحالب البحر قـــبل أن تصبح الأرض خضراء وملساء حولهم، ومستوية، فيما أصبح العـــشب أقصر، وأفسح المجال أمام مرج تقليدي ممتد على مسافة مئات الـــياردات قبل أن يتوقف أمام جدار من الآجر البرتقالي، الذي بدا أنه امـــتدّ على طول الجزيرة. بلغ ارتفاع الجدار عشر أقدام، وكان أعلاه مكـــسواً بـــشريط من الأسلاك، ولفت انتباه تيدي شيء ما في مظهر الأســـلاك. شـــعر بشفقة مفاجئة على أولئك الأشخاص الموجودين في الجهة الأخرى من الجدار، الذين يعرفون تماماً سبب تركيب الأسلاك، ويدركون جيداً رغبة العالم في إبقائهم محبوسين في الداخل. رأى تيدي عـــدة رجـــال ببـــزات كحلية مباشرة خارج الجدار، ورؤوسهم إلى الأسفل، فيما يحدقون إلى الأرض.

قـــال تشاك: "حراس تأديب في مصح عقلي. مشهد غريب، إذا كنت لا تخالفني الرأي سيد ماكفرسون".

قال ماكفرسون: "إنها مؤسسة ذات نظام أمني مشدد، تعمل وفق امتيازين مزدوجين، واحد من مديرية الصحة العقلية في ماساتشوستس، وآخر من القسم الفدرالي للسجون".

قال تشاك: "أفهم ذلك. لطالما تساءلت عن مقدار الأحاديث التي لديكم حول مائدة العشاء".

ابتسم ماكفرسون وهزّ رأسه قليلاً.

رأى تـيدي رجـلاً أسود الشعر يرتدي البزة نفسها، مثل بقية الحـراس، لكـن بزته مزينة بالأصفر عند الكتفين مع ياقة بارزة، فيما شـارته ذهبـية. كان الوحيد الذي مشى ورأسه مرفوع إلى الأعلى، ووضع يده خلف ظهره، فيما مشى بسرعة بين الرجال، ذكّرت مشيته تـيدي بكولونيلات التقاهم في الحرب، رجال كانت السيطرة بالنسبة إليهم عبئاً ضرورياً ليس فقط من الحرب، وإنما أيضاً من... حمل كتاباً أسود صغيراً قرب قفصه الصدري، وأومأ في اتجاههم ثم نـزل المنحدر الذي جاؤوا هم منه، وتطاير شعره الأسود في الهواء.

قال ماكفرسون: "إنه آمر السجن، ستتعرفان إليه لاحقاً".

أومـأ تـيدي برأسه، متسائلاً عن سبب عدم لقائهما به الآن، واختفى آمر السجن في الجهة الأخرى من المنحدر.

اسـتخدم أحـد الجـنود مفتاحاً لفتح البوابة في وسط الجدار، وانفـتحت الـبوابة على مصراعيها ودخل عبرها الجنود مع العربات الصغيرة، فيما اقترب حارسان من ماكفرسون ووقفا إلى جانبيه.

انتـصب ماكفرسـون في وقفـته، بطـريقة مهنية الآن، وقال: "سأعطيكما أيها الرجلان المخطط الأساسي للأرض".

"طبعاً".

"ستحـصلان أيها الرجلان على كل الامتيازات التي نقدمها، وعلـى كـل المساعدة التي نستطيع توفيرها. لكن خلال إقامتكما، مهمـا كانـت قـصيرة، عليكما الانصياع للبروتوكول. هل هذا مفهوم؟".

أومأ تيدي برأسه، وقال تشاك: "طبعاً".

ثبّت ماكفرسون عينيه على نقطة مباشرة فوق رأسيهما. "أنا واثق من أن الدكتور كاولي سيشرح لكما تفاصيل البروتوكول، لكن عليّ التشديد على الآتي: ممنوع الاتصال غير المراقب بالمرضى الموجودين في هذه المؤسسة. هل هذا مفهوم؟".

كاد تيدي يقول: نعم سيدي كما لو أنه عاد إلى المدرسة العسكرية، لكنه توقف، واكتفى بقول: "نعم". ببساطة.

"الجناح أ في هذه المؤسسة هو المبنى الموجود إلى يميني، جناح الرجال. الجناح ب، جناح النساء، موجود إلى يساري. أما الجناح ج فهو تلك الأجراف العالية الموجودة مباشرة خلف هذا المجمّع ومقرّ الموظفين، موجود في، ما كان سابقاً، فورت والتون. ممنوع دخول الجناح ج من دون موافقة خطية والحضور الفعلي لآمر السجن والدكتور كاولي على حدٍّ سواء. هل هذا مفهوم؟".

أومأ الرجلان مجدداً برأسيهما.

مد ماكفرسون راحة إحدى يديه، كما لو أنه يتوسل الشمس. "والآن أطلب منكما تسليم سلاحيكما".

نظر تشاك إلى تيدي. هزّ تيدي رأسه.

قال تيدي: "سيد ماكفرسون، نحن مارشلان فدراليان معينان بمهمة رسمية. ويطلب منا القانون حمل سلاحينا على الدوام".

صدح صوت ماكفرسون في الهواء مثل الكابل الفولاذي. "الأمر التنفيذي 391 من القانون الفدرالي للسجون والمؤسسات الخاصة بالمجانين المجرمين ينص على أن تبطل رخصة حمل الأسلحة بناء على الأمر المباشر للمسؤولين المباشرين، أو الأشخاص المسؤولين عن رعاية وحماية السجون، أو مرافق الصحة العقلية. لا يمكنكما أيها الرجلان أن

تكـــونا اســـتثناءً على القانون. لن يسمح لكما بعبور هذه البوابة مع سلاحيكما".

نظر تيدي إلى تشاك. حنى تشاك رأسه صوب راحة يد ماكفرسون الممددة وهزّ كتفه.

قال تيدي: "نودّ تسجيل استثنائنا في السجل".

قال ماكفرسون: "أيها الحارس، دوّن من فضلك استثناء المارشلين دانيالز وأول".

"حاضر سيدي".

قال ماكفرسون: "أيها السادة".

قام الحارس إلى يمين ماكفرسون بفتح كيس جلدي صغير.

فتح تيدي معطفه، وأخرج مسدس الخدمة من قرابه. فتح أسطوانة المـــسدس بنقرة من معصمه ثم وضع المسدس في يد ماكفرسون. سلّمه ماكفرســـون إلى الحـــارس، ووضعه الحارس في الكيس الجلدي، ومدّ ماكفرسون يده مجدداً.

كـــان تـــشاك أبطـــأ قليلاً مع سلاحه، فتحسس بارتباك قراب المـــسدس، لكـــن ماكفرسون لم يتململ وإنما انتظر حتى وضع تشاك المسدس بطريقة غريبة في يده.

سلّم ماكفرسون المسدس إلى الحارس، ووضعه الحارس في الكيس الجلدي وخرج عبر البوابة.

قـــال ماكفرســـون بهدوء، وتناثرت كلماته مثل الأوراق: "سيتم الاحـــتفاظ بسلاحيكما في غرفة الممتلكات مباشرة، خارج مكتب آمر الـــسجن، الموجود في مبنى المستشفى الرئيس في وسط المجمّع. يمكنكما الحصول عليهما مجدداً يوم رحيلكما". عادت فجأة ابتسامة ماكفرسون العريـــضة والعفوية. "حسناً، انتهينا الآن من الأمور الرسمية. لا أعرف

الكــثير عنكما، لكنني مسرور بلقائكما. ما رأيكما في الذهاب لرؤية الدكتور كاولي؟".

اســتدار، وتــوجه نحو البوابة، ثم أغلق البوابة بعدما خرجوا جميعاً.

داخــل الجدار، كان العشب الأخضر ممتداً على جانبــي طريق رئــيس مــصنوع من الآجر نفسه الذي يغطي الجدار. كان بستانيون بكواحل مكبّلة بالأغلال يهتمون بالعشب والأشجار والأزهار، وحتى بمجمــوعة من أشجار الورد المزروعة حول المستشفى. كان البستانيون محاطين بالجنود، ورأى تيدي مرضى آخرين مكبلين بأغلال يمشون على الأرض بخطــى غريبة مثل البط. معظمهم كانوا من الرجال، مع عدد قليل من النساء.

قــال ماكفرســون: "حين جاء أول الأطباء إلى هنا، كانت كل المــساحة عبارة عن طحالب بحرية، وأشجار خفيضة. يجدر بكما رؤية الصور. أما الآن...".

إلى يمــين ويــسار المستشفى، انتصب مبنيان متشابهان من الآجر الأحمر مع حواف مطلية بالأبيض، ونوافذ مغطاة بقضبان حديدية، فيما الألــواح الــزجاجية أصــبحت صفراء نتيجة الملح ورذاذ البحر. أما المستــشفى نفسه فكان فاحم اللون، فيما أصبح آجره ناعماً بفعل تأثير البحــر، وارتفع ستة طوابق إلى أن أصبحت النوافذ الناتئة من السقف المائل مطلة عليها.

قــال ماكفرسون: "تم تشييده على أنه المقرّ الرئيس لكتيبة الجنود مباشرة قبل الحرب الأهلية. ويبدو أنه كانت هناك بعض التصاميم لجعل هــذا المكان مرفقاً للتدريب. والملفت أنهم ركّزوا على الحصن، ومن ثم على تحويل ذلك إلى معتقل لأسرى الحرب".

لاحظ تيدي البرج الذي رآه من المركب. كان رأسه أعلى قليلاً من مستوى الأشجار في الطرف البعيد من الجزيرة.

"ما هو هذا البرج؟".

قـــال ماكفرســـون: "إنه منارة قديمة. لم يتم استعمالها منذ بداية القـــرن التاسع عشر. كان جيش الاتحاد يضع حراس المراقبة هناك، أو هكذا سمعت، لكنها تحولت الآن إلى مرفق للمعالجة".

"للمرضى؟".

هزّ رأسه. "لمياه المجارير. لن تصدقا ما الذي يوجد في هذه المياه! قد يبدو المنظر جميلاً من المركب، لكن كل قطعة نفايات، من كل نهر في هـــذه الولاية تصل إلى المرفأ الداخلي، ثم تنتقل إلى المرفأ الوسطي، وتصل في النهاية إلينا".

"مـــذهل!". قال تشاك وهو يشعل سيجارة، ثم أخرجها من فمه وتثاءب قليلاً، فيما طرفت عيناه تحت الشمس.

"وراء الجـــدار، في هـــذه الناحية" – أشار إلى وراء الجناح ب – "يـــوجد المقرّ الرئيس للقيادة. ربما رأيتماه في طريقكما إلى هنا. كلّف تشييده ثروة في ذلك الحين، وأعفي القائد من مهامه حين دفع العم سام الفاتورة. يجدر بكما رؤية ذلك المكان".

قال تيدي: "من يعيش هناك الآن؟".

أجـــاب ماكفرسون: "الدكتور كاولي. لم يكن ليوجد أي شيء من هذا لولا الدكتور كاولي، وآمر السجن. لقد حققا شيئاً فريداً فعلاً هنا".

انـــتقلوا إلى الجهة الخلفية من المجمّع، والتقوا بالمزيد من البستانيين المكـــبلين والجـــنود، وكان العديد منهم يجرفون الأرض قرب الحائط الخلفي. من بين البستانيين امرأة في خريف العمر مع شعر بلون القمح،

أصبح تاج رأسها شبه أصلع، حدّقت إلى تيدي في أثناء مروره، ثم رفعت إصبعاً واحدة إلى شفتيها. لاحظ تيدي ندبة حمراء داكنة، سميكة مثل عرق السوس، على طول حنجرتها. ابتسمت، فيما لا تزال الإصبع فوق شفتيها، ثم هزّت رأسها ببطء شديد له.

قال ماكفرسون، فيما عادوا مجدداً إلى الجهة الأمامية للمستشفى: "كاولي أسطورة في مجاله، كان الأول في صفه في جامعتي جون هوبكينز وهارفارد على حدٍّ سواء، ونشر أول دراسة له حول الأمراض العقلية في عمر العشرين. تمت استشارته مرات عدة من قبل اسكوتلاند يارد، وMI5، ومكتب الخدمات الاستراتيجية".

سأل تيدي: "لماذا؟".

"لماذا؟".

أومأ تيدي برأسه. بدا السؤال منطقياً.

"حسناً...". بدا ماكفرسون تائهاً.

قال تيدي: "لماذا تستشير جماعة مكتب الخدمات الاستراتيجية طبيباً نفسياً؟".

قال ماكفرسون: "عمل الحرب".

قال تيدي ببطء: "صحيح، لكن أي نوع؟".

قال ماكفرسون: "النوع المصنّف، أو هكذا أفترض".

قال تشاك، وهو ينظر إلى تيدي بعين مذهولة: "كم هو مصنّف، إذا كنا نتحدث عن ذلك؟".

توقف ماكفرسون أمام المستشفى، ووضع قدمه على أول درجة. بدا مرتبكاً. نظر للحظة إلى الجدار البرتقالي ثم قال: "حسناً، أظن أنه يمكنك سؤاله. يفترض أن يكون انتهى من اجتماعه الآن".

صعدوا السلم، ودخلوا إلى ردهة رخامية، وكان السقف فوقهم على شكل قوس مقبب. انفتحت بوابة حين اقتربوا منها، وانتقلوا عبرها إلى غرفة كبيرة حيث جلس موظف أمام مكتبه إلى جهة اليمين، وجلس موظف آخر قبالته، إلى جهة اليسار، فيما امتد خلفهما رواق طويل يفضي إلى بوابة أخرى. أظهروا بطاقاتهم إلى الحارس عند وصولهم إلى السلم العلوي ودوّن ماكفرسون أسماءهم الثلاثة على ورقة، فيما تحقق الموظف من بطاقتيهما وهويتيهما وأعادها إليهما. وراء الموظف، يوجد قفص، ولاحظ تيدي وجود رجل بداخله يرتدي بزّة شبيهة ببزة آمر السجن، فيما المفاتيح معلقة في حلقات على الجدار خلفه.

صعدوا إلى الطابق الثاني، وانتقلوا إلى رواق فاحت منه رائحة صابون الخشب، فيما لمعت أرضية السنديان تحت أقدامهم، وسطعت بفعل الضوء الأبيض الداخل من النافذة الكبيرة في الطرف البعيد.

قال تيدي: "الأمن مشدد جداً".

أجاب ماكفرسون: "نتوخى كل درجات الحيطة والحذر".

قال تشاك: "من أجل سلامة الشعب، سيد ماكفرسون، أنا واثق من ذلك".

قال ماكفرسون وهو يستدير نحو تيدي، فيما مرّوا أمام مكاتب عدة، كانت أبوابها كلها موصدة وعليها أسماء أطباء محفورة على صفائح فضية صغيرة: "عليك أن تفهم أنه لا يوجد مثل هذا المرفق في الولايات المتحدة. نحن نستقبل المرضى الأكثر سوءاً. نستقبل الذين لا يستقبلهم أي مرفق آخر".

قال تيدي: "غرايس موجود هنا، أليس كذلك؟".

أومأ ماكفرسون برأسه. "نعم، فنسنت غرايس في الجناح ج".

قال تشاك لتيدي: "هل كان غرايس الشخص الذي...؟".

أومأ تيدي برأسه. "الذي قتل كل أقاربه، وسلخ جلود رؤوسهم وصنع لنفسه منها قبعات".

كان تشاك يومئ بسرعة. "ووضعها خلال تنقله في البلدة، أليس كذلك؟".

"حسبما ذكرت الصحف".

توقفوا أمام بابين مزدوجين. ثمة صفيحة نحاسية مثبتة على وسط الباب الأيمن كتب عليها: "مسؤول الموظفين، الدكتور ج. كاولي".

استدار ماكفرسون نحوهما، ووضع يده على مقبض الباب، ثم نظر إليهما بشدة غير مفهومة.

قال ماكفرسون: "في عصر أقل تحضراً من عصرنا، كان ليحكم على مريض مثل غرايس بالإعدام. لكنهم يستطيعون هنا دراسته، وتحديد مرضه، وربما عزل الشذوذ عن دماغه الذي دفعه للابتعاد تماماً عن أنماط السلوك المقبولة. إذا استطاعوا فعل ذلك، ربما نستطيع التوصل يوماً ما إلى طريقة للتخلص تماماً من هذا النوع من الجرائم في المجتمع".

بدا وكأنه ينتظر جواباً، إذ بقيت يده متصلبة على مقبض الباب.

قال تشاك: "الأحلام جيدة، ألا تظن ذلك؟".

3

كـــان الدكـــتور كـــاولي نحيلاً إلى درجة الهزل. ليس مثل العظام والغضاريف الطافية، التي رآها تيدي في داتشاو، وإنما يحتاج حتماً إلى عدة وجـــبات جيدة. كانت عيناه الداكنتان الصغيرتان غارقتين في محجريهما، وألقـــتا بظلالهما على بقية وجهه. كانت وجنتاه غارقتين جداً، بحيث بدتا منهارتين، وكان اللحم حولهما مليئاً ببثور قديمة العهد. كانت شفتاه وأنفه نحـــيلة مثل بقية جسمه، وبدا ذقنه مفلطحاً لدرجة عدم الوجود تقريباً. ما بقي من شعره كان داكناً بقدر عينيه والظلال التي تحتهما.

إلا أنـــه كـــشف عن ابتسامة متفجرة، ساطعة ومليئة بالثقة التي جعلـــت بؤبـــؤيه يشرقان، واستخدم الآن هذه الابتسامة، فيما استدار حول مكتبه لإلقاء التحية عليهما، ومدّ لهما يده.

قـــال: "مارشال دانيالز ومارشال أول، أنا مسرور لأنكما جئتما بهذه السرعة".

كانـــت يـــده جافة وناعمة جداً في يد تيدي، وكانت قبضة يده قـــوية لدرجـــة أنها سحقت العظام في يد تيدي فأحسّ تيدي بالضغط يـــصل إلى ســـاعده. تـــلألأت عينا كاولي للحظات، كما لو أنه أراد القول، لم تتوقع هذا، أليس كذلك؟ ثم انتقل إلى تشاك.

صـــافح تـــشاك وقـــال: "سررت بلقائك سيدي". ثم اختفت الابتـــسامة عـــن وجهـــه، وقال لماكفرسون: "هذا كل شيء للوقت الحاضر، حضرة نائب آمر السجن. شكراً لك".

قال ماكفرسون: "نعم سيدي. عذراً أيها السادة". وانسحب من الغرفة.

عـــادت ابتـــسامة كاولي، لكنها أصبحت أكثر لزوجة وذكّرت تيدي بالغشاء الذي يتكوّن فوق طبق الحساء.

"إنه رجل طيب، ماكفرسون، متحمس".

قال تيدي وهو يجلس أمام المكتب: "لأيّ أمر؟".

اخـــتفت ابتسامة كاولي مجدداً، وتجعد جانب واحد من وجهه، وبقي جامداً للحظة. "عذراً!".

قال تيدي: "إنه متحمس، ولكن لأي أمر هو متحمس؟".

جلـــس كاولي وراء المكتب المصنوع من خشب السّاج، وبسط ذراعـــيه. "مـــتحمس للعمل. ثمة انصهار معنوي بين القانون والنظام والرعاية السريرية. قبل نصف قرن من الزمن، أو حتى أقرب من ذلك، في عدد من الحالات، كان يسود الاعتقاد بضرورة تقييد المرضى الذين نـــستقبلهم هـــنا بالأغلال، وتركهم لوحدهم مع قذاراتهم. كان يتم ضربهم بشكل نظامي، كما لو أن هذا سيخرج المرض من داخلهم. كنا نحـــولهم إلى شياطين. كنا نعذبهم. كنا نضعهم على مصبعات حديدية، نعم. ندخل المسامير في أدمغتهم. أو حتى نغرقهم أحياناً".

سأل تشاك: "والآن؟".

"الآن نعـــالجهم، معنوياً. نحاول شفاءهم. وإذا أخفقنا، نوفر لهم على الأقل مقداراً من الهدوء في حياتهم".

سأل تيدي: "وماذا عن ضحاياهم؟".

رفع كاولي حاجبيه، وانتظر.

قال تيدي: "إنهم جميعاً مجرمون عنيفون، أليس كذلك؟".

أومأ كاولي برأسه. "نعم، في غاية العنف".

قال تيدي: "لقد ألحقوا إذاً، الأذى بأشخاص. وقتلوهم في العديد من الحالات".

"نعم، في أغلبها".

"ما هي إذاً، أهمية إحساسهم بالهدوء بالنسبة إلى ضحاياهم؟".

قال كاولي: "لأن مهمتي هي معالجتهم هم، وليس ضحاياهم. لا أستطيع مساعدة ضحاياهم. إنها طبيعة أي عمل، كل عمل في الحياة له قيود. هذا هو عملي. أستطيع فقط الاهتمام بالمرضى الذين هم عندي". ابتسم. "هل شرح السيناتور الوضع؟".

نظر تشاك وتيدي بسرعة إلى بعضهما بعضاً، فيما جلسا.

قال تيدي: "لا نعرف أي شيء عن السيناتور، أيها الدكتور. تم تعييننا من قبل المكتب الحكومي".

أسند كاولي مرفقيه على دفتر أخضر، موضوع فوق المكتب، وشبك يديه، ووضع ذقنه فوقهما، وحدّق إليهما من فوق حافة نظارته.

"لقد أخطأت إذاً. ماذا قيل لكما؟".

"نعرف أنك فقدت سجينة"، وضع تيدي دفتره على ركبتيه، وقلّب صفحاته. "اسمها راشايل سولاندو".

"مريضة". وجّه إليهما كاولي ابتسامة صفراوية.

قال تيدي: "مريضة، أعتذر. نعرف أنها هربت خلال الأربع والعشرين ساعة الماضية".

كانت إيماءة كاولي على شكل انحناء بسيط للذقن واليدين. "الليلة الفائتة، بين العاشرة ومنتصف الليل".

قال تشاك: "ولم يتم العثور عليها بعد".

"صحيح، أيها المارشال...". رفع يده باعتذار.

قال تشاك: "أول".

اختفـــى وجه كاولي بين يديه، ولاحظ تيدي نقاطاً من الماء على النافذة خلفه. لم يعرف ما إذا كان مصدرها السماء أو البحر.

قال كاولي: "هل اسمك تشارلز؟".

أجاب تشاك: "نعم".

قال كاولي: "سأناديك إذاً تشارلز، ولكن ليس بالضرورة أول".

"هذا من حسن حظي".

"لماذا؟".

قـــال تشاك: "لا نختار أسماءنا بأنفسنا. لذا، من الجميل أن يبدي شخص إعجابه بأحد الاسمين على الأقل".

قال كاولي: "من اختار اسمك؟".

"أهلي".

"واسم شهرتك؟".

هـــزّ تـــشاك كتفه. "ومن يعرف؟ علينا العودة عشرين جيلاً إلى الخلف".

"أو لجيل واحد".

انحنى تشاك إلى الأمام على كرسيه. "عذراً؟".

قال كاولي: "أنت يونانيّ أو أرمنيّ، أيهما؟".

"أرمنيّ".

"إذاً، أول كان...".

"آناسماجيان".

حوّل كاولي نظره إلى تيدي. "وأنت؟".

قال تيدي: "دانيالز. إيرلنديّ من عشرة أجيال". وجّه ابتسامة صغيرة إلى كاولي. "ونعم، أستطيع العودة إلى تاريخ جذوري، أيها الطبيب".

"لكن ما هو اسمك الأول؟ تيودور؟".

"إدوارد".

أرجع كاولي كرسيه إلى الخلف، وأفلت ذقنه من يديه. نقر على فـــتاحة رسائل فوق حافة المكتب، وكان الصوت ناعماً ومطرداً مثل صوت الثلج المتساقط على سقف.

"زوجتي اسمها مارغريت. لكن ما من أحد يناديها هكذا سواي. بعـــض أصدقائها القدامى ينادونها مارغو، وهذا منطقي نوعاً ما، لكن الآخرين ينادونها بيغي. لا أفهم ذلك أبداً".

"ماذا؟".

"كـــيف جاء بيغي من مارغريت. واللافت أن الاسم شائع جداً. أو كيف جاء تيدي من إدوارد. لا يوجد حرف الباء في مارغريت ولا حرف التاء في إدوارد".

هزّ تيدي كتفه. "ما اسمك الأول؟".

"جون".

"هل ناداك أحد يوماً جاك؟".

هزّ رأسه. "معظم الأشخاص ينادونني أيها الطبيب".

ســـال الماء قليلاً على النافذة، وبدا أن كاولي يراجع حديثهم في رأســـه، فشردت عيناه قليلاً، ثم قال تشاك: "هل تعتبر الآنسة سولاندو خطيرة؟".

قـــال كـــاولي: "كشف كل مرضانا عن ميل إلى العنف. ولهذا الـــسبب، هم هنا. أغرقت أولادها الثلاثة في البحيرة، وراء منـــزلها. أخـــرجتهم إلى هناك الواحد تلو الآخر، ووضعت رؤوسهم تحت الماء حـــتى ماتـــوا. ثم أعادتهم إلى المنـــزل، ووضعتهم حول طاولة المطبخ، وتناولت وجبة طعام هناك، قبل أن يدخل أحد جيرانها".

سأل تشاك: "هل قتلت جارها؟".

ارتفـــع حاجـــبا كاولي، وأصدر تنهيدة صغيرة. "لا. دعته للجلوس وتناول الفطور معها. رفض طبعاً، واتصل بالشرطة. لا تزال راشايل تعتقد أن أولادها أحياء وينتظرونها. قد يبرر ذلك سبب محاولتها الهرب".

قال تيدي: "للعودة إلى المنـــزل".

أومأ كاولي برأسه.

سأل تشاك: "وأين يقع منـــزلها؟".

"في بلدة صغيرة في بيركشاير. على مسافة مئة وخمسين ميلاً تقريباً مـــن هنا". أدار كاولي رأسه وأشار إلى النافذة التي خلفه. "للسباحة في هـــذا الاتجـــاه، لا يمكن بلوغ اليابسة قبل أحد عشر ميلاً. وللسباحة شمالاً، لا يمكن بلوغ اليابسة إلا عند نيوفاوندلاند".

قال تيدي: "هل قمتم بتفتيش المكان؟".

"نعم".

"جيداً؟".

احتاج كاولي إلى بضع ثوانٍ للإجابة، ولعب برأس حصان فضي موضـــوع على زاوية مكتبه. "أمضى آمر السجن ورجاله ومجموعة من الجنود الليل بكامله، وقسماً كبيراً من الصباح في تفتيش الجزيرة، وكل مـــبنى في المؤســـسة. لا أثـــر لها. والمقلق أكثر هو أننا لا نعرف كيف اســـتطاعت الخروج من غرفتها. كانت الغرفة مقفلة من الخارج، وثمة قضبان حديدية على نافذتها الوحيدة. لم نعثر على أي دليل أنه تم العبث بالأقفـــال". أبعـــد عينيه عن الحصان، ونظر إلى تيدي وتشاك. "يبدو وكأنها تبخرت عبر الجدران".

دوّن تـــيدي كلمة *تبخرت* على دفتره. "وهل أنت واثق من أنها كانت في تلك الغرفة عند ضغط زر إيقاف تشغيل الإنارة؟".

"نعم".

"وكيف ذلك؟".

رفـــع كـــاولي يده عن الحصان، وضغط على زرّ النداء في هاتفه الداخلي. "الممرضة مارينو؟".

"نعم دكتور".

"اطلبـــي، من فضلك، من السيد غانتون أن يدخل".

"فوراً دكتور".

ثمـــة طاولـــة صـــغيرة قرب النافذة مع إبريق ماء وأربعة أكواب زجاجية عليها. توجه كاولي إليها وملأ ثلاثة أكواب ماءً. وضع واحداً أمام تيدي وواحداً أمام تشاك، وأخذ كوبه ووضعه أمامه على المكتب.

قال تيدي: "لا تملك بعض الأسبيرين هنا، أليس كذلك؟".

وجه إليه كاولي ابتسامة صغيرة. "أعتقد أننا نستطيع تدبر أمرنا". فتش في درج مكتبه، وأخرج علبة من باير. "حبتين أو ثلاثاً؟".

"أفضل ثلاث حبات". شعر تيدي أن الألم بدأ خلف عينه.

أعطـــاه كـــاولي الحبات عبر المكتب، ووضعها تيدي في فمه، ثم شرب الماء.

"هل أنت عرضة للصداع أيها المارشال؟".

قال تيدي: "عرضة لدوار البحر لسوء الحظ".

أومأ كاولي برأسه. "آه. مصاب بالجفاف".

أومأ تيدي برأسه، وفتح كاولي علبة سجائر، وسلّمها مفتوحة إلى تـــيدي وتـــشاك. أخذ تيدي سيجارة. هزّ تشاك رأسه، وأخرج علبته الخاصة، أشعلوا هم الثلاثة سجائرهم فيما فتح كاولي النافذة خلفه.

جلـــس مجدداً خلف مكتبه، ومرر فوق المكتب صورة فوتوغرافية لامرأة شابة، جميلة، وجهها ملطخ بهالات سوداء تحت عينيها، وكانت

الهـــالات داكنة بقدر شعرها الأسود. أما عيناها فكانتا كبيرتين جداً، كمـــا لو أن شيئاً ساخناً يخزهما من داخل رأسها. ما رأته وراء عدسة الكـــاميرا، وراء المصور الفوتوغرافي، وراء أي شيء في العالم المعروف ربما لم يكن لطيفاً.

ثمـــة شيء مألوف على نحو مزعج فيها، ثم أجرى تيدي الربط؛ تذكّر شاباً رآه في المخيم لم يكن يتناول الطعام الذي يعطونه إياه. اتكأ على جدار تحت شمس إبريل، وكشفت عيناه عن النظرة نفسها إلى أن أغلـــق جفنـــيه أخيراً، وأضافوه في النهاية إلى كومة الجثث في محطة القطار.

أطلق تشاك صفيراً خفيفاً. "يا الله!".

مجّ كاولي سيجارته. "هل هذا رد فعلك على جمالها الظاهري أو على جنونها الظاهري؟".

أجاب تشاك: "على الاثنين".

هاتـــان العيـــنان، فكّـــر تيدي. كانتا تصرخان بقوة بالرغم من تجمـــدهما في الزمان. ترغب في دخول الصورة والقول: "لا، لا، لا. لا بـــأس، لا بأس. ششششش". ترغب في الإمساك بها إلى أن يتوقف كل الارتجاف، وتقول لها إن كل شيء سيكون على ما يرام".

فُتِح باب المكتب، ودخل شخص أسود طويل مع بقع رمادية في شعره وكان يرتدي البزة البيضاء الخاصة بالممرضين.

قال كاولي: "سيد غانتون، إنهما الرجلان اللذان أخبرتك عنهما؛ المارشالان أول ودانيالز".

وقـــف تيدي وتشاك وصافحا غانتون، وشعر تيدي بخوف قوي، صـــادر من الرجل، كما لو أنه لا يرتاح لمصافحة رجال القانون، ربما صدر بحقه حكم أو حكمان خارجاً، في العالم.

"يعمـــل الـــسيد غانتون معنا منذ سبعة عشر عاماً. إنه مسؤول الممرضـــين هنا. السيد غانتون هو الذي رافق راشايل إلى غرفتها الليلة الفائتة. سيد غانتون!".

شبك غانتون كاحليه، ووضع يديه على ركبتيه، وانحنى قليلاً إلى الأمام، ووجه عينيه إلى حذائه. "كانت هناك مجموعة في التاسعة مساء. ثم...".

قـــال كاولي: "إنها جلسة علاج جماعي يقودها الدكتور شيهان والممرضة مارينو".

انتظر غانتون حتى تأكد من إنهاء كاولي كلامه قبل أن يبدأ مجدداً. "إذاً، نعـــم. كانـــوا في مجموعة وانتهت الجلسة قرابة العاشرة. رافقت راشـــايل إلى غرفتها. دخلت، أغلقت الباب عليها من الخارج. نتحقق مـــن الغرف كل ساعتين خلال الليل. عدت في منتصف الليل. نظرت إلى الداخل، وكان سريرها فارغاً. تصوّرت أنها ربما على الأرض. يفعل المرضى ذلك كثيراً، النوم على الأرض. فتحت الباب...".

كاولي مجدداً: "باستعمال مفاتيحك، صحيح، سيد غانتون؟".

أومـــأ غانـــتون إلى كاولي، ونظر مجدداً إلى ركبتيه. "استخدمت مفاتيحـــي، نعم لأن الباب مقفل. دخلت. لم أعثر على الآنسة راشايل في أي مكـــان. أغلقت الباب، وتحققت من النافذة والقضبان. كانت مغلقـــة بإحكـــام أيضاً". هزّ كتفه. "اتصلت بآمر السجن". نظر إلى كاولي، ووجه إليه كاولي إيماءة أبوية هادئة.

"هل من أسئلة أخرى أيها السيدان؟".

هزّ تشاك رأسه.

رفـــع تـــيدي رأسه عن دفتره وقال: "سيد غانتون، قلت إنك دخلت الغرفة وتأكدت من أن المريضة ليست موجودة في الداخل. ماذا يعني ذلك؟".

"سيدي؟".

قال تيدي: "هل هناك خزانة؟ مساحة تحت السرير تستطيع الاختباء تحتها؟".

"الاثنان".

"وتحققت من هذين المكانين؟".

"نعم سيدي".

"والباب لا يزال مفتوحاً".

"سيدي؟".

"قلت إنك دخلت الغرفة، ونظرت حولك، ولم تعثر على المريضة. ثم أغلقت الباب وراءك".

"لا، أنا... حسناً...".

انتظر تيدي، ومجّ مجدداً السيجارة التي أعطاه إيّاها كاولي. كانت سيجارة ناعمة، أغنى من سجائر التشسترفيلد خاصته، وكانت رائحة الدخان مختلفة أيضاً، حلوة تقريباً.

قال غانتون: "استغرق الأمر كله خمس ثوانٍ، سيدي. لا باب للخزانة. نظرت داخلها، نظرت تحت السرير، وأغلقتُ الباب. لا مكان لتختبئ فيه. الغرفة صغيرة".

قال تيدي: "لكن، على الجدار؟ إلى يمين الباب أو يساره؟".

"لا". هزّ غانتون رأسه، وللمرة الأولى رأى تيدي أنه لمح غضباً في عينيه، إحساساً باستياء أولي وراء العينين المخفضتين ووراء "نعم سيدي"، و"لا سيدي".

قال كاولي لتيدي: "هذا غير محتمل، فهمت قصدك أيها المارشال، لكن حين ترى الغرفة، ستفهم أن السيد غانتون ما كان ليفوّت رؤية المريضة لو كانت واقفة *في أي مكان* ضمن الجدران الأربعة".

قـــال غانتون: "هذا صحيح". وقد حدق الآن مباشرة إلى تيدي، ولاحظ تيدي أن الرجل يملك كبرياء في مبادئ عمله، وقد أهانه تيدي من خلال أسئلته.

قـــال كـــاولي: "شكراً لك سيد غانتون. هذا كل شيء للوقت الحاضر".

وقـــف غانتون، وحدقت عيناه إلى تيدي لبضع ثوانٍ إضافية، ثم قال: "شكراً لك دكتور". وغادر الغرفة.

ســـاد هـــدوء لدقيقة، فأنهى الرجال الثلاثة سجائرهم ثم أطفأوها في المنافض، قبل أن يقول تشاك: "أظن أنه علينا رؤية الغرفة الآن، دكتور".

قال كاولي: "طبعاً". ونهض من وراء مكتبه، وحمل في يده علاقة مفاتيح كبيرة. "اتبعاني".

كانت غرفة صغيرة جداً يفتح بابها إلى الداخل وإلى اليمين، فيما الـــباب مـــصنوع من الفولاذ والمفاصل مزيّتة جيداً بحيث التصق الباب تمامـــاً بالجـــدار إلى اليمين. إلى اليسار، ثمة مساحة صغيرة من الجدار، وبعدها خزانة خشبية صغيرة مع بضعة أثواب فضفاضة وسراويل معلقة في علاّقات خشبية.

اعترف تيدي: "تصح الآن تلك النظرية".

أومـــأ كاولي برأسه. "لا يوجد مكان لها لتختبئ من أي شخص يقف عند هذا الباب".

قـــال تـــشاك: "حسناً، السقف". نظر الثلاثة إلى أعلى، وكشف كاولي عن ابتسامة.

أغلق كاولي الباب خلفهم، وأحس تيدي فجأة بشعور السجين في داخلـــه. يمكـــنهم القـــول إنها غرفة، لكنها في الواقع زنـــزانة.

النافذة الموجودة فوق السرير الضيق، كانت مغطاة بالقضبان الحديدية. ثمة منضدة صغيرة على الجدار الأيمن، فيما الأرضية والجدران مصنوعان من الاسمنت الأبيض. مع وجودهم هم الثلاثة في الغرفة، بالكاد كان هناك مجال للتحرك من دون ارتطام الأطراف ببعضها.

قال تيدي: "من يستطيع أيضاً الدخول إلى الغرفة؟".

"في هذا الوقت من المساء ثمة عدد قليل من الأشخاص يملكون سبباً للوجود في الجناح".

قال تيدي: "طبعاً. ولكن من يستطيع الدخول إليها؟".

"الممرضون طبعاً".

قال تشاك: "والأطباء؟".

قال كاولي: "حسناً، الممرضات".

سأل تيدي: "ألا يملك الأطباء مفاتيح لهذه الغرفة؟".

أجاب كاولي، مع بعض الانزعاج: "بلى، لكن عند العاشرة مساء، يكون الأطباء قد خرجوا لقضاء الليل".

"وسلموا مفاتيحهم؟".

"نعم".

قال تيدي: "وهل من سجل لذلك؟".

"نعم، أتابعه".

قال تشاك: "عليهم التوقيع على استلام المفاتيح وتسليمها، أيها الطبيب، وهذا ما نسأل عنه".

"طبعاً".

قال تيدي: "ونريد التحقق من سجل الليلة الفائتة".

"نعم، نعم، طبعاً".

قال تشاك: "يكون هذا السجل موجوداً في القفص الذي رأيناه في الطابـــق الأول. القفـــص الذي يوجد حارس داخله، وجدار المفاتيح خلفه؟".

أعطاه كاولي إيماءة سريعة.

قـــال تـــيدي: "وملفات الموظفين، تلك الخاصة بالفريق الطبـــي والممرضين والحراس. نريد الاطلاع على تلك الملفات".

حدّق إليه كاولي، كما لو أن وجه تيدي مليء بالبعوض الأسود. "لماذا؟".

"ثمـــة امرأة اختفت من غرفة مقفلة، دكتور! هربت على جزيرة صـــغيرة جداً ولا يستطيع أحد العثور عليها! عليّ التفكير، على الأقل، أنها حصلت على المساعدة".

قال كاولي: "سنرى".

"سنرى؟".

"نعـــم أيهـــا المارشـــال. عليّ التحدث مع آمر السجن وبعض الموظفين الآخرين. سنحدد الاستجابة لطلبك بناء على...".

قـــال تيدي: "دكتور، ليس هذا طلباً. نحن هنا بأمر من الحكومة. هذا مرفق فدرالي هربت منه سجينة خطيرة...".

"مريضة!".

قال تيدي، وقد أبقى صوته هادئاً قدر الإمكان: "مريضة خطيرة، هربت. إذا رفضت مساعدة مارشلين أميركيين، دكتور، تكون، لناحية هروب تلك المريضة، لسوء الحظ - تشاك؟".

قال تشاك: "تعرقل العدالة، دكتور".

نظـــر كاولي إلى تشاك كما لو أنه كان يتوقع الأذى من تيدي، لكن تشاك لم يكن على راداره.

قال، وقد اختفت الحياة من صوته: "نعم، حسناً، كل ما أستطيع قوله هو أنني سأبذل كل ما في وسعي لتلبية طلبكما".

تبادل تيدي وتشاك نظرة سريعة، وعادا للنظر إلى الغرفة الجرداء. ربما لم يكن كاولي معتاداً على الأسئلة التي تستمر، بعد أن يبدي انزعاجه منها، ولذلك منحاه دقيقة لكي يلتقط أنفاسه.

نظر تيدي إلى الخزانة بالغة الصغر، ورأى ثلاث بذلات فضفاضة بيضاء، وزوجين من الأحذية البيضاء. "ما عدد الأحذية التي يحصل عليها كل مريض؟".

"اثنان".

"تركت هذه الغرفة حافية القدمين؟".

"نعم". ثبّت ربطة العنق تحت ثوبه الأبيض، ثم أشار إلى ورقة كبيرة موضوعة على السرير. "وجدنا هذه وراء المنضدة. لا نعرف ما يعنيه ذلك. كنا نأمل في أن يخبرنا شخص ما".

رفع تيدي الورقة وبرمها ليلاحظ أن الوجه الآخر كان مثل جدول طبي لفحص العيون، بحيث انكمشت الأحرف واتخذت شكل هرم. أعاد برم الورقة وأعطاها إلى تشاك:

قانون الأربعة

أنا 47

هم 80

+ أنت 3

نحن 4

لكن

من هو 67؟

لم يحب تيدي حتى الإمساك بالورقة. ارتعشت حواف الورقة على أصابعه.

قال تشاك: "اللعنة عليّ إذا كنت أعرف".

اقترب كاولي منهما. "مماثل تماماً لاستنتاجنا السريري".

قال تيدي: "نحن ثلاثة".

حدّق تشاك إلى الورقة. "هوه!".

قال تيدي: "قد نكون نحن الثلاثة. نحن الثلاثة الآن الذين نقف في هذه الغرفة".

هزّ تشاك رأسه. "كيف كانت ستعرف ذلك؟".

هزّ تيدي كتفه. "هذا تحليل".

"نعم".

قال كاولي: "نعم، وكانت راشايل ذكية جداً في ألاعيبها. أوهامها - خصوصاً تلك التي تجعلها تصدق أن أولادها الثلاثة لا يزالون على قيد الحياة - مبنية على هندسة دقيقة جداً، وإنما معقدة. للحفاظ على التركيبة، تستخدم سرداً دقيقاً ومفصلاً لحياتها، يكون وهمياً تماماً".

برم تشاك رأسه ببطء، ونظر إلى كاولي.

"أحتاج إلى شهادة لفهم ذلك، دكتور".

قهقه كاولي. "فكّر في الأكاذيب التي كنت تقولها لأهلك، حين كنت ولداً. كم كانت معقدة. بدلاً من إبقائها بسيطة لشرح سبب غيابك عن المدرسة، أو نسيانك لواجباتك، كنت تجعل الأكاذيب خيالية، صحيح؟".

فكّر تشاك في الأمر، وأومأ برأسه.

قال تيدي: "طبعاً. يفعل المجرمون الشيء نفسه".

"بالضبط. الفكرة هي التشويش. إرباك المستمع إلى أن يصدق المسألة بدافع الإرهاق وليس بناءً على أي حقيقة. فكّر الآن في تلك الأكاذيب التي تقولها لنفسك. هذا ما تفعله راشايل. طوال أربعة أعوام، لم تعترف أبداً أنها كانت في مصح عقلي. برأيها الشخصي، لقد عادت إلى بيركشاير في منزلها، ونحن رجال التوصيل، وعمال البريد، وأشخاص مارّون مرور الكرام. مهما كانت الحقيقة، استخدمت قوة الإرادة لجعل أوهامها أقوى".

قال تيدي: "لكن، كيف لا تظهر الحقيقة أبداً؟ أعني، إنها في مصح عقلي. كيف لا تلاحظ ذلك من وقت إلى آخر؟".

قال كاولي: "آه، بدأنا الآن نغوص في الجمال المريع للتركيبة المخيفة لانفصام الشخصية. إذا صدقتما، حضرة الرجلين، أنكما الوحيدان اللذان يعرفان الحقيقة، سيكون كل الآخرين كاذبين. وإذا كان الجميع يكذب...".

قال تشاك: "فإن أي حقيقة يقولونها تكون كذبة".

هزّ كاولي إبهامه، وأشار إليه بإصبعه مثل مسدس. "فهمت الأمر".

قال تيدي: "وينطبق الشيء نفسه تقريباً على هذه الأرقام؟".

"لا بد من ذلك. لا بد أنها تمثل شيئاً ما. مع راشايل، ما من فكرة تافهة أو إضافية. عليها منع التركيبة في رأسها من الانهيار، ولذلك، عليها *التفكير* دوماً. هذه هي التركيبة على ورقة". قال وهو ينقر على الورقة: "أظن بصراحة أن هذه الورقة يمكن أن تقول لنا إلى أين ذهبت".

لبرهة واحدة، رأى تيدي أن الفكرة أصبحت أوضح بالنسبة إليه. إنه واثق من أول رقمين – الرقم 47 والرقم 80 – أحس بهما يخربشان

في دماغـــه، مثل لحن أغنية يحاول تذكرها فيما يبث الراديو لحناً مختلفاً تمامـــاً. الرقم 47 هو التلميح الأسهل. الأمر واضح أمامه. هذا بسيط جداً. إنه...

ثم انهـــارت كـــل جسور المنطق الممكنة، وأحس تيدي أن عقله أصـــبح فارغاً، وعرف أن كل شيء طار منه مجدداً؛ التلميح، الرابط، الجسر، وأعاد الورقة إلى السرير مجدداً.

قال تشاك: "جنون".

سأل كاولي: "ما هو؟".

قال تشاك: "إلى حيث ذهبت. برأيي".

أجـــاب كـــاولي: "حـــسناً، طبعاً. أظن أننا نستطيع اعتبار ذلك افتراضاً".

4

وقفـــوا خارج الغرفة. ثمة درج وسط الرواق. كان باب راشايل إلى يسار الدرج، في منتصف الطريق، من الجهة اليمنى.

سأل تيدي: "هذا هو المخرج الوحيد من هذا الطابق؟".

أومأ كاولي برأسه.

سأل تشاك: "لا نفاذ إلى السطح؟".

هـــزّ كـــاولي رأسه. "السبيل الوحيد للصعود إلى الأعلى هو من مخـــرج الحـــريق. ستجدانه في القسم الجنوبـــي من المبنى. هناك بوابة، وتكـــون البوابة مقفلة دوماً. لا شك في أن الموظفين يملكون المفاتيح، ولكـــن المرضى لا يملكونها. للوصول إلى السطح، عليها النـــزول إلى الأســـفل، والخـــروج من المبنى، واستعمال المفتاح، والتسلق مجدداً إلى السطح".

"هل تم التحقق من السطح؟".

إيمـــاءة أخـــرى. "كما هي حال كل الغرف الأخرى في الجناح. على الفور. ما إن تم اكتشاف اختفائها".

أشـــار تيدي إلى ممرض، جلس قرب طاولة صغيرة أمام الدرج. "يوجد شخص هنا على مدار الساعة؟".

"نعم".

"إذاً، لقد كان شخص ما موجوداً هناك الليلة الفائتة".

"بالفعل، الممرض غانتون".

صعدوا الدرج وقال تشاك: "إذاً...". ورفع حاجبيه أمام تيدي.

"إذاً". وافقه تيدي.

قال تشاك: "إذاً، خرجت سولاندو من غرفتها المقفلة إلى هذا الرواق، ونزلت على هذا الدرج". نزلوا الدرج بأنفسهم ورفع تشاك إبهامه لممرض؛ كان في انتظارهم في ردهة الطابق الثاني. "مرّت أمام ممرض آخر هنا، لا نعرف كيف، بحيث جعلت نفسها غير مرئية أو شيئاً من هذا القبيل، ونزلت إلى هذا الطابق التالي وخرجت إلى...".

نزلوا إلى الطابق الأخير، وأصبحوا أمام غرفة كبيرة مفتوحة فيها أرائك عدة بمحاذاة الجدار، وطاولة كبيرة قابلة للطي في الوسط مع كراسٍ قابلة للطي، ونوافذ أشبعت المكان بضوء أبيض.

قال كاولي: "غرفة الجلوس الرئيسة. حيث يمضي معظم المرضى أمسياتهم. أجريت الجلسة العلاجية هنا الليلة الماضية. ستلاحظان أن مكتب الممرضات موجود مباشرة بعد هذا الباب هنا. بعد إطفاء الأنوار، يجتمع الممرضون هنا. يفترض أن يمسحوا الأرض، وينظفوا النوافذ وما شابه، لكننا، في أغلب الأحيان، نعثر عليهم هنا وهم يلعبون الورق".

"والليلة الماضية؟".

"حسب الذين كانوا في الخدمة، كانت لعبة الورق في أوجها. سبعة رجال، جلسوا مباشرة عند أسفل الدرج، للعب البوكر".

وضع تشاك يديه على وركيه، وأخرج نَفَساً طويلاً عبر فمه. "كررت لعبة الاختفاء نفسها مجدداً، على ما يبدو، وتحركت إلى اليمين أو اليسار. اليمين يقودها إلى قاعة الطعام، ومن ثم إلى المطبخ، وبعد ذلك يوجد باب مسيّج ومزود بجهاز إنذار بدءاً من التاسعة ليلاً، بعدما

يغـــادر موظفـــو المطـــبخ. إلى اليـــسار، هناك غرفة الممرضات وقاعة الموظفين. لا باب إلى الخارج. السبيل الوحيد للخروج، هو هذا الباب في الجهة الأخرى من قاعة الجلوس، أو في الجهة الخلفية من الرواق وراء الـــسلالم. وكان هناك رجال مراقبة في كلا المكانين الليلة الفائتة". نظر كاولي إلى ساعته. "أيها الرجلان، لديّ اجتماع. إذا كانت لديكما أي أســـئلة، اســـألا من فضلكما أي واحد من الموظفين أو يمكنكما زيارة ماكفرســـون. هو من تولى عملية البحث لغاية الآن. يفترض أن يملك كـــل المعلـــومات الـــتي تحتاجان إليها. يتناول الموظفون الطعام في تمام السادسة في قاعة التأمل في الطابق الأرضي من مبنى نوم الموظفين. بعد ذلك، نجتمع هنا في قاعة الموظفين، ويمكنكما التحدث إلى أي شخص كان يعمل خلال حادث الليلة الماضية".

خـــرج مـــسرعاً من الباب الرئيس، وراقباه إلى أن استدار يساراً واختفى.

قـــال تيدي: "هل من شيء في ذلك يدلّ على أن العملية *ليست* مدبرة من الداخل؟".

"أنـــا مولع جداً بنظرية الاختفاء. لا بد أنها كانت تضع التركيبة العجيـــبة في قارورة. هل تتبعني؟ يحتمل أنها تراقبنا الآن، تيدي". نظر تـــشاك بـــسرعة فوق كتفه ومن ثم نظر إلى تيدي. "شيء للتفكير في شأنه".

بعد الظهر، انضما إلى حفلة البحث، وتحركا داخل الجزيرة، فيما أصـــبح الهـــواء أكثر دفئاً. كان معظم الجزيرة مكسواً بالعشب، مليئاً بالأعشاب الضارة والحقول السميكة من العشب الطويل، الملتف حول القسم المعترش من السنديان العتيق والكرمة الخضراء المغطاة بالأشواك.

في معظم الأماكن، كان المرور البشري مستحيلاً، حتى مع المناجل التي حملها بعض الحراس. لا تملك راشايل سولاندو منجلاً، وحتى لو كانت تملك، بدا أن طبيعة الجزيرة تدفع كل الزائرين إلى الشاطئ.

رأى تيدي أن البحث مفكك، كما لو أنه لا يوجد أحد متحمس لـــه باستثنائه وتشاك. شق الرجال طريقهم، على طول الحلقة الداخلية فوق الشاطئ، بعيونٍ مسمّرة إلى الأسفل وخطى متثاقلة. في مرحلة ما، استداروا حول رفٍ من الصخور السوداء، وواجهوا منحدراً يطل على البحـــر. إلى يـــسارهم، خلف بقعة من الطحالب والأشواك، والتوت الأحمر الملتف في كتل متشابكة، ثمة فرجة صغيرة، تمتد على قاعدة بعض الهـــضاب المنخفـــضة. شمخت الهضاب بشكل عمودي، وكانت كل واحدة أعلى من الأخرى، إلى أن أفسحت المجال أمام الجرف الشاهق المـــسنن، ولاحـــظ تيدي فتحات في الهضاب، وفجوات في جانب الجرف.

قال لماكفرسون: "كهوف؟!".

أومأ برأسه. "القليل منها".

"هل تحققتم منها؟".

تـــنهد ماكفرسون، وأشعل عود ثقاب، بمنأى عن الهواء، لإشعال ســـيجار رفيع. "تملك زوجين من الأحذية أيها المارشال. عثرنا عليهما في غـــرفتها. كيف ستتمكن من عبور كل ما عبرناه للتو، وتجتاز كل هذه الصخور، وتتسلق هذا الجرف؟".

أشـــار تيدي إلى خلف الفرجة في القسم المنخفض من الهضاب. "تأخذ هذا الطريق، وتشق طريقها إلى الأعلى من الغرب.

وضع ماكفرسون إصبعه قرب إصبع تيدي. "حيث تنتهي الفرجة ثمـــة مـــستنقع مباشرة هناك عند طرف إصبعك. قاعدة تلك الهضاب

مغطاة باللبلاب السام، والبلوط الحي، والسماق، وألف نوع تقريباً، من النباتات المختلفة، وكلها مليئة بأشواك بحجم ابني".

"هـــل يعني ذلك أنها كبيرة أو صغيرة؟". قال تشاك، الذي كان يقف أمامهما ببضع خطوات، ونظر إليهما من فوق كتفه.

ابتسم ماكفرسون. "ربما بين الاثنين".

أومأ تشاك برأسه.

"كل ما أقوله أيها الرجلان هو أنها لا تملك أي خيار سوى البقاء قرب الشاطئ، والتحرك نصف المسافة فقط في كلا الاتجاهين، لتهرب من الشاطئ". أشار إلى الجرف. "ستصادف واحداً من هذه".

بعـــد ساعة، في الجهة الأخرى من الجزيرة، وصلوا إلى خط السياج. ارتفع وراءه الحصن القديم والمنارة، ولاحظ تيدي أن المنارة تملك سياجها الخاص، مع حارسين عند البوابة يحملان بندقيتين على صدرهما.

قال: "عملية عفنة".

أومأ ماكفرسون برأسه.

نظر تيدي إلى تشاك. رفع تشاك حاجبيه.

قال تيدي مجدداً: "عملية عفنة".

لم يأتِ أحد إلى طاولتهما عند العشاء. جلسا بمفردهما، مبللين من رذاذ المطـــر الذي بدأ الهواء الدافئ يحمله من المحيط. في الخارج، بدأت الجزيرة تقع في الظلمة، ويتحول النسيم الخفيف إلى ريح قوية.

قال تشاك: "غرفة مقفلة".

قال تيدي: "حافية القدمين".

"عبرت ثلاث نقاط تفتيش داخلية".

"مجموعة كبيرة من الممرضين والممرضات".

أضاف تشاك: "حافية القدمين".

حرك تيدي طعامه الذي هو نوع من فطيرة الراعي، وكان اللحم قاسياً. "فوق جدار مزود بعزل كهربائي".

"أو عبر بوابة محروسة برجال".

"خارج هذا". بدأ الهواء يعصف بالمبنى ويهبّ في الظلمة.

"حافية القدمين".

"لم يرها أحد".

مـــضغ تشاك طعامه، وارتشف القليل من القهوة. "إذا مات أحد في هذه الجزيرة؛ لا بد أن هذا يحدث، صحيح؟ إلى أين يذهبون؟".

"يتم دفنهم".

أومأ تشاك برأسه. "هل رأيت مقبرة اليوم؟".

هزّ تيدي رأسه. "ربما مسيجة في مكان ما".

"مثل النبتة العفنة. طبعاً". أبعد تشاك صينيته، ورجع إلى الخلف في كرسيه. "إلى من سنتحدث بعد ذلك؟".

"إلى الموظفين".

"هل تظن أنهم سيكونون مفيدين؟".

"ألا تظن ذلك؟".

ابتـــسم تشاك ابتسامة عريضة. أشعل سيجارة، وأبقى عينيه على تـــيدي، وتحولت ابتسامته إلى ضحكة ناعمة، فرقص دخان السيجارة على إيقاع الضحكة.

وقف تيدي في وسط الغرفة، وتحلق الموظفون في دائرة حوله. وضع يديه فوق كرسيّ معدنيّ، ووقف تشاك قربه، ووضع يديه في جيبيه.

قـــال تـــيدي: "أعتقد أن الجميع يعرفون سبب وجودنا هنا. شهدتم حادثة فرار الليلة الماضية. نستطيع القول إن المريضة اختفت. لا نملك دليلاً يسمح لنا باعتقاد أن المريضة غادرت هذه المؤسسة من دون مـــساعدة. هـــل تـــوافقني الـــرأي حضرة نائب آمر السجن ماكفرسون؟".

"نعم. أقول إن هذا تقييم منطقي في الوقت الحاضر".

كـــان تيدي على وشك التحدث مجدداً حين قال كاولي، الجالس علـــى كرسي قرب الممرضة: "هل يمكنكما التعريف عن نفسيكما أيها الرجلان؟ لم يتعرف إليكما عدد من موظفيّ".

وقف تيدي بشكل منتصب. "المارشال الأميركي إدوارد دانيالز. هذا شريكي، المارشال الأميركي تشارلز أول".

لوّح تشاك تلويحاً خفيفاً إلى المجموعة، ثم أعاد يده إلى جيبه.

قال تيدي: "حضرة نائب آمر السجن، لقد قمت أنت ورجالك بتفتيش المكان".

"طبعاً فعلنا".

"وماذا وجدتم؟".

تمدد ماكفرسون في كرسيه. "لم نعثر على أي دليل يوحي بوجود امـــرأة هاربـــة. لا يوجد قماش من ثياب ممزقة، ولا آثار قدمين، ولا نـــباتات محنية. كان التيار قوياً جداً الليلة الفائتة، والمدّ مرتفعاً. لا مجال أبداً للسباحة".

قالت الممرضة، كيري مارينو "لكنها ربما حاولت". مارينو امرأة نحيلة، شعرها أحمر أفلتته من أعلى رأسها، وفكته من مشبك آخر كان وســـط شعرها الطويل مباشرة، فور دخولها الغرفة. وضعت قبعتها في حـــضنها، ومشطت شعرها بأصابعها بطريقة كسولة، توحي بالتعب،

لكنها جعلت كل رجل في الغرفة ينظر إليها، بالطريقة التي أوحت فيها الأصابع المتعبة بالحاجة إلى سرير.

قال ماكفرسون: "ما هذا؟".

توقفت أصابع مارينو عن التحرك في شعرها وأعادتها إلى حضنها.

"كـيف نعرف أنها لم تحاول السباحة، وانتهت بالغرق بدلاً من ذلك؟".

تثاءب كاولي في معصمه وقال: "كانت لتطفو الآن على الشاطئ مع هذا المد!".

رفعـت ماريـنو يـدها كما لو أنها تريد القول، أوه عذراً أيها الرجال، وقالت: "فكّرت فقط في التطرق إلى الموضوع".

قـال كاولي: "ونقدّر ذلك. حضرة المارشال، اطرح أسئلتك من فضلك. لقد كان يوماً طويلاً".

نظـر تيدي إلى تشاك، فوجه إليه تشاك انحناءة بسيطة في العينين. امـرأة مفقودة لها تاريخ عنف كبير في جزيرة صغيرة ويبدو أن الجميع يرغبون في الخلود إلى النوم.

قال تيدي: "أخبرنا السيد غانتون قبلاً، أنه زار غرفة الآنسة سولاندو في منتـصف اللـيل، واكتشف اختفاءها. لم يتم العبث بقفلي قضبان النافذة والباب في غرفتها. بين العاشرة والثانية عشرة من الليلة الفائتة، سيد غانتون، هل حصل أنك لم تراقب الرواق في الطابق الثالث؟".

اسـتدارت عدة رؤوس نحو غانتون، وشعر تيدي بالارتباك لرؤية نـوع من السرور في بعض الوجوه، كما لو أن تيدي هو أستاذ الصف الثالث، وطرح سؤالاً على التلميذ الأضعف في الصف.

تحدث غانتون وهو ينظر إلى قدميه. "لم تكن عيناي على الرواق فقط حين دخلت الغرفة ووجدتها مختفية".

"استغرق ذلك ثلاثين ثانية".

"بالأحــــرى خمس عشرة ثانية". وجّه عينيه إلى تيدي. "إنها غرفة صغيرة".

"لكن، ما عدا ذلك؟".

"ما عدا ذلك، كان الجميع في غرفهم في تمام العاشرة. كانت آخر من دخل إلى غرفتها. جلست في الرواق و لم أرَ أحداً طوال ساعتين".

"و لم تترك أبداً مكانك؟".

"لا، سيدي".

"لم تحضر كوباً من القهوة أو ما شابه؟".

هزّ غانتون رأسه.

قــــال تــــشاك، وهو يبتعد عن العمود: "حسناً أيها السادة. عليّ القــــيام بوثبة كبيرة هنا. عليّ القول، من باب الجدل فقط، وليس من باب تقليل الاحترام للسيد غانون، إنه يمكننا مناقشة فكرة زحف الآنسة سولاندو على السقف أو ما شابه".

قهقه عدد من أفراد المجموعة.

"ووصــــلت إلى الدرج المؤدي إلى الطابق الثاني. من أعطاها إذن المرور؟".

رفع رجل، يرتدي البذلة البيضاء وله شعر برتقالي، يده.

قال تيدي: "ما اسمك؟".

"غلين، غلين ميغا".

"حسناً، غلين. هل كنت في مكان عملك طوال الليل؟".

"نعم".

قال تيدي: "غلين".

"نعم". نظر من فوق الظفر الذي كان يقضمه.

"في الحقيقة".

نظر غلين إلى كاولي، ومن ثم إلى تيدي. "نعم، كنت كذلك".

قال تيدي: "هيا غلين".

حدّق غلين إلى عيني تيدي، وبدأت عيناه تتسعان ثم قال: "ذهبت إلى الحمام".

انحنى كاولي إلى الأمام على ركبتيه. "من جلس مكانك؟".

قال غلين: "كان غياباً سريعاً للتبوّل، سيدي. عذراً".

قال تيدي: "لكم من الوقت؟".

هزّ غلين كتفه. "دقيقة على الأكثر".

"دقيقة. هل أنت واثق؟".

"لست جملاً".

"لا".

"دخلت وخرجت".

قال كاولي: "انتهكت البروتوكول. يا الله!".

"أعرف، سيدي. أنا...".

قال تيدي: "في أي وقت حصل ذلك؟".

"الحادية عشرة والنصف تقريباً". خوف غلين من تيدي بدأ يتحول إلى كره تجاه تيدي. بعد بضعة أسئلة، أصبح عدائياً.

قال تيدي: "شكراً غلين". واستدار نحو تشاك مع حني للرأس.

قال تشاك: "في الحادية عشرة والنصف تقريباً، هل كانت لعبة البوكر لا تزال في أوجها؟".

استدارت رؤوس عدة نحو بعضها بعضاً، ثم استدارت نحو تشاك، وأومأ بعدها شخص واحد برأسه، وحذا حذوه بقية الأشخاص.

"من كان لا يزال جالساً في ذلك الوقت؟".

رفــع أربعة رجال سود ورجل أبيض أيديهم. حدد تشاك الزعيم بيــنهم، أول رجل أومأ برأسه، أول رجل رفع يده. كان رجلاً بديناً، بدا رأسه حليقاً ولامعاً تحت الضوء.

"اسمك؟".

"تراي، سيدي. تراي واشنطن".

"تراي، أين كنتم تجلسون؟".

أشـــار تراي إلى الأرض. "مباشرة هنا، في وسط الغرفة، مع النظر مباشرة إلى ذلك الدرج، نظرة إلى الباب الأمامي، ونظرة إلى الخلف".

مـــشى تـــشاك للوقوف قربه، وبرم رأسه في اتجاه البابين الأمامي والخلفي والدرج. "موقع جيد".

أخفـــض تراي صوته. "لم تكن المشكلة مع المرضى فقط سيدي. مع الأطباء أيضاً وبعض الممرضات الذين كانوا لا يحبوننا. لا يفترض بنا لعب الورق. علينا أن نرى من يأتي، ونمسك بالممسحة بلمح البصر".

ابتسم تشاك. "لكنكم تتحركون بسرعة أيضاً".

"هل شاهدت يوماً، البرق في شهر أغسطس؟".

"نعم".

"إنه بطيء مقارنة بنهوضي عن الأرض".

أدى ذلـــك إلى تفكك المجموعة، بحيث لم تستطع الممرضة مارينو كـــبت ابتسامتها، ولاحظ تيدي بعض الرجال السود يمررون أيديهم لبعضهم. عرف أنه خلال مدة إقامتهما، سيكون تشاك الشرطي الجيد. يجيد التعاطي مع الأشخاص، كما لو أنه يشعر بالارتياح مع أي شريحة من الأشخاص، بصرف النظر عن لونهم أو لغتهم. تساءل تيدي، كيف سمح له مكتب سياتل اللعين بالذهاب، سواء أأرادوا إبعاده عن صديقته أم لا؟!

مـــن جهة أخرى، كان تيدي، الذكر الأول، غريزياً. حين يقبله الرجال، مثلما فعلوا بسرعة كبيرة في الحرب، يتفقون معه بشكل رائع. لكن قبل ذلك، يسود التوتر.

"حـــسناً، حسناً". رفع تشاك يده لتهدئة الضحك، فيما كان لا يـــزال يبتسم. "إذاً، تراي، كنتم جميعاً، عند قاعدة هذا الدرج، تلعبون الورق. متى عرفتم أن هناك خطباً ما؟".

"حـــين، بـــدأ آيـــك، آه أقصد سيد غانتون، يصرخ نادوا آمر السجن. ثمة من هرب".

"ومتى كان ذلك؟".

"في الثانية عشرة ودقيقتين وتسع وثلاثين ثانية".

رفع تشاك حاجبه. "هل أنت ساعة؟".

"لا سيدي. لكنني تدربت على النظر إلى الساعة عند أول دليل علـــى مشكلة. يمكن لأي شيء أن يكون ما تسمونه *حادثًا*، وعلينا جميعاً ملء تقرير بالحادث. أول شيء تسأل عنه في تقرير الحادث هو الـــوقت الـــذي بـــدأ فـــيه الحادث. هل تملأ ما يكفي من تقارير الأحـــداث؟ ستعتاد إذاً، على النظر إلى الساعة عند أول تلميح إلى مشكلة".

أومأ العديد من الموظفين برؤوسهم، فيما تكلم، مع بعض تمتمات مثل "أوه"، و"هذا صحيح"، خرجت من أفواههم، كما لو أنهم كورس في دار عبادة.

وجه تيدي نظرة إلى تشاك. "حسناً، ما رأيك في ذلك؟".

قال تشاك: "إذاً، في الثانية عشرة ودقيقتين".

"وتسع وثلاثين ثانية".

قال تيدي لغانتون: "هاتان الدقيقتان الإضافيتان بعد منتصف الليل

يمكن تبريرهما، لأنك كنت تتحقق من بعض الغرف الأخرى *قبل* وصولك إلى غرفة الآنسة سولاندو، صحيح؟!".

أومأ غانتون برأسه. "إنها في الغرفة الخامسة في الرواق. بهذا الاتجاه".

قال تيدي: "متى وصل آمر السجن إلى مكان الحادث؟".

قال تراي: "هيسكفيل، إنه أحد الحراس، كان أول من دخل عبر الباب الأمامي. كان يعمل عند البوابة حسبما أظن. وصل في الساعة الثانية عشرة وست دقائق واثنتين وعشرين ثانية. آمر السجن وصل، بعد أربع دقائق من ذلك، مع ستة رجال".

استدار تيدي نحو الممرضة مارينو. "سمعت كل هذه الحركة وأنت...".

"أقفلت مكتب الممرضات. خرجت إلى الردهة في الوقت نفسه الذي كان فيه هيسكفيل يعبر الباب الأمامي". هزّت كتفها، وأشعلت سيجارة، فحذا عدد من أفراد المجموعة حذوها، وأشعلوا سجائرهم.

"و لم يمرّ أحد أمامك في غرفة الممرضات".

وضعت ذقنها على كعب راحة يدها، وحدّقت عبر سحابة الدخان. "مرّ أمامي. أين الباب المؤدي إلى مركز العلاج المائي؟ ما إن تصل إلى هناك، حتى تصبح محبوساً في علبة إسمنتية مع الكثير من الأنابيب وبعض الأحواض الصغيرة".

"هل تم التحقق من تلك الغرفة؟".

قال ماكفرسون: "نعم حضرة المارشال". وبدا متعباً الآن.

قال تيدي: "حضرة الممرضة مارينو، كنت جزءاً من جلسة العلاج الجماعي الليلة الماضية؟".

"نعم".

"هل حدث أي شيء غريب؟".

"حدد ما تعنيه بالغريب".

"عفواً؟".

"إنه مصح عقلي، أيها المارشال. للمجانين المجرمين. وكلمة *عادي*، ليست مألوفة في قاموسنا".

أومأ تيدي برأسه ووجّه إليها ابتسامة خجولة. "دعيني أكرر ما قلته. هل حصل أي شيء ضمن المجموعة، في الليلة الفائتة، كان أكثر لفتاً للأنظار من...؟".

قال: "العادي؟".

دفع ذلك كاولي للابتسام، وصدرت بعض الضحكات الخافتة.

أومأ تيدي برأسه.

فكّرت في الأمر لدقيقة، وأصبح رماد سيجارتها أبيض اللون وانكسر. لاحظت ذلك، فنقرت السيجارة فوق المنفضة ورفعت رأسها. "لا، آسفة".

"وهل تحدثت مع سولاندو الليلة الماضية؟".

"نعم مرتين، حسبما أظن".

"عن ماذا؟".

نظرت مارينو إلى كاولي.

قال: "نفضح الآن خصوصية المرضى مع المارشالين".

أومأت برأسها، بالرغم من ملاحظة تيدي، أنها ليست مولعة جداً بالمفهوم.

"كنا نناقش السيطرة على الغضب. حصلت لدينا بعض التصرفات غير الملائمة في الآونة الأخيرة".

"من أي نوع؟".

"مرضـــى يصرخون في وجه مرضى آخرين، يقاتلون، هذا النوع مـــن الأمور. لا شيء خارج عن المألوف، وإنما فقط ارتفاع بسيط في الوتيرة، في الآونة الأخيرة، له علاقة ربما بموجة الحرّ أكثر من أي شيء آخر. لذا، ناقشنا الليلة الماضية الطرائق الملائمة، وغير الملائمة للتعبير عن القلق، أو الاستياء".

"هل كشفت سولاندو عن نوبات غضب في الآونة الأخيرة؟".

"راشايل؟ لا. أصبحت راشايل مضطربة فقط حين أمطرت. كان هذا إسهامها في المجموعة، الليلة الماضية.

"أسمـــع المطـــر. أسمـــع المطر. ليس هنا، لكنه آتٍ. ماذا سنفعل بالطعام؟".

"الطعام؟".

أطفأت مارينو سيجارتها، وأومأت برأسها. "تكره راشايل الطعام هنا. تشكو منه باستمرار".

قال تيدي: "لسبب وجيه؟".

كبتت مارينو نفسها قبل أن تتحول الابتسامة البسيطة إلى كبيرة. أخفـــضت عينـــيها. "يمكن القول إن السبب مفهوم ربما. نحن لا نلون الأسباب أو الحوافز لناحية الافتراضات الأخلاقية الجيدة أو السيئة".

أومأ تيدي برأسه. "وكان الدكتور شيهان هنا الليلة الماضية. أدار المجموعة. هل هو هنا؟".

لم يتحدث أحد. أطفأ عدة رجال سجائرهم في المنافض الموجودة بين الكراسي.

في الـــنهاية قـــال كـــاولي: "غـــادر الدكتور شيهان في المركب الصباحي. المركب الذي جئتما فيه إلى هنا".

"لماذا؟".

"لقد أخذ إجازة لبعض الوقت".

"لكننا نحتاج إلى التحدث معه".

قال كاولي: "أملك مستنداته المتعلقة بالجلسة الجماعية. أملك كل ملاحظاتـــه. ترك المرفق الأساسي في العاشرة مساء أمس، وذهب إلى مقـــرّه. غادر في الصباح. استحق إجازته منذ زمن طويل، وخطط لها أيضاً منذ زمن. لم نجد أي سبب لإبقائه هنا".

نظر تيدي إلى ماكفرسون.

"وافقت على ذلك؟".

أومأ ماكفرسون برأسه.

قال تيدي: "إنها حالة استثنائية. لقد هربت مريضة. كيف تسمح لأي كان، بالمغادرة خلال الحالة الاستثنائية؟!".

قـــال ماكفرسون: "تأكدنا من مكان وجوده خلال الليل. درسنا الأمر ورأينا أنه ما من سبب لإبقائه".

قال كاولي: "إنه *طبيب*".

قـــال تـــيدي بصوت خافت: "عظيم!". أكبر خرق للإجراءات القياسية، صُودِف في أي مؤسسة جزائية، ويتصرف الجميع كما لو أن المسألة غير مهمة".

"إلى أين ذهب؟".

"عفواً؟".

قال تيدي: "في العطلة. إلى أين ذهب؟".

نظـــر كاولي إلى السقف، محاولاً التذكر قائلاً: "نيويورك، أعتقد. المدينة، هناك توجد كل عائلته. بارك أفنيو".

قال تيدي: "أحتاج إلى رقم هاتفه".

"لا أفهم لماذا...".

قال تيدي: "دكتور، أحتاج إلى رقم هاتفه".

"سنجلبه لك أيها المارشال". أبقى كاولي عينيه على السقف. "هل من شيء آخر؟".

قال تيدي: "احزر".

أخفض كاولي ذقنه، ونظر إلى تيدي.

قال تيدي: "أحتاج إلى هاتف".

لم يصدر الهاتف، في غرفة الممرضات، أي شيء باستثناء صفير هواء فارغ. كانت هناك أربعة هواتف أخرى في الجناح، محبوسة وراء الزجاج، وحين تم فتح الزجاج، أعطت الهواتف كلها النتيجة نفسها.

توجه تيدي والدكتور كاولي إلى لوحة المفاتيح المركزية في الطابق الأول، من المبنى الرئيس للمستشفى. نظر إليهما عامل الهاتف، فيما دخلا عبر الباب، وكان يضع سماعات سوداء حول عنقه.

قال: "سيدي. تعطلت الاتصالات، حتى الإرسال اللاسلكي تعطل".

قال كاولي: "ليس الأمر بهذا السوء في الخارج".

هزّ عامل الهاتف كتفه. "سأستمر في المحاولة. لكنني لا أستطيع فعل الكثير هنا. الأمر مرتبط بالطقس الموجود في الجهة الأخرى".

قال كاولي: "استمر في المحاولة. وحين تتوصل إلى شيء أبلغني. يحتاج هذا الرجل إلى إجراء اتصال مهم".

أومأ عامل الهاتف برأسه، وأدار لهما ظهره، وأعاد السماعات إلى أذنيه.

في الخارج، كان الهواء مثل النفس المنقطع.

قال كاولي: "ماذا يفعلون إذا لم تسجل حضورك؟".

قـــال تيدي: "المكتب الميداني؟ يسجلونه في تقاريرهم الليلية. قبل أربع وعشرين ساعة عادة من بدء القلق".

أومأ كاولي برأسه. "قد يكون الوضع قد انتهى حينها؟".

قال تيدي: "انتهى؟ لم يبدأ حتى بعد".

هزّ كاولي كتفه، وبدأ يسير باتجاه البوابة. "ربما سأتناول الشراب مع تدخين سيجارة أو سيجارتين في منـــزلي. في تمام التاسعة. إذا كنت تحب أنت وشريكك المرور".

قال تيدي: "أوه، وهل نستطيع التكلم حينها؟".

توقف كاولي، ونظر إليه. الأشجار الداكنة في الجهة الأخرى من الجدار بدأت تتمايل وتصفر.

"نحن نتحدث أيها المارشال".

مـــشى تـــشاك وتيدي في الأراضي المظلمة، وأحسا بالعاصفة في الهواء الساخن حولهما، كما لو أن العالم حامل، متضخم.

قال تيدي: "هذا هراء".

"نعم".

"فاسد إلى أقصى الحدود".

"كنت معمدانياً. أقول لك *آمين أخي*".

"أخي؟".

"كيف يتكلمون هناك. أمضيت سنة في الميسيسيبـــي".

"حقاً؟".

"آمين، أخي".

أخذ تيدي سيجارة أخرى من تشاك وأشعلها.

قال تشاك: "هل اتصلت بالمكتب الميداني؟".

هزّ تيدي رأسه. "قال كاولي إن الاتصال معطل". رفع يده. "العاصفة، مثلما تعلم".

بصق تشاك التبغ عن لسانه. "العاصفة؟ أين؟".

قال تيدي: "لكنك تستطيع الإحساس بمجيئها". نظر إلى السماء الداكنة. "لكنني لا أعرف كيف عطلت الاتصالات المركزية".

قال تشاك: "الاتصالات المركزية. هل تركت الجيش، أم أنك لا تزال تنتظر أوراق التسريح؟".

قال تيدي: "لوحة المفاتيح". وهو يلوح بسيجارته. "أو ما يطلقون عليها الإرسال اللاسلكي أيضاً".

"الإرسال اللاسلكي اللعين؟". اتسعت عينا تشاك. "الإرسال اللاسلكي، سيدي؟".

أومأ تيدي برأسه. "هذا هراء حقيقي، نعم. وضعونا في جزيرة للبحث عن امرأة هربت من غرفة مقفلة...".

"واجتازت أربع نقاط تفتيش محروسة برجال!".

"وغرفة مليئة بالمراقبين الذين يلعبون البوكر!".

"وتسلقت جداراً ارتفاعه عشر أقدام!".

"مكهرباً!".

"وسبحت أحد عشر ميلاً...!".

"... عكس تيار هائج...".

"... وصولاً إلى الشاطئ. بغضب. أحب هذا. والماء بارد أيضاً. هل تصل الحرارة إلى خمس وخمسين درجة فهرنهايت في الماء؟".

"تصل إلى ستين درجة كحدٍّ أقصى. لكن في الليل؟".

أومأ تشاك برأسه. "تعود إلى خمس وخمسين. تيدي، هذه مسألة مترابطة مثلما تعلم".

قال تيدي: "والدكتور شيهان المفقود!".

قـــال تـــشاك: "لفت الأمر انتباهك أيضاً، أليس كذلك؟ لم أكن أكيداً. لكنني أحسست أنك لم تستفز كاولي كفاية، سيدي".

ضحك تيدي، ع صوت ضحكته ينتقل مع هواء الليل ويذوب في البعيد، كما لو أنه لم يوجد أصلاً، كما لو أن الجزيرة والبحر والملح أخذوا ما كنت تظن أنك تملكه و...

"... وإذا كنا قصة التغطية؟". قال تشاك.

"ماذا؟".

قال تشاك: "ماذا لو كنا قصة التغطية؟ ماذا لو تم إحضارنا إلى هنا للمساعدة على تمويه مسألة ما؟".

"وضوح، واتسون".

ابتسامة أخرى. "حسناً، سيدي. جرّب وحاول".

"سأفعل، سأفعل".

"فلنقل إن طبيباً معيناً افتتن بمريضة معينة".

"سولاندو".

"رأيت الصورة".

"إنها جذابة".

"جذابـــة. تـــيدي، إنها امرأة فاتنة جداً محبوسة في غرفة. هكذا، أغرت رجلنا، شيهان... هل فهمت المسألة الآن؟".

نقـــر تيدي سيجارته في الهواء، وراقب كيف تناثر الرماد واشتعل في الهواء، ثم تناثر عليه وتشاك. "وعلق شيهان في شباكها، وقرر أنه لا يستطيع العيش من دونها".

"الكلمة الأساسية هي العيش. كثنائي حرّ في العالم الحقيقي".

"لذا، هربا. بعيداً عن الجزيرة".

"يمكن أن يكون هذا استعراض دومينو مثلما نتحدث".

توقف تيدي عند الطرف البعيد لغرف نوم الموظفين، ووقف أمام الجدار البرتقالي. "لكن لماذا لم يتم استخدام الكلاب؟".

قال تشاك: "حسناً، لقد فعلوا. البروتوكول؛ عليهم إحضار أحد، وفي حالة فرار من مكان كهذا، تم إحضارنا نحن. لكن إذا كانوا يخبئون تـــورط مـــوظفين، نكون هنا لمجرد تقوية قصتهم؛ ويكونون فعلوا كل شيء حسب الأصول".

قال تيدي: "حسناً. ولكن لَم تغطية شيهان؟".

ضـــرب تـــشاك نعـــل حذائه بالحائط، وثنى ركبته، فيما أشعل سيجارة. "لا أعرف. لم أفكّر في ذلك ملياً بعد".

"إذا أخرجها شيهان من هنا، لا بد أنه قبّل بعض الأيدي".

"عليه فعل ذلك".

"الكثير من الأيدي".

"بعض الحاضرين على كل حال. كحارس أو اثنين".

"وتقبيل يد شخص في المركب. ربما أكثر من واحد".

"إلا إذا لم يغادر على متن المركب. ربما لديه مركبه الخاص".

فكّـــر تيدي في الأمر قليلاً. "ينحدر من عائلة غنية. بارك أفنيو، حسب كاولي".

"تقول إذاً، إنه يملك مركبه الخاص".

نظـــر تيدي إلى أعلى الجدار، إلى السلك الكهربائي المثبت فوقه، والناتئ مثل فقاعة مضغوطة، على زجاج.

قال تيدي بعد برهة: "يطرح ذلك أسئلة عديدة بقدر الأجوبة".

"كيف ذلك؟".

"لماذا تلك الرموز في غرفة راشايل سولاندو؟".

"حسناً، إنها *مجنونة*".

"لكن، لماذا تظهر ذلك لنا؟ أقصد، إذا كانت هذه تغطية، لماذا لا تجعـــل الأمر أسهل علينا، بحيث نوقع على التقارير ونعود إلى المنـــزل؟ *نام الحارس. أو صدأ القفل في النافذة، ولم تتم ملاحظة ذلك"*.

ضـــغط تـــشاك بيده على الجدار. "ربما كانوا وحيدين بحاجة إلى بعض الصحبة من العالم الخارجي".

"طبعاً. ابتكروا قصة ليتمكنوا من إحضارنا إلى هنا؟ يريدون شيئاً جديداً للتحدث بشأنه؟ أوافق على ذلك".

اســـتدار تـــشاك، ونظر مجدداً إلى آشكليف. "إذا وضعنا الهزل جانباً...".

استدار تيدي أيضاً، وقفا أمام المستشفى. "طبعاً...".

"بدأت أشعر بالتوتر هنا، تيدي".

5

قــــال كاولي: "يسمونها الغرفة العظيمة". فيما رافقهما عبر الردهة المرصــــوفة بالخشب إلى بابين من السنديان، مع مقبضين نحاسيين بحجم الأنانـــاس. "أنا جاد. عثرت زوجتي على بعض الرسائل غير المرسلة في العلّـــية من المالك الرئيس، الكولونيل سبايفي. تفيد الرسائل عن الغرفة العظيمة التي كان يبنيها".

أمسك كاولي بأحد المقبضين، وفتح الباب.

أصـــدر تشاك صفيراً منخفضاً. امتلك تيدي ودولوريس شقة في باتونـــوود كانت محطّ حسد الأصدقاء بسبب حجمها، بحيث كانت هـــناك ردهـــة مركزية بحجم ملعب كرة قدم تقريباً، لكن تلك الشقة توازي نصف مساحة هذه الغرفة.

كانـــت الأرض رخامـــية، مغطاة هنا وهناك بسجادات شرقية داكـــنة. الموقد أطول من معظم الرجال. الستائر وحدها ثلاث ياردات مـــن المخمل الأرجواني الداكن لكل نافذة، وهناك تسع نوافذ، كلّفت علـــى الأرجـــح أكثر مما جناه تيدي طوال عام كامل، أو ربما عامين. طاولـــة البليار استقرت في زاوية تحت لوحة زيتية لرجل يرتدي البذلة الكحلـــية الرسمية لجيش الاتحاد، ولوحة أخرى لامرأة في فستان أبيض مكـــشكش، ولوحة ثالثة للرجل والمرأة معاً، مع كلب عند أقدامهما، والموقد العملاق نفسه خلفهما.

قال تيدي: "الكولونيل؟".

تابع كاولي نظره، وأومأ برأسه. "تقاعد من عمله بعد فترة وجيزة مـــن انـــتهاء هذه اللوحات. عثرنا عليها في الطابق السفلي مع طاولة البليار، والسجادات، ومعظم الكراسي. يجدر بك رؤية الطابق السفلي أيها المارشال. يمكننا تشييد ملاعب بولو هناك".

شـــمّ تيدي رائحة تبغ الغليون، واستدار وتشاك في الوقت نفسه، وأدركا وجود رجل آخر في الغرفة. جلس وأدار لهما ظهره في كرسيٍّ هـــزاز كبير أمام الموقد، ومدد قدماً قبالة الركبة الأخرى، وجعل زاوية كتاب مفتوح ترتاح هناك.

رافقهما كاولي إلى الموقد، وأشار إلى مجموعة الكراسي الموضوعة أمـــام المـــوقد، فـــيما انتقل إلى خزانة المشروبات. "ماذا تشربان أيها الرجلان؟".

قال تشاك: "شراب الجاودار، إذا كان لديك".

"أظن أنني أستطيع أن أتدبر بعضاً منه. وأنت مارشال دانيالز؟".

"ماء وبعض الثلج".

نظر الغريب إليهما. "لا تفرطان في الشرب".

نظر تيدي إلى الرجل. ثمة رأس أحمر صغير، نتأ مثل حبة الكرز فوق جسم بدين. ثمة شيء دقيق فيه، وأحسّ تيدي أنه يمضي الكثير من الوقت، كل يوم في الحمام، وهو يدلك نفسه بمسحوق التلك والزيوت المعطرة.

قال تيدي: "وأنت؟".

قال كاولي: "زميلي، الدكتور جيريمياه نايهرينغ".

غمـــز الـــرجل بعينه، لكنه لم يمدّ يده، ولم يفعل ذلك تيدي ولا تشاك.

قـــال نايهرينغ: "أشعر بالفضول". فيما جلس تيدي وتشاك على المقعدين الموجودين إلى يسار نايهرينغ.

قال تيدي: "لماذا؟".

"لماذا لا تشربان. أليس شائعاً لرجال في مهنتكما أن يشربوا؟".

أعطاه كاولي شرابه، ووقف تيدي وتوجه إلى رفوف الكتب، إلى يمين الموقد. قال له: "شائع كفاية. وأنت؟".

"عذراً؟".

قال تيدي: "في مهنتك. لطالما سمعت أنها مليئة بالثملين".

"لم ألاحظ ذلك".

"لم تنظر جيداً إذاً؟".

"لست أكيداً من أنني أتابع الموضوع".

"ما هذا إذاً، شاي مثلج في كأسك؟".

استدار تيدي عن الكتب، وراقب نايهرينغ، وهو ينظر إلى كأسه، وترتسم ابتسامة ناعمة على فمه. "ممتاز مارشال. تملك آليات دفاع ممتازة. أفترض، أنك بارع جداً في الاستجواب".

هزّ تيدي رأسه، ولاحظ أن كاولي يحتفظ بعدد قليل من المراجع الطبية، على الأقل في هذه الغرفة. هناك عدد قليل منها، لكن الأغلبية هي قصص وبعض الكتب غير السميكة التي افترض تيدي أنها دواوين شعر، فيما امتلأت رفوف عدة بكتب التاريخ والسير الذاتية.

قال نايهرينغ: "أليس كذلك؟".

"أنا مارشال فدرالي. نتولى إحضار الأشخاص، هذا فقط. في معظم الأوقات، يتولى أشخاص آخرون إجراء المقابلة".

"أسميته *استجواباً* وأنت تسميه *مقابلة*. نعم، أيها المارشال، تملك قدرات دفاع مذهلة". نقر بكعب كأس الشراب الاسكتلندي خاصته على الطاولة مرات عدة، كما لو أنه يصفق. "رجال العنف يذهلونني".

"رجـــال مـــاذا؟". استدار تيدي نحو كرسي نايهرينغ، ونظر إلى الرجل الصغير، وحرك الثلج في كأسه.

أرجـــع نايهـــرينغ رأسه إلى الخلف، وارتشف القليل من كأسه. "العنف".

قـــال تـــشاك: "يا له من افتراض، أيها الطبيب!" وبدا منـــزعجاً بشكل علني، حسبما رأى تيدي.

"لا افتراض. لا افتراض".

حـــرك تيدي الثلج في كأسه مرة جديدة قبل أن يشربه، ولاحظ شـــيئاً يـــرتعش قرب العين اليسرى لنايهرينغ. وقال: "أوافق شريكي الرأي". وجلس على مقعده.

"لا". حوّل نايهرينغ الكلمة أحادية اللفظ إلى ثلاث. "قلت إنكم رجال عنف. ليس هذا مشابهاً لاتهامكم أنكم رجال عنيفون".

وجه إليه تيدي ابتسامة كبيرة. "ثقفنا".

كـــاولي، الذي كان واقفاً وراءهم، شغّل أغنية في الفونوغراف، وتلت خربشة الإبرة أصوات هسيس صغيرة ذكّرت تيدي بالهواتف التي حـــاول اســـتعمالها. ثم حـــلّ لحن من معزوفات الغيتار والبيانو مكان الهسيس. إنها موسيقى كلاسيكية، يعرفها تيدي جيداً، بروسية، ذكّرته بالمقاهـــي وراء الـــبحار وبمجموعة موسيقية رآها في مكتب نائب آمر الفصيلة في داتشاو، الرجل الذي كان يستمع إلى الموسيقى، حين أطلق النار على نفسه في فمه. كان لا يزال حياً حين دخل تيدي وأربعة من رفاقـــه إلى الغرفة. كان يقرقر. لم يستطع الوصول إلى المسدس لإطلاق الـــنار مـــرة ثانـــية، لأنه وقع على الأرض. تلك الموسيقى الهادئة التي زحفـــت في الغـــرفة مـــثل العناكب. احتاج إلى عشرين دقيقة إضافية ليموت، وكان اثنان من الجنود يسألانه إذا تألم، فيما فتشا الغرفة بدقة.

رفـــع تـــيدي صورة فوتوغرافية موضوعة في إطار عن حضن الرجل، صورة لزوجته وولديه، واتسعت عينا الرجل محاولاً الإمساك بالصورة، فيما أخذها تيدي بعيداً عنه. تراجع تيدي إلى الخلف، ونظر من الصورة إلى الـــرجل، جيئة وذهاباً، وذهاباً وجيئة، إلى أن مات الرجل. وطوال الوقت، كانت الموسيقى ما زالت تصدح بأنغامها.

سأل تشاك "براهمز؟".

"ماهلر". جلس كاولي قرب نايهرينغ.

قال نايهرينغ: "طلبت تثقيفاً".

وضع تيدي مرفقيه على ركبتيه، وبسط يديه.

قال نايهرينغ: "منذ أيام المدرسة، أراهن، أنكما لم تبتعدا أبداً عن النـــــزاع الجسدي. لا يوحي ذلك أنكما تستمتعان بهذا، لكنكما لم تعتبرا أبداً هذه الطريقة مجرد خيار. صحيح؟".

نظـــر تـــيدي إلى تشاك. وجه إليه تشاك ابتسامة صغيرة، مرتبكة قليلاً.

قال تشاك: "لم تتم تربيتي للركض، أيها الطبيب".

"آه نعم، تربية. ومن تولى تربيتك؟".

قال تيدي: "الدببة".

أشرقت عينا كاولي، فيما وجه إلى تيدي إيماءة صغيرة.

لكن يبدو أن نايهرينغ لم يقدّر المزاح. رتّب سرواله عند الركبة. "هل أنت مؤمن؟".

ضحك تيدي.

انحنى نايهرينغ إلى الأمام.

قال تيدي: "أوه، هل أنت جاد؟".

انتظر نايهرينغ.

"هل رأيت يوماً، مخيم موت أيها الطبيب؟".

هزّ نايهرينغ رأسه.

"لا؟". انحنى تيدي إلى الأمام. "لغتك الانكليزية جيدة جداً، لا بل خالية تقريباً من الأخطاء. لكنك لا تزال تلفظ الأحرف بقوة قليلاً".

"هل الهجرة القانونية جريمة، أيها المارشال؟".

ابتسم تيدي وهزّ رأسه.

"العودة إلى الإيمان إذاً".

"إذا رأيت مخيم موت يوماً ما، أيها الطبيب، عد إليّ وأخبرني عن قوةإيمانك".

كانـــت إيمـــاءة نايهرينغ عبارة عن إغلاق بطيء للجفنين وإعادة فتحهما، ثم نقل نظره إلى تشاك.

"وأنت؟".

"لم أرَ أبداً المخيمات شخصياً".

"هل أنت مؤمن؟".

هزّ تشاك كتفه. "لم أفكّر في الموضوع كثيراً، بطريقة أو بأخرى، منذ زمن بعيد".

"منذ أن مات والدك، صحيح؟".

انحنى تشاك الآن إلى الأمام هو الآخر، وحدّق إلى الرجل القصير والبدين بعينيه اللامعتين.

"لقـــد مات والدك، صحيح؟ وكذلك والدك أنت أيها المارشال دانيالـــز؟ في الواقع، أراهن أنكما فقدتما الوجه الذكوري المهيمن على حياتكما قبل ذكرى ميلادكما الخامسة عشرة".

قال تيدي: "خمس ماسات".

"عذراً؟". انحناء أكبر إلى الأمام.

"هـــل هذه حيلتك التالية؟". قال تيدي. "تخبرني عن البطاقة التي أحملـــها. أو، لا، انتظـــر، تقطع ممرضة إلى نصفين، وتسحب أرنباً من رأس الدكتور كاولي".

"ليست هذه حيلاً".

"مـــاذا عن هذا". قال تيدي، وهو يرغب في نـــزع ذلك الرأس الأحمـــر عن الكتفين الممتلئتين. "تعلم كيف تمشي امرأة عبر الجدران، وتهرب من مبنى مليء بالحراس والموظفين، وتطفو عبر البحر؟".

قال تشاك: "هذه واحدة جيدة".

طـــرف نايهـــرينغ عينيه مرة أخرى بطريقة ذكّرت تيدي بالقط المنـــزلي بعد تناوله الطعام.

"مجدداً، آلياتك الدفاعية...".

"أوه، ها قد عدنا".

"... مذهلة. لكن المسألة الحالية...".

قـــال تيدي: "المسألة الحالية هي أن المرفق واجه تسعة خروقات واضـــحة للأمن خلال الليلة الفائتة. ثمة امرأة مفقودة، ولا يوجد أحد يبحث عنها...".

"نحن نبحث".

"بقوة؟".

تـــراجع نايهرينغ إلى الخلف على كرسيه، وألقى نظرة إلى كاولي بطريقة جعلت تيدي يتساءل من هو المسؤول الحقيقي بينهما.

لاحظ كاولي نظرة تيدي، وأصبح القسم السفلي من فكه وردياً قلـــيلاً. "الدكتور نايهرينغ، إضافة إلى مسؤولياته الأخرى، يعمل بمثابة عامـــل ارتباط رئيس لمجموعة المراقبين. طلبت منه هنا، في هذا المرفق، الليلة، أن يلبـــي طلباتك السابقة".

"وما تلك الطلبات؟".

أعـــاد نايهرينغ غليونه إلى الحياة بواسطة عود ثقاب مشتعل. "لن نفصح عن ملفات الموظفين الخاصة بالفريق الطبـــي".

قال تيدي: "شيهان".

"أي واحد؟".

"تحاول عرقلتنا مبدئياً".

"لست معتاداً على هذا التعبير".

"فكّر في السفر أكثر".

"أيهـــا المارشـــال، تابـــع تحقيقك، وسنساعدك حين نستطيع، ولكن...".

"لا".

"عذراً؟". انحنى كاولي الآن إلى الأمام، وأصبحوا هم الأربعة محنيي الأكتاف وممددي الرؤوس.

"لا". كرر تيدي. "انتهى هذا التحقيق. سنعود إلى المدينة في أول مـــركب. ســـنملأ تقاريرنا ويتم تحويل المسألة، حسب افتراضي، إلى جماعة هوفر. لكننا انتهينا من هذه القضية".

بقـــي غليون نايهرينغ يتأرجح في يده. ارتشف كاولي القليل من مـــشروبه. صـــدحت موسيقى ماهلر. تكتكت ساعة في مكان ما في الغرفة. في الخارج، أصبح المطر قوياً.

وضع كاولي كأسه الفارغة على الطاولة الصغيرة قرب كرسيه.

"مثلما ترغب أيها المارشال".

كان المطر يهطل بغزارة، حين غادرا منـــزل كاولي، وانهمر المطر على السقف المائل وردهة الآجر، والسقف الأسود للسيارة التي كانت

في انـــتظارهما. لاحـــظ تيدي أن المطر ينهمر على شكل صفائح فضية مائلـــة في العتمة السوداء. لا تتعدى المسافة بضع خطوات، من مصطبة كـــاولي إلى الـــسيارة، لكنهما تبللا كثيراً بالمطر، ثم جاء ماكفرسون، وجلـــس في الأمام وراء المقود وتناثر الرذاذ على لوحة القيادة حين هزّ رأسه، وشغّل محرك السيارة.

"ليلة جميلة". ارتفع صوته فوق صوت مسّاحات الزجاج الأمامي والمطر المنهمر.

نظر تيدي إلى الخلف عبر النافذة الخلفية، واستطاع رؤية الأشكال الضبابية لكاولي ونايهرينغ على المصطبة وهما يراقبانهم.

"غير ملائم لرجل أو وحش". قال ماكفرسون، فيما سقط غصن صغير، وقع عن شجرته الأم، وارتطم بالزجاج الأمامي للسيارة.

قال تشاك: "كم مضى على عملك هنا، ماكفرسون؟".

"أربع سنوات".

"هل حصلت على إجازة من قبل؟".

"للأسف لا".

"ماذا عن خرق القانون؟ تعرف، يختفي أحدهم لساعة أو ساعتين".

هـــزّ ماكفرسون رأسه. "ولا حتى هذا. حسناً، عليك أن تكون مجنوناً لعيناً. إلى أين تستطيع الذهاب؟".

قال تيدي: "ماذا عن الدكتور شيهان؟ هل تعرفه؟".

"طبعاً".

"كم مضى على وجوده هنا؟".

"أظن أنه جاء قبلي بعام واحد".

"إذاً خمسة أعوام".

"صحيح".

"هل عمل مع سولاندو كثيراً؟".

"لـــيس حسب علمي، لأن الدكتور كاولي كان الطبيب النفسي الرئيس المسؤول عنها".

"هـــل يـــشيع أن يكون رئيس الموظفين هو المشرف الرئيس على حالة مريضة؟".

قال ماكفرسون: "حسناً...".

انتظـــروا، واســـتمر صـــوت المسّاحات على الزجاج، وانحنت الأشجار الداكنة نحوهم.

قـــال ماكفرسون: "حسب". وهو يلوّح إلى الحارس، فيما عبرت السيارة البوابة الرئيسة. "ينجز الدكتور كاولي الكثير من العمل الرئيس مع مرضى الجناح ج طبعاً. كما يهتم أيضاً بحالات عدد من الأشخاص في أجنحة أخرى".

"من يساعد سولاندو؟".

ركـــن ماكفرسون السيارة أمام مبنى نوم الرجال. "لا تمانعان إذا جئت لفتح الباب لكما، أليس كذلك؟ استمتعا بالنوم. أنا واثق من أن الدكتور كاولي سيجيب على كل أسئلتكما في الصباح".

قال تيدي فيما فتح بابه: "ماكفرسون".

نظر تيدي إلى الخلف فوق المقعد.

قال تيدي: "لست جيداً كثيراً في هذا".

"في ماذا؟".

وجه إليه تيدي ابتسامة حزينة، وخرج تحت المطر.

تـــشاركا غرفة مع تراي واشنطن وممرض آخر اسمه بيبـــي لوس. كان حجم الغرفة جيداً مع مجموعتين من الأسرّة المبيّتة في جدار وقاعة

جلـــوس صغيرة، حيث كان تراي وبيبـــي يلعبان الورق، حين دخلا. جفف تيدي وتشاك شعرهما بمناشف بيضاء من كدسة مناشف تركها أحـــدهم لهما على السرير العلوي، ثم سحبا كرسيين، وانضما إلى لعبة الورق.

لعـــب تراي وتيدي لعبة البوكر البنسي، وكانت السجائر بديلاً مقـــبولاً إذا نفد المال من أحدهم. تفوق تيدي عليهم هم الثلاثة بفضل بطاقة سباعية، وانتهى بخمسة دولارات وثماني عشرة سيجارة مع أوراق فلوش، فوضّب السجائر في جيبه، وأكمل اللعب بعدها بتحفظ.

لكن، تبين أن تشاك هو اللاعب الحقيقي، بحيث كان مرحاً جداً، وتـــستحيل قراءته، فجمع كومة من النقود والسجائر ومن ثم الأوراق المالية، وألقى نظرة إليها في نهاية اللعبة، كما لو أنه تفاجأ بحجم الكومة الكبيرة التي أصبحت أمامه.

قـــال تـــراي: "هـــل تملـــك عينين مزودتين بأشعة إكس أيها المارشال؟".

"أنا محظوظ حسبما أظن".

"اللعنة. يا له من محظوظ! لقد حقق لنفسه ربحاً كبيراً".

قال تشاك: "لم يكن يجدر بلعين ما أن يقحم نفسه".

"هوه!".

"لقـــد أقحمت نفسك، سيد واشنطن. في كل مرة تخسر". أشار إلى بيبـــي، "وهذا اللعين...".

انفجروا هم الثلاثة في الضحك.

"هو... هو... لا، انتظر دقيقة، انتظر. هو... هو يملك عينين غير طبيعيـــتين، يبدأ بالنظر إلى ورق الجميع قبل أن يرمي ورقه. لكن حين يخسر! يبقى هادئاً ويكبت نفسه".

قهقـــه تراي بأعلى ما يمكنه في الهواء ثم ضرب الطاولة. "ماذا عن المارشال دانيالز؟ كيف نجح في الهروب؟".

ابتسم تشاك ابتسامة عريضة. "هل سأطعن بشريكي؟ لا، لا، لا".

"أوووه!". أشار بيبـــي عبر الطاولة إليهما معاً.

"لا يمكن فعل ذلك".

قال تراي: "أفهم، أفهم. إنها مسألة الرجال البيض".

اســـودّ وجـــه تشاك، وحدّق إلى تراي إلى أن فرغت الغرفة من الهواء.

انـــتفخت تفاحة آدم في عنق تراي، وبدأ يرفع يده معتذراً، فقال تـــشاك: "طـــبعاً. وهـــل من سبب آخر؟". وأصبحت الابتسامة التي ارتسمت على وجهه كبيرة جداً.

"أيها اللعين!". ضرب تراي يده على أصابع تشاك.

قال بيبي: "أيها اللعين!".

قـــال تشاك: "أيها اللعين!". ثم انفجروا، هم الثلاثة، في ضحك متواصل، مثل الفتيات الصغيرات.

فكّر تيدي في المحاولة، وقرر أنه سيفشل، مثل رجل أبيض يحاول أن يـــبدو مطلعاً على التطورات. لكن تشاك، نجح تشاك في ذلك نوعاً ما.

ســـأل تـــيدي تـــشاك، فـــيما استلقيا في الظلمة "إذاً، ما الذي فـــضحني؟". عـــبر الغرفة، كان تراي وبيبـــي يتنافسان على الشخير، وأصبح المطر خفيفاً في نصف الساعة الأخيرة، كما لو أنه يلتقط أنفاسه وينتظر الدعم.

"في الورق؟". قال تشاك من السرير السفلي. "إنسَ الأمر".

"لا. أريد أن أعرف".

"كـــنت تظن أنك جيد كفاية حتى الآن، أليس كذلك؟ اعترف بالأمر".

"لا أظن أنني كنت *سيئًا*".

"لست سيئاً".

"لقد تغلبت عليّ".

"ربحت بضعة دولارات".

"كان والدك مقامراً، صحيح؟".

"كان والدي خسيساً".

"أوه، آسف".

"ليست هذه غلطتك. ووالدك؟".

"والدي؟".

"لا، عمك. طبعاً والدك".

حاول تيدي تصوّره في الظلام، واستطاع فقط رؤية يديه المليئتين بالندوب.

قال تيدي: "كان غريباً. بالنسبة إلى الجميع. حتى مع أمي. اللعنة! أشـــك في أنه كان يعرف من يكون. كان مفتوناً بمركبه. وحين خسر المركب، خسر نفسه".

لم يقل تشاك أي شيء، وبعد برهة، تصوّر تيدي أنه خلد إلى النوم. اســـتطاع فجأة رؤية والده، كله، جالساً في ذلك الكرسي، في تلك الأيام التي لم يكن يعمل فيها، الرجل الذي ابتلعته الجدران والأسقف والغرف.

"هاي، سيدي".

"لا تزال مستيقظاً؟".

"هل سنغادر فعلاً؟".

"نعم. هل تفاجأت؟".

"لا ألومك. أنا فقط لا...".

"ماذا؟".

"لم أتخلَ عن أي شيء من قبل".

استلقى تيدي بهدوء لبعض الوقت. وأخيراً، قال: "لم نسمع الحقيقة ولو مرة واحدة. لا يمكننا الوصول إليها ولا يمكننا الاستناد إلى أي شيء، إذ ما من شيء سيجعل هؤلاء الأشخاص يتكلمون".

قال تشاك: "أعرف، أعرف. أوافقك الرأي. كلامك منطقي".

"لكن؟".

"لكنني لم أتخل قبلاً عن أي شيء. هذا كل ما في الأمر".

"راشايل سولاندو لم تهرب حافية القدمين، من غرفة مقفلة، من دون مساعدة. الكثير من المساعدة. ربما ساعدها كل من في المؤسسة. حسب خبرتي؟ أفضل سيناريو؛ نجح التهديد وكاولي يجلس الآن في قصره، يعيد النظر في كل موقفه. ربما في الصباح...".

"إذاً، كنت تمزح".

"لم أقل ذلك".

"لعبت الورق معك للتو، سيدي".

استلقيا بصمت، وأصغى تيدي إلى المحيط لبعض الوقت.

قال تشاك: "أغلق شفتيك". وأصبح صوته خافتاً مع النوم.

"ماذا؟".

"حين تمسك بيد جيدة. تفعل ذلك لثانية فقط، لكنك تفعلها دوماً".

"أوه".

"ليلة سعيدة سيدي".

"ليلة سعيدة".

6

جاءت نحوه في الممر.

دولوريس، مع الكثير من الغضب في عينيها، فيما بينغ كروسبي يغني أغنية **الجهة الشرقية من السماء** من مكان ما في الشقة، ربما من المطبخ. تقول: "عظيم، تيدي. عظيم". إنها تحمل قنينة شراب اسكتلندي فارغة في يدها. أدرك تيدي أنها اكتشفت أحد مخابئه.

"هل ستتوقف يوماً عن الإسراف في الشرب؟ هل تستطيع البقاء من دون شرب بعد الآن؟ أجبني".

لكن تيدي لا يستطيع الإجابة، لا يمكنه التكلم. ليس واثقاً حتى أين هو جسمه. استطاع رؤيتها، بقيت تتقدم في الرواق نحوه، لكنه لم يستطع رؤية جسده، ولا حتى الإحساس به. ثمة مرآة، في الطرف الآخر من الممر وراء دولوريس، ولا يظهر انعكاسه فيها.

تستدير يساراً، إلى غرفة الجلوس، ويبدو ظهرها متفحماً، محترقاً قليلاً. لم تعد القنينة في يدها، فيما تطايرت سحب صغيرة من الدخان من شعرها.

تتوقف أمام نافذة. "انظر. إنها رائعة هكذا. طافية".

يقف تيدي قربها أمام النافذة، تبدل المشهد. لم تعد محترقة، وإنما مبللة كثيراً، واستطاع رؤية نفسه، رأى يده على كتفها، وتحركت أصابعه حول عظم ترقوتها، فبرمت رأسها، وقبلت أصابعه بسرعة.

قال، وهو غير واثق حتى من سؤاله: "ماذا فعلت؟".

"انظر إليها هناك".

قـــال لها: "صغيرتي، لماذا أنت مبللة هكذا؟". لكنه لم يتفاجأ حين لم تجبه.

المنظـــر خـــارج النافذة لم يكن ما توقعه. ليس المنظر الذي يمكن رؤيـــته من شقتهما، في باتونوود، وإنما المنظر من مكان آخر أقاما فيه ذات مـــرة، حجرة صغيرة. ثمة بركة صغيرة هناك، مع جذوع صغيرة طافية فوقها، ولاحظ تيدي كم هي ناعمة، تتحرك بطريقة غير منظورة تقـــريباً، فيما الماء يرتعش، وأصبح أبيض اللون، في بعض المساحات، تحت ضوء القمر.

قالـــت: "إنها لوحة جميلة. بيضاء جداً. يمكنك شمّ رائحة الطلاء الحديث".

"هذا جميل".

قالت دولوريس: "إذاً".

"قتلت الكثير من الأشخاص خلال الحرب".

"لهذا السبب تشرب".

"ربما".

"إنها هنا".

"راشـــايل؟". أومـــأت دولوريس برأسها. "لم تغادر أبداً. كدت تراها. كدت تفعل ذلك".

"قانون الأربعة".

"إنه رمز".

"طبعاً، ولكن لماذا؟".

"إنها هنا. لا يمكنك المغادرة".

لفّ ذراعيه حولها من الخلف، ودفن وجهه في جانب عنقها. "لن أغادر. أحبك. أحبك كثيراً".

ارتشح سائل من بطنها وتدفق السائل عبر يديه.

"أنا عظام في علبة، تيدي".

"لا".

"بلى. عليك الاستيقاظ".

"أنت هنا".

"لا. عليك مواجهة ذلك. إنها هنا. أنت هنا. إنه هنا أيضاً. قم بعدّ الأسرّة. إنه هنا".

"من؟".

"لايديز".

زحف الاسم عبر لحمه وتغلغل في عظامه.

"لا".

"بلى". أرجعت رأسها إلى الخلف، ونظرت إليه. "لقد عرفت".

"لا".

"بلى عرفت. لا يمكنك المغادرة".

"أنت متوترة طوال الوقت". دعك كتفيها، فأصدرت أنيناً خفيفاً جعله يجفل.

قالت: "لم أعد متوترة. عدت إلى المنزل".

قال لها: "ليس هذا هو المنزل".

"طبعاً. هذا منزلي. إنها هنا، إنه هنا".

"لايديز".

قالت: "لايديز". ومن ثم "عليّ الذهاب".

"لا". إنه يبكي. "لا. ابقي".

"أوه، يـــا الله!". انحـــنت صوبه إلى الخلف. "دعني أذهب. دعني أذهب".

"أرجوك لا تذهبـــي". انهمرت دموعه على جسمها، واختلطت ببطـــنها المرتشح. "أريد الإمساك بك لوقت أطول قليلاً. لبعض الوقت أيضاً. أرجوك".

أصـــدرت صـــوت فقاعة صغيرة؛ نصف تنهيدة، نصف صراخ، ممزق جداً وجميل في ألمه، وقبّلت براجمه.

"حسناً. تشبث. بأكبر قوة لديك".

أمسك بزوجته. أمسكها وأمسكها.

عـــند الخامسة صباحاً، فيما كان المطر ينهمر على العالم، نـــزل تيدي عن السرير العلوي، وأخرج دفتره من معطفه. جلس على الطاولة حـــيث لعبوا البوكر، وفتح الدفتر على الصفحة التي نقل عليها قانون الأربعة لراشايل سولاندو.

استمر تراي وبيبـــي في الشخير بصوت عالٍ بقدر صوت المطر. نـــام تشاك بهدوء، على بطنه، واضعاً قبضة يده قرب أذنه، كما لو أنها تهمس له بالأسرار.

نظـــر تيدي إلى الصفحة. إنها بسيطة حين تعرف كيف تقرأها. رمز ولد، فعلاً. لكنه لا يزال رمزاً، وبقي تيدي حتى الساعة السادسة، حتى استطاع فكه.

نظـــر إلى الأعلى، ورأى تشاك يراقبه من السرير السفلي. وضع تشاك ذقنه على قبضة يده.

"هل سنغادر سيدي؟".

هزّ تيدي رأسه.

"لا يستطيع أحد المغادرة، في هذا الهراء". قال تراي، وهو ينـــزل عـــن ســـريره، ويفتح ستارة النافذة ليظهر مشهد غارق بالماء اللؤلؤي اللون. "لا أسئلة".

فجـــأة، أصـــبح من الصعب التشبث بالحلم، رائحة تبخرها مع ارتفـــاع الستارة، سعال جاف من بيبـــي، تمدد تراي مع تثاؤب عالٍ وطويل.

تساءل تيدي، ليس للمرة الأولى، وليس لفترة طويلة، إن كان هذا هو اليوم الذي سيكون فيه الاشتياق إليها صعباً جداً عليه. لو استطاع العودة بالسنوات إلى الوراء، إلى ذلك الصباح الذي حصل فيه الحريق، واستبدال جسمها بجسمه، لفعل. هذا أمر حتمي. لطالما كان هذا أمراً حتمياً. لكن مع مرور السنوات، يشتاق إليها أكثر فأكثر، وليس أقل، وأصبحت حاجته إليها مثل جرح لن يندمل، ولن يتوقف عن النـــزف.

أمسكت بها، أراد القول لتشاك وتراي وبيبـــي. أمسكت بها فيما كـــان بيـــنغ كروســـبـــي يغني من راديو المطبخ، واستطعت أن أشمّ رائحـــتها، والـــشقة في باتونوود والبحيرة، حيث أقمنا ذلك الصيف، وكانت شفتاها على براجمي.

أمسكت بها. لا يستطيع هذا العالم أن يمنحني ذلك. يستطيع هذا العـــالم أن يمنحني فقط تذكيراً بما لا أملكه، ولا أستطيع أبداً الحصول عليه، و لم أحصل عليه لوقت كاف.

كـــان يفترض بنا أن نتقدم في العمر معاً، دولوريس، وأن ننجب أولاداً، وأن نقـــوم بنـــــزهات تحـــت الأشجار القديمة. أردت رؤية التجاعيد وهي تحفر نفسها في لحمك، وأعرف متى ظهرت كل واحدة منها. أردت الموت معاً.

ليس هذا. ليس هذا.

أمـــسكت بهـــا، أراد القول. لو كنت أعرف بالتأكيد أن كل ما أحتاج إليه للإمساك بها مجدداً هو الموت، لرفعت مسدسي الآن وصوبته نحو رأسي.

كان تشاك يحدق إليه، منتظراً.

قال تيدي: "فككت رمز راشايل".

قال تشاك: "أوه، هل هذا كل شيء؟".

اليوم الثاني

لايديز

7

التقـــى بهمـــا كاولي في ردهة الجناح ب. كانت ملابسه ووجهه مبللين بالماء، وبدا مثل رجل أمضى الليل على مقعد في محطة الباصات.

قال تشاك: "الحيلة، دكتور، هي أن تنام حين تستلقي".

مسح كاولي وجهه بمنشفة. "أوه، هل هذه هي الحيلة، مارشال؟ عـــرفت أنـــني نسيت شيئاً ما. النوم، مثلما تقول. صحيح". صعدوا الدرج المصفرّ، وأومأوا إلى الحارس الجالس عند أول منبسط.

سأل تيدي: "وكيف كان الدكتور نايهرينغ هذا الصباح؟".

رفع كاولي حاجبيه ثم أخفضهما بطريقة متعبة. "أعتذر عن ذلك. جيريمـــياه عبقري، لكنه يستخدم بعض الصقل الاجتماعي. خطرت له هـــذه الفكـــرة لكـــتاب عن ثقافة المحارب الذكر في التاريخ. يتطرق باستمرار إلى هوسه في أحاديثه، ويحاول دمج الناس في نماذجه الموضوعة سلفاً. أنا آسف مجدداً".

هل تفعلون ذلك غالباً أيها الرجال؟".

"ماذا أيها المارشال؟".

"الجلوس والشرب، وأوه، إجراء تحقيق مع الناس؟".

"إنـــه الخطـــر الوظيفي، حسبما أظن. ما عدد الأطباء النفسيين الضروري لتركيب مصباح ضوئي؟".

"لا أعرف. كم؟".

"ثمانية".

"لماذا؟".

"أوه، توقف عن الإفراط في التحليل".

نظر تيدي إلى عيني تشاك وضحكا.

قال تشاك: "مرح منكمش. من كان ليحزر؟".

"هـــل تعـــرفان ما هو وضع مجال الصحة العقلية هذه الأيام، أيها الرجلان؟".

قال تيدي: "لا نملك أدنى فكرة".

"الحـــرب". قـــال كـــاولي وتـــثاءب في منديله المبلل. "حرب إيديولوجية، فلسفية، وحتى حرب نفسية".

قـــال تـــشاك: "أنتم أطباء. يفترض بكم التصرف بلطافة، وليس التصارع".

ابتسم كاولي ومرّوا أمام الحارس الجالس عند منبسط درج الطابق الـــثاني. من مكان ما في الأسفل، صرخت مريضة، وملأ الصدى كل الـــدرج في اتجاههم. كان صراخاً توسلياً، وأحس تيدي بمقدار اليأس الموجـــود فـــيه، واليقين أنه مهما كان مطلب هذا الصراخ، لن يتحقق أبداً.

قـــال كـــاولي: "المدرسة القديمة تعتقد بفعالية العلاج الصدمي، والجـــراحة الفصية الجزئية، والعلاجات في المنتجعات المعدنية للمرضى الطـــيعين. هذا ما نطلق عليه اسم الجراحة النفسية. أما المدرسة الجديدة فترتكـــز على علم العقاقير النفسية. يقولون إنه المستقبل. قد يكون هذا صحيحاً. لا أعرف".

توقف، وضع يداً على الدرابزين، في منتصف الطريق بين الطابق الـــثاني والطابق الثالث، وأحسّ تيدي بإرهاقه كأنه كائن حي مكسور موجود معهم في جسم رابع على الدرج.

سأل تيدي: "وكيف تعمل العقاقير النفسية؟".

قال كاولي: "تمت الموافقة حديثاً على عقار، اسمه الليثيوم، يرخي المرضى المصابين بالذهان، أو يروّضهم، مثلما يقول بعضهم. تصبح الأغلال شيئاً من الماضي؛ السلاسل، الأصفاد، وحتى القضبان، مثلما يقول المتفائلون. لا شك في أن المدرسة القديمة تعتقد أنه ما من شيء يستطيع الحلول مكان الجراحة النفسية، لكن المدرسة الجديدة أقوى، حسبما أظن، وستحقق الكثير من المال".

"المال... من أين؟!".

"من شركات الأدوية طبعاً. اشتريا الأسهم الآن، أيها الرجلان، وستتمكنان من التقاعد في جزيرتكما. مدارس جديدة، مدارس قديمة. يا الله، أُصاب بالذهول أحياناً".

سأل تيدي برفق: "ومن أي مدرسة أنت؟".

"صدق أو لا تصدق، أيها المارشال، أنا أعتقد بالعلاج الكلامي، أي المهارات الأساسية بين الأشخاص. أملك الفكرة التي مؤداها إذا عاملتَ مريضاً باحترام وأصغيت إلى ما يحاول قوله لك، فلا بد أن تصل إليه".

صراخ آخر. المرأة نفسها. تيدي واثق تماماً. انزلق الصراخ بينهم وبدا أنه لفت انتباه كاولي.

قال تيدي: "لكن هؤلاء المرضى؟".

ابتسم كاولي. "حسناً، نعم، يحتاج العديد من هؤلاء المرضى إلى أدوية ويحتاج بعضهم إلى التقييد بالأغلال. لا جدال. لكنه منحدر زلق. فحين تدخل السم إلى البئر، كيف ستتمكن من إخراجه من الماء؟".

قال تيدي: "لن تنجح".

أومأ برأسه. "هذا صحيح. وما يفترض أن يكون الخيار الأخير، يصبح المعيار القياسي. أعرف أنني أخلط الاستعارات. النوم". قال لتشاك. "صحيح. سأجرب ذلك المرة القادمة".

قال تشاك: "سمعت أنه يفعل العجائب". وتوجهوا نحو الطابق الأخير.

في غرفة راشايل، جلس كاولي على حافة سريرها، واتكأ تشاك على الباب.

قال تشاك: "هاي، ما عدد السورياليين الضروري لتركيب مصباح ضوئي؟".

نظر كاولي إليه. "لا أعرف. كم؟".

قال تشاك "سمكة". وضحك ضحكة قوية.

قال كاولي: "ستكبر يوماً ما أيها المارشال. أليس كذلك؟".

"أشك في ذلك".

أمسك تيدي بالورقة أمام صدره، ونقر عليها للفت انتباههما. "انظرا إليها مرة جديدة".

قانون الأربعة

أنا 47

هم 80

+ أنت 3

نحن 4

لكن

من هو 67؟

بعد دقيقة، قال كاولي: "أنا متعب جداً أيها المارشال. لا أفهم أي شيء في الوقت الحاضر. عذراً".

نظر تيدي إلى تشاك. هزّ تشاك رأسه.

قال تيدي: "إن إشارة + هي التي لفتت انتباهي وجعلتني أدقق في الورقة مجدداً. انظرا إلى الخط الموضوع تحت "هم 80". يفترض بنا جمع السطرين. على ماذا نحصل؟".

"على مئة وسبعة وعشرين".

قال تيدي: "واحد، اثنان وسبعة. صحيح. والآن، أضيفا ثلاثة. وإنما على نحو منفصل. تريدنا إبقاء الأرقام منفصلة. هكذا، يصبح لدينا: واحد مضافاً إلى اثنين نضيفهما إلى سبعة ثم إلى ثلاثة. على ماذا نحصل؟".

"ثلاثة عشر". استقام كاولي على السرير قليلاً.

أومأ تيدي برأسه. "هل يملك الرقم ثلاثة عشر أي أهمية خاصة بالنسبة إلى راشايل سولاندو؟! هل ولدت في الثالث عشر؟ أو تزوجت؟ أو قتلت أولادها في الثالث عشر؟".

قال كاولي: "عليّ التحقق. لكن الرقم ثلاثة عشر هو رقم مهم بالنسبة إلى المصابين بانفصام الشخصية".

"لماذا؟".

هزّ كتفه. "تماماً مثلما هو بالنسبة إلى العديد من الأشخاص. إنه جالب للحظ السيئ. يعيش معظم المصابين بانفصام الشخصية في حالة خوف. إنه عنصر ربط شائع في المرض. لذا، نجد معظم المصابين بانفصام الشخصية يعتقدون بالخرافات. ويؤدي الرقم ثلاثة عشر دوراً في ذلك".

قال تيدي: "هذا منطقي إذاً. انظرا إلى الرقم التالي. أربعة. اجمعا واحداً مع ثلاثة فتحصلا على أربعة. لكن، واحد وثلاثة لوحدهما؟".

"ثلاثـــة عـــشر". ابـــتعد تشاك عن الجدار، ووجه رأسه إلى الورقة.

قال كاولي: "والرقم الأخير؟ سبعة وستون. ستة مضافة إلى سبعة يساويان ثلاثة عشر".

أومـــأ تـــيدي برأسه. ليس هذا قانون الأربعة. إنه قانون الثلاثة عشر. هناك ثلاثة عشر حرفاً في اسم راشايل سولاندو".

شـــاهد تـــيدي كـــلاً مـــن كاولي وتشاك يجمعان الأحرف في رأسيهما. قال كاولي: "تابع".

"حين نقبل بذلك، تكون راشايل قد تركت لنا مجموعة كاملة من الفـــتات. الرمـــز يتبع المبدأ الأولي لمطابقة الأرقام مع الأحرف. واحد يساوي أ. اثنان يساوي ب. هل توافقاني الرأي؟".

أومأ كاولي برأسه، ثم لحق به تشاك بعد ثوانٍ قليلة.

"الحرف الأول من اسمها في اللاتينية (Rachel) هو R. الحرف R في التسلسل الأبجدي اللاتيني يأتي في المرتبة الثماني عشرة. A في المرتبة الأولى. C في المرتبة الثالثة. H في المرتبة الثامنة. E في المرتبة الخامسة. L في المـــرتبة الثانـــية عـــشرة. اجمعـــا الأرقام أيها الرجلان، وعلى ماذا تحصلان؟".

قال كاولي بهدوء "يا الله".

"على سبعة وأربعين"، قال تشاك، وقد اتسعت عيناه وهما تحدقان إلى الورقة المعلقة فوق صدر تيدي.

قـــال كاولي: "هذا هو *أنا*. اسمها الأول. فهمت ذلك الآن. لكن ماذا عن هم؟".

"اسم العائلة". قال تيدي. "إنه هم".

"من؟".

"عائلة زوجها وأجداده. ليس اسمها هي، بالولادة. أو أنه يشير إلى أولادها. وفي كلتا الحالتين، لا يهم الأمر كثيراً. المهم هو اسم عائلتها. سولاندو (Solando). اجمعا المراتب الرقمية للأحرف، وصدقاني أنكما ستتوصلان إلى ثمانين".

نهض كاولي عن السرير، ووقف وتشاك أمام تيدي للنظر إلى الورقة المليئة بالرموز المعلقة على صدره.

نظر تشاك إلى الأعلى، بعد برهة، مباشرة إلى عيني تيدي. "ماذا أنت؟ آينشتاين لعين؟".

قال كاولي فيما لا تزال عيناه على الورقة: "هل فككت رموزاً من قبل أيها المارشال، في الحرب؟".

"لا".

قال تشاك: "إذاً كيف توصلت إلى...".

تعبت ذراعا تيدي من حمل الورقة، فوضعها على السرير.

هزّ بكتفه "لا أعرف. ألعب كثيراً بالكلمات المتقاطعة. أحب الأحجيات".

قال كاولي: "لكنك كنت في مخابرات الجيش، صحيح؟".

هزّ تيدي رأسه. "الجيش النظامي. لكن أنت أيها الطبيب كنت في مكتب الخدمات الاستراتيجية".

أجاب كاولي: "لا. قدمت فقط بعض المشورات".

"أي نوع من المشورات؟".

وجه إليه كاولي تلك الابتسامة الخفيفة، التي اختفت ما إن ظهرت. "النوع الذي لا يمكن الحديث عنه أبداً".

قال تيدي: "لكن هذا الرمز بسيط جداً".

قال تشاك: "بسيط؟. أنت شرحته، وما زال رأسي يبرم".

"لكن، بالنسبة إليك دكتور؟".

هــزّ كــاولي بكتفه. "ماذا أسميك أيها المارشال؟ لم أكن مفككاً للرموز".

أحــنى كــاولي رأســه، وربّت على ذقنه، فيما أعاد انتباهه إلى الــرموز. نظــر تــشاك إلى عيني تيدي، وقد امتلأت عيناه بعلامات الاستفهام.

قــال كــاولي: "لقد فهمنا إذاً - أو بالأحرى فهمت أنت أيها المارشال - رمزي السبعة والأربعين، والثمانين. تأكدنا أن التلميحات هي تبدلات للرقم ثلاثة عشر. ماذا عن الرقم ثلاثة؟".

قال تيدي: "مرة جديدة، يشير ذلك إلينا، وتكون في هذه الحالة مستبصرة...".

"هذا مستبعد".

"أو يشير إلى أولادها".

"أوافق على ذلك".

"أضف راشايل إلى الثلاثة...".

قال كاولي: "وتحصل على السطر التالي. نحن أربعة".

"من هو إذاً، السبعة والستون؟".

نظر كاولي إليه. "لست منمقاً؟".

هزّ تيدي رأسه.

مــرر كاولي إصبعه فوق الجهة اليمنى من الورقة. "لا يساوي أي جمع لهذه الأرقام سبعة وستين؟".

"لا".

مــرر كــاولي راحــة يده فوق رأسه واستقام. "ولا تملك أي نظريات؟".

قـــال تـــيدي: "إنه الرمز الذي لم أستطع تفكيكه. ومهما كان الـــشيء الذي يشير إليه، فإنه شيء غير مألوف بالنسبة إليه، ما يجعلني أظن أنه شيء على الجزيرة. وأنت أيها الطبيب؟".

"أنا، ماذا؟".

"هل من نظريات؟".

"أبداً. وما كنت لأحزر السطر الأول حتى".

"نعم، لقد قلت ذلك. أنت متعب".

"مـــتعب جـــداً أيها المارشال". قال وهو يثبت نظره على وجه تيدي، ثم نظر إلى النافذة وراقب المطر وهو يهطل، على شكل رقاقات سميكة جداً، بحيث ملأت الأرض في الجهة الأخرى. "قلت الليلة الماضية إنك ستغادر".

قال تيدي: "في أول مركب".

"لن يكون هذا اليوم. أنا واثق تماماً من ذلك".

قال تيدي: "إذاً، في الغد. أو في اليوم الذي بعده، هل تظن أنها لا تزال في الخارج؟ هنا؟".

قال كاولي: "لا. لا أظن".

"أين إذاً؟".

تنهد. "لا أعرف أيها المارشال. ليس هذا من اختصاصي".

رفـــع تـــيدي الورقة عن السرير. "إنه معيار نموذجي. دليل لفك رموز المستقبل. أراهن براتب شهر كامل على ذلك".

"وإذا كان هذا صحيحاً؟".

"لـــن تحاول إذاً، الفرار، دكتور. لقد أحضرتنا إلى هنا. أظن، أنه سيكون هناك المزيد من هذه".

قال كاولي: "ليس في هذه الغرفة".

"لا. لكن ربما في هذا المبنى. أو ربما في الخارج على الجزيرة".

امــتص كاولي الهواء الموجود في الغرفة عبر منخريه، واضعاً يده علـى عتـبة النافذة، وأرخى بثقل جسمه على قدميه، ما جعل تيدي يتساءل عما أبقاه مستيقظاً الليلة الفائتة.

قال كاولي: "أحضرتكما إلى هنا؟ لماذا؟".

"أنت قل لي".

أغمض كاولي عينيه وبقي صامتاً لفترة طويلة جداً، بحيث تساءل تيدي إذا خلد إلى النوم.

فتح عينيه مجدداً، ونظر إليهما. "كان يومي حافلاً. اجتماعات مع الموظفين، اجتماعات للميزانية مع المراقبين، اجتماعات لصيانة طارئة في حال ضربتنا فعلاً هذه العاصفة. ستسعدان لمعرفة أنني رتبت لقاء لكما مـع كـل المرضى الذين كانوا في الجلسة العلاجية مع سولاندو، ليلة اخـتفائها. يفترض أن تبدأ هذه المقابلات بعد خمس عشرة دقيقة. أيها الـرجلان، أُقدّر وجودكما هنا. فعلاً. أحاول المساعدة قدر الإمكان، سواء أظهر ذلك أم لا".

"أعطني إذاً، ملف الدكتور شيهان".

"لا أسـتطيع فعل ذلك. على الإطلاق". أرجع رأسه إلى الخلف على الجدار. "أيها المارشال، طلبت من عامل الهاتف محاولة طلب رقم هاتفـه بـشكل متواصل. لكننا لم ننجح في ذلك لغاية الآن. كل ما نعـرفه، هو أن كل الساحل الشرقي مغمور بالماء. صبراً أيها الرجلان. هذا كل ما أطلبه. سنجد راشايل، أو سنعرف ماذا حصل لها". نظر إلى ساعته. "لقد تأخرت. هل من شيء آخر؟".

وقفا تحت مظلة خارج المستشفى، وهطل المطر أمامهما غزيراً.

قال تشاك: "هل تظن أنه يعرف ماذا يعنيه الرقم سبعة وستون؟".

"نعم".

"هل تظن أنه فك الرموز قبلك".

"أظـــن أنه كان في مكتب الخدمات الاستراتيجية. وأظن أنه نال هدية أو هديتين في ذلك القسم".

مـــسح تشاك وجهه، ومدّ أصابعه نحو المصطبة. "ما عدد المرضى الموجودين هنا؟".

قال تيدي: "العدد صغير".

"نعم".

"ربما عشرون امرأة وثلاثون رجلاً؟".

"ليس كثيراً".

"لا".

"ليس سبعة وستين على كل حال".

استدار تيدي ونظر إليه. "ولكن...".

قال تشاك: "نعم. ولكن".

نظرا إلى صف الأشجار وما بعده، إلى أعلى الحصن الناتئ خلف خيوط المطر، وقد أصبح ضبابياً وغير واضح، مثل رسم فحمي في غرفة دخانية.

تذكر تيدي ما قالته دولوريس في الحلم؛ عدّ الأسرّة.

"ما عدد الموجودين هناك، برأيك؟".

قال تشاك: "لا أعرف. علينا سؤال الطبيب المفيد".

"أوه، نعم. واضح أنه مفيد، أليس كذلك؟".

"هاي سيدي".

"نعم".

"هل صادفت في حياتك هذا القدر من المساحة الفدرالية المهدورة؟".

"وكيف ذلك؟".

"خمسون مريضاً في هذين الجناحين؟ لكم يتسع هذان المبنيان برأيك؟ لمئتي شخص إضافي؟".

"على الأقل".

"ونسبة الموظفين مع المرضى. إنها توازي اثنين لواحد لصالح الموظفين. لم ترَ شيئاً كهذا من قبل!".

"عليّ القول، لا".

نظرا إلى الأرض التي تغلي تحت الماء.

قال تشاك: "بالله عليك، ما هذا المكان؟".

أجريا المقابلات في الكافيتيريا، وجلس تشاك وتيدي أمام طاولة في الجهة الخلفية. جلس حارسان قربهما، وكان تراي واشنطن مسؤولاً عن إحضار المرضى لهما ومن ثم إرجاعهما بعد الانتهاء.

الرجل الأول كان مريضاً، يكشف عن الكثير من الانقباضات اللاإرادية في الوجه والعينين. جلس متقوقعاً على نفسه، مثل حدوة حصان، وراح يحك ذراعيه، ورفض النظر إليهما.

نظر تيدي إلى الصفحة الأولى من الملف الذي أعطاه إيّاه كاولي؛ وكان مجرد خربشات من ذاكرة كاولي، فلم يعطه الملفات الحقيقية للمرضى. كان اسم هذا الرجل في المرتبة الأولى، واسمه كين غايج، وهو موجود هنا لأنه اعتدى على شخص غريب في متجر للبقالة، وضرب الضحية على رأسه بعلبة بازيلاء، وهو يقول طوال الوقت بصوت مخنوق: "توقف عن قراءة بريدي".

قال تشاك: "إذاً، كين. كيف حالك؟".

"أشعر بالبرد. أشعر بالبرد في قدميّ".

"آسف لسماع ذلك".

"المشي مؤلم، نعم". حكّ كين محيط ندبة على ذراعه، بطريقة دقيقة أولاً، كما لو أنه يحفر خندقاً لها.

"هل كنت في جلسة العلاج في الليلة ما قبل الفائتة؟".

"أشعر بالبرد في قدميّ، وأتألم عند المشي".

سأله تيدي: "هل تريد بعض الجوارب؟". انتبه إلى الحارسين اللذين كانا ينظران إليهما ويضحكان ضحكة مكبوتة.

قال همساً: "نعم، أريد بعض الجوارب. أريد بعض الجوارب. أريد بعض الجوارب". وأخفض رأسه، وتمايل قليلاً.

"حسناً سنحضر لك جوارب في غضون دقيقة. نريد فقط أن نعرف إذا كنت...".

"الجو بارد جداً. في قدميّ؟ أشعر بالبرد وأتألم عند المشي".

نظر تيدي إلى تشاك. ابتسم تشاك للحارسين عند سماع ضحكاتهما التي وصلت إلى الطاولة.

قال تشاك: "كين. كين، هل يمكنك النظر إليّ؟".

أبقى كين رأسه إلى الأسفل، وتمايل قليلاً أكثر. جرح ظفره الندبة، التي في ذراعه، وسال خط صغير من الدم، بين الشعيرات، في ذراعه.

"كين؟".

"لا أستطيع المشي. ليس هكذا، ليس هكذا. الجو بارد جداً جداً جداً".

"هيا، كين. أنظر إلي".

وضع كين معصميه على الطاولة.

وقف الحارسان، وقال كين: "يفترض ألا يؤلم ذلك. لا يفترض. لكنهم يريدون هذا. يملأون الهواء بالبرد. لقد تغلغل فيّ".

جـــاء الحارسان إلى طاولتهما. قال الحارس الأبيض: "هل انتهيتما أيها الرجلان، أم أنكما تريدان سماع المزيد عن قدميه؟".

"أشعر بالبرد في قدميّ".

رفع الحارس الأسود حاجبه. "لا بأس، كيني. سنأخذك إلى غرفة العلاج المائي، ونشعرك بالدفء على الفور".

قـــال الحارس الأبيض: "مضى على وجودي هنا خمسة أعوام. لم يتغير الموضوع".

سأل تيدي: "أبداً؟".

"أتألم عند المشي".

أجاب الحارس: "أبداً".

"أتألم عند المشي، لأنهم وضعوا البرد في قدميّ".

المريض التالي، بيتر برين، يبلغ من العمر ستة وعشرين عاماً، أشقر وممتلئ. محطم للأصابع وقاضم للأظافر.

"لماذا أنت هنا، بيتر؟".

نظـــر بيتر، عبر الطاولة، إلى تيدي وتشاك بعينين دامعتين، دوماً، على ما يبدو. "أنا خائف طوال الوقت".

"ممَّ".

"من أشياء".

"حسناً".

رفع بيتر كاحله الأيسر إلى ركبته اليمنى، وأمسك بكاحله، وانحنى إلى الأمـــام. "يـــبدو هذا غبياً، لكنني أخاف من الساعات. التكتكة. يدخل الصوت في رأسك. الجرذان ترعبني".

قال تشاك: "وأنا أيضاً".

"حقاً؟". أشرق وجه بيتر.

"في الواقـــع، نعم. تلك الكائنات اللعينة. أشعر بالقشعريرة بمجرد النظر إلى واحدة منها".

"لا تخرج إذاً، أبعد من الجدار في الليل". قال بيتر. "إنها في كل مكان".

"من الجيد معرفة ذلك. شكراً".

قـــال بيتـــر: "الأقلام. أقلام الرصاص، هل تعرفها؟ الخربشة على الورق. أنا خائف منك".

"مني؟".

"لا"، قال بيتر وهو يشير بذقنه إلى تيدي: "منه".

سأل تيدي: "لماذا؟".

هـــزّ كتفه. "أنت ضخم. مع قصة قصيرة ومنظر حقير. يمكنك تدبر أمرك. براجمك مليئة بالندوب. كان والدي هكذا. ولكن من دون الـــندوب. كانـــت يداه ناعمتين جداً. لكنه كان حقير المنظر. وأيضاً إخوتي. كانوا يضربونني".

قال تيدي: "لن أضربك".

"لكـــنك تـــستطيع ذلك. ألا ترى؟ تملك القوة. وأنا لا أملكها. يجعلني ذلك ضعيفاً. الضعف يخيفني أيضاً".

"ومتى تخاف؟".

أمسك بيتر بكاحله، وتأرجح جيئة وذهاباً، وانسدل شعر مقدمة رأســه فوق جبينه. "كانت لطيفة. لم أقصد أي شيء. لكنها أخافتني

بثدييها الكبيرين، وطريقة تحركها بذلك الثوب الأبيض، والمجيء إلى منزلنا كل يوم. كانت تنظر إليّ مثل... تعرف الابتسامة التي توجهها إلى ولد؟ كانت تعطيني تلك الابتسامة. وكانت في عمري. أوه، حسناً، ربما أكبر مني ببضع سنوات، ولكنها في العقد الثاني من العمر. وكانت تملك معرفة جنسية كبيرة. بدا ذلك جلياً في عينيها".

أمال تيدي الملف بحيث يستطيع تشاك رؤية ملاحظات كاولي:

مريض اعتدى على ممرضة والده بكوب زجاجي مكسور. أصيبت الضحية بشكل خطير وتعرضت لندوب دائمة. أنكر المريض مسؤوليته عن الحادثة.

قال بيتر: "هذا فقط لأنها أخافتني. أرادتني لكي تضحك عليه... أقصد أنك تعرف هذا، يمكنك رؤية الأمر في وجهي، أنا لا أؤذي نملة. ليس هذا من طبعي. لكن حين أخاف؛ يا الله!".

سأله تشاك بصوت هادئ: "ماذا عنه؟".

"هل فكّرت في الأمر؟".

"عقلك؟".

قال: "العقل. عقلي، عقلك، عقل أي شخص كان. إنه، مبدئياً، محرك. هذا ما هو عليه. محرك دقيق ومعقد جداً. وفيه كل تلك القطع، وكل تلك العلب، والمسامير، والمفصّلات. ولا نعرف حتى، ماذا نفعل بنصفها. لكن، إذا انزلق شيء واحد فقط، واحد فقط... هل فكّرت في ذلك؟".

"ليس أخيراً".

"علـيك ذلـك. إنه مثل السيارة. ليس مختلفاً. تنـزلق علبة، أو ينكـسر مـسمار، ويتعطل النظام بكامله. هل يمكنك العيش، وأنت تعرف ذلك؟". نقر على صدغه. "كل هذا عالق هنا، ولا يمكنك النفاذ إلـيه، ولا تـستطيع، فعـلاً، السيطرة عليه. لكنه يتحكم بك، أليس كـذلك؟ وإذا قـرر يوماً ما، أنه لا يحب العمل؟". انحنى إلى الأمام، ولاحظـا الأوتار الناتئة في عنقه. "حسناً، تقع حينها في ورطة كبيرة، أليس كذلك؟".

قال تشاك: "وجهة نظر مهمة".

تـراجع بيتر إلى الخلف على كرسيه، وبدا فجأة فاتر الهمة. "هذا أكثر ما يخيفني".

تيدي، الذي منحه صداع الشقيقة القليل من المعرفة بشأن فقدان الـسيطرة على العقل، يوافق على المفهوم الإجمالي لبيتر، لكنه أراد رفع ذلـك الحقـير من حنجرته، ورميه في أحد الأفران، في الجهة الخلفية للكافيتيريا، والسؤال عن تلك الممرضة المسكينة التي اعتدى عليها.

هل تذكر اسمها، بيتر؟ ممّ كانت تخاف برأيك؟ هاه؟ منك أنت. هـذه هي الحقيقة. كانت تحاول القيام بعمل شريف. جني رزقها. ربما لديها أولاد وزوج. كانوا يحاولون ربما ادخار بعض المال لإرسال أحد أولـئك الأولاد إلى الجامعة في يوم من الأيام، ومنحه حياة أفضل. إنه حلم صغير.

لكـن، لا، ثمـة حقير غني صغير قرر أنها لا تستطيع امتلاك هذا الحلم. عذراً، ولكن لا. لا حياة طبيعية لك، سيدتي. ليس بعد الآن.

نظـر تـيدي، عبر الطاولة، إلى بيتر برين، وأراد ضربه في وجهه بقـوة كبيرة بحيث لا يعثر الأطباء أبداً على كل العظام في أنفه. ضربه بقوة كبيرة جداً بحيث، لا يغادر الصوت أبداً رأسه.

إلا أنه أغلق الملف بدلاً من ذلك، وقال: "كنت في جلسة العلاج، في الليلة ما قبل الفائتة، مع راشايل سولاندو. صحيح؟".

"نعم، طبعاً، سيدي".

"هل رأيتها وهي تذهب إلى غرفتها؟".

"لا. غـــادر الــرجال أولاً. كانت لا تزال جالسة مع بريدجت كيرنـــز وليونورا غرانت والممرضة".

"تلك الممرضة؟".

أومـــأ بيتر برأسه. "صاحبة الشعر الأحمر. أستلطفها أحياناً. تبدو صادقة. لكن في أحيان أخرى، هل تعرف؟".

قال تيدي "لا". وأبقى صوته ناعماً، بقدر ما كان صوت تشاك. "لا أعرف".

"حسناً، لقد رأيتها. صحيح؟".

"طبعاً. ما اسمها مجدداً؟".

قـــال بيتر: "لا تحتاج إلى اسم. امرأة مثل هذه؟ لا اسم لها. فتاة قذرة. هذا هو اسمها".

قال تشاك: "ولكن، بيتر، ظننت أنك قلت إنك تستلطفها".

"متى قلت ذلك؟".

"من دقيقة واحدة".

"أوه! إنها قذارة. إنها حقيرة".

"دعني أسألك شيئاً آخر".

"حقيرة، حقيرة، حقيرة".

"بيتر؟".

نظر بيتر إلى تيدي.

"هل أستطيع سؤالك شيئاً ما؟".

"بالطبع".

"هل حدث أي شيء غير اعتيادي في الجلسة، تلك الليلة؟ هل قالت راشايل سولاندو أي شيء، أو فعلت أي شيء خارج عن المألوف؟".

"لم تتفوه بكلمة. إنها فأرة. جلست فقط هناك. قتلت أولادها، هل تعرف؟ ثلاثة منهم. هل تصدق ذلك؟ أي نوع من الأشخاص هؤلاء؟ إنّهم أشخاص مرضى ومقرفون في هذا العالم، سيدي، إذا كنت لا تمانع قولي ذلك".

قال تشاك: "يملك الناس مشاكل. بعضهم أكثر من الآخر. إنهم مرضى، مثلما قلت. يحتاجون إلى مساعدة".

قال بيتر: "يحتاجون إلى الغاز".

"عفواً؟!".

قال بيتر لتيدي: "غاز. غاز للمتخلفين عقلياً. غاز للقتلة. قتلت أولادها؟ غاز للعاهرة".

جلسوا صامتين، وكان بيتر يتوهج، كما لو أنه أنار العالم لهما. بعد برهة، نقر على الطاولة ووقف.

"سررت بلقائكما. سأعود".

استخدم تيدي قلم رصاص لتدوين ملاحظة على غلاف الملف، وتوقف بيتر ونظر إليه.

قال تيدي: "بيتر".

"نعم؟".

"أنا...".

"هل يمكنك التوقف عن ذلك؟".

كتب تيدي الأحرف الأولى من اسمه على الكرتونة بضربات طويلة وبطيئة. "كنت أتساءل إذا...".

"أرجوك، أرجوك، هل يمكنك...؟".

نظـــر تـــيدي إلى الأعلى، وهو لا يزال يضع قلم الرصاص فوق غلاف الملف. "ماذا؟".

"... التوقف عن ذلك؟".

"مـــاذا؟". نظر تيدي إليه، ومن ثم إلى الملف. رفع قلم الرصاص، ومن ثم رفع حاجبه.

"نعم، من فضلك. هذا".

وضع تيدي قلم الرصاص على الغلاف. "أفضل؟".

"شكراً لك".

"هل تعرف مريضاً، بيتر، اسمه آندرو لايديز؟".

"لا".

"لا؟ لا أحد هنا بهذا الاسم؟".

هـــزّ بيتـــر كتفه. "ليس في الجناح أ. قد يكون في الجناح ج. لا نتعاطى معهم. إنهم مجانين".

قال تيدي: "حسناً، شكراً لك بيتر". ورفع قلم الرصاص مجدداً، وعاد للخربشة.

بعد بيتر برين، أجريا مقابلة مع ليونورا غرانت. كانت ليونورا مقتنعة أنهـــا ماري بيكفورد، وتشاك هو دوغلاس فايربانكس، وتيدي هو تشارلي شابلين. اعتقدت أن الكافيتيريا هي مكتب في بولفار غروب الشمس، وقد اجـــتمعوا هنا لمناقشة عرض في نقابة الفنانين المحترفين. استمرت في ملاطفة متن يد تشاك، وسؤاله عمّن سيتولى تدوين ملاحظات الاجتماع.

في الـــنهاية، اضطر الحارسان إلى سحب يدها عن معصم تشاك، فيما بكت ليونورا: "وداعاً حبيبـــي. وداعاً".

في منتــصف الكافيــتيريا، أفلتت من الحارسين، وعادت إليهما، وأمسكت بيد تشاك.

قالت: "لا تنسَ إطعام الهرّة".

نظر تشاك إلى عينيها وقال: "حاضر".

بعــد ذلك، التقيا بآرثر تومي الذي أصرّ على أن ينادياه جو. نام جو، خلال جلسة العلاج، تلك الليلة. تبين أن جو مصاب بمرض النوم العميق. نام مرتين معهما، في المرة الثانية طوال النهار، نوعاً ما.

كان تيدي يدرس المكان في رأسه. جعله ذلك يشعر بالحكاك في رأســه، وفيما شعر بالتعاطف مع كل المرضى، باستثناء برين، لم يكف عن التساؤل كيف يستطيع الإنسان تحمل العمل هنا.

جاء تراي مع امرأة صغيرة لها شعر أشقر ووجه على شكل قلادة. نبــضت عيناها بالوضوح. ليس وضوح المجانين، وإنما الوضوح اليومي لامــرأة ذكية في عالم أقل من ذكي. ابتسمت ولوّحت إلى كل منهما قبل أن تجلس.

تحقق تيدي من ملاحظات كاولي، بريدجت كيرنــز.

قالت، بعدما جلسوا هناك لبضع دقائق: "لن أخرج أبداً من هنا".

تــدخن ســجائرها حتى النصف فقط، قبل أن تطفئها، وكشفت عن صوت ناعم وواثق، علماً أنها قتلت زوجها بفأس، قبل عقد من الزمن تقريباً.

قالت: "لست واثقة من أنني سأخرج".

قــال تــشاك: "لمــاذا؟ أعــني، عــذراً على قول ذلك، آنسة كيرنــز...".

"سيدة".

"سيدة كيرنــز. عذراً. لكنك تبدين طبيعية بالنسبة إليّ".

تراجعت إلى الخلف على كرسيها، بارتياح أكثر من أي شخص آخـــر التقيا به في هذا المكان، وأصدرت ضحكة ناعمة. "أفترض. لم أكـــن هكـــذا عـــندما جئت إلى هنا. أوه يا الله! أنا مسرورة لأنهم لا يلتقطون الصور. تم تشخيصي باكتئاب هوسي، ولا أملك سبباً للشك في ذلـــك. لقـــد عشت أياماً سوداء. أعتقد أن الجميع يعيشون ذلك. الفرق هو، أن معظم الأشخاص لا يقتلون أزواجهم بفأس. قيل لي إنني أملـــك نـــزاعات عميقة مع والدي، وأوافق على ذلك أيضاً. أشك في أن أخـــرج وأقـــتل شخصاً مجدداً، لكنك لا تستطيع التأكد". وجهت طـــرف ســـيجارتها ناحيتهما. "أظن أنه إذا ضربك رجل وخانك مع نـــصف النـــساء اللواتي يصادفهن ولا يساعدك أحد، فلن يكون ضربه بالفأس عملاً غير مبرر، بالنسبة إليك".

التقت عيناها بعيني تيدي، ثمة شيء في بؤبؤيها – ربما خجل فتاة المدرسة – جعله يضحك.

"ماذا؟". قالت، وهي تضحك معه.

قال لها: "ربما لا يجدر بك الخروج".

"تقول ذلك لأنك رجل".

"أنت محقة".

"حسناً، لا ألومك".

من المريح الضحك بعد بيتر برين، وتساءل تيدي إذا كان يغازل، قليلاً أيضاً، مريضة عقلية، قاتلة بفأس. *هذا ما وصلت إليه، دولوريس.* لكـــنه لم يـــشعر بالسوء حيال ذلك، كما لو أنه، بعد هذين العامين القاتمين من الحداد، أصبح مخولاً للقيام ببعض المغازلة غير المؤذية.

قالـــت بريدجت: "ماذا سأفعل إذا خرجت؟ لم أعد أعرف ماذا يـــوجد في ذلك العالم. قنابل، حسبما أسمع. قنابل تستطيع تحويل مدن

بكاملها إلى رماد. وأجهزة تلفزيون، هذا ما يسمونها، أليس كذلك؟ ثمة شائعة تفيد أن كل جناح سيحصل على جهاز، وسنتمكن من رؤية برامج في هذه العلبة. لا أعرف إذا كنت سأحب ذلك. إنها أصوات خارجة من علبة، وجوه في علبة. أسمع ما يكفي من الأصوات، وأرى ما يكفي من الوجوه كل يوم. لا أحتاج إلى المزيد من الضجيج".

سألها تشاك: "هل أخبرتني عن راشايل سولاندو؟".

توقفت. كان ذلك أشبه بتوقف مفاجئ، ولاحظ تيدي عينيها تشردان قليلاً، كما لو أنها تبحث في دماغها عن الملف الصحيح، ودوّن تيدي كلمة *أكاذيب* في دفتره، واضعاً معصمه فوق الكلمة ما إن انتهى.

صدرت كلماتها بروية أكبر، وفاحت منها رائحة الكذب.

"راشايل لطيفة كفاية. إنها كتومة. تتحدث كثيراً عن المطر، لكنها في أغلب الأحيان لا تتحدث أبداً. تعتقد أن أولادها لا يزالون على قيد الحياة. تعتقد أنها لا تزال تعيش في بيركشاير وأننا جميعاً جيران، وعمال بريد، وعمال توصيل. كانت تصعب معرفتها".

تحدثت، وهي توجه رأسها إلى الأسفل، وعندما انتهت، لم تستطع النظر في عيني تيدي. ابتعدت نظرتها عن وجهه، وتمعنت في سطح الطاولة، وأشعلت سيجارة أخرى.

فكّر تيدي في ما قالته للتو، وأدرك أن وصفها لأوهام راشايل كان مطابقاً حرفياً، لما قاله لهما كاولي البارحة.

"كم مضى على وجودها هنا؟".

"هوه؟".

"راشايل. كم مضى على وجودها في الجناح ب معك؟".

"ثلاثة أعوام؟ حسبما أظن. أتوه في الوقت. يسهل ذلك في مثل هذا المكان".

سأل تيدي: "وأين كانت قبل ذلك؟".

"في الجناح ج، مثلما سمعت. تم نقلها حسبما أظن".

"لكنك لست أكيدة".

"لا. أنا... مجدداً".

"طبعاً. هل حدث أي شيء غير اعتيادي في آخر مرة رأيتها؟".

"لا".

"كان ذلك في مجموعة".

"ماذا؟".

قال تيدي: "آخر مرة رأيتها فيها. كان ذلك في جلسة العلاج، في الليلة ما قبل الفائتة".

"نعم، نعم". أومأت برأسها مرات عدة، ونفضت بعضاً من رماد السيجارة فوق المنفضة. "في مجموعة".

"وهل ذهبتم إلى غرفكم جميعاً مع بعضكم بعضاً؟".

"نعم، مع السيد غانتون".

نظـــرت إلى الأعلى، ولاحظ تيدي الارتباك، وربما بعض الرعب على وجهها. "لا أعرف ماذا تقصد".

"هل كان الدكتور شيهان هناك في تلك الليلة؟".

نظـــرت إلى تشاك، ومن ثم إلى تيدي، وزمّت شفتها العليا على أسنانها. "نعم، كان هناك".

"كيف شكله؟".

"الدكتور شيهان؟".

أومأ تيدي برأسه.

"إنه جيد. إنه لطيف. وسيم".

"وسيم؟".

"نعم. إنه... عيناه غير قاسيتين، مثلما كانت تقول أمي".

"هل غازلك يوماً؟".

"لا".

"تودد منك؟".

"لا، لا، لا. الدكتور شيهان طبيب جيد".

"وتلك الليلة؟".

"تلـــك الليلة؟". فكّرت في الأمر قليلاً. "لم يحدث أي شيء غير اعتيادي تلك الليلة. تحدثنا عن السيطرة على الغضب؟ وتذمرت راشايل مـــن المطر. وغادر الدكتور شيهان مباشرة قبل انتهاء الجلسة، ورافقنا السيد غانتون إلى غرفنا، وذهبنا إلى الأسرّة، وهكذا كان".

كتب تيدي في دفتره *مدرّبة* تحت كلمة *أكاذيب*، وأغلق الملف.

"هكذا فقط؟".

"نعم. في صباح اليوم التالي، اختفت راشايل".

"صباح اليوم التالي؟".

"نعم. استيقظت وسمعت أنها هربت".

"لكن تلك الليلة، قرابة منتصف الليل، سمعت ذلك، صحيح؟".

"سمعت ماذا؟". أطفأت سيجارتها، ولوّحت للدخان الذي صدر منها.

"الفوضى. حين تم اكتشاف اختفائها".

"لا، كنت...".

"كـــان هناك صراخ، وضجيج، وركض الحراس في كل مكان، وأُطلقت صفارات الإنذار".

"ظننتُ أنه حلم".

"حلم؟!".

أومـــأت بسرعة قائلة: "طبعاً. كابوس". نظرت إلى تشاك. "هل أستطيع الحصول على كوب من الماء؟".

"طبعاً". وقف تشاك ونظر حوله، ورأى كدسة من الأكواب، في الجهة الخلفية للكافيتيريا، قرب براد من الفولاذ.

وقف أحد الحراس، نصف وقفة عن كرسيه. "حضرة المارشال؟".

"أريد فقط بعض الماء. لا بأس".

وصـــل تشاك إلى البراد، وأخذ كوباً زجاجياً، واحتاج إلى بضع ثوانٍ ليقرر أي خرطوم يضخ الحليب، وأي خرطوم يضخ الماء.

فـــيما رفع الخرطوم، الذي هو عبارة عن مقبض سميك، بدا مثل ظفـــر معدني، أخذت بريدجت كيرنـــز دفتر تيدي وقلمه. نظرت إليه مباشرة، في عينيه، وفتحت على صفحة نظيفة، وخربشت شيئاً عليها، ثم أغلقت الدفتر، وأعادت إليه الدفتر والقلم.

وجه إليها تيدي نظرة محتارة، لكنها أفلتت عينيه، ولاطفت علبة سجائرها.

عـــاد تشاك مع الماء وجلس. راقبا بريدجت، وهي تشرب نصف الكوب، ثم تقول: "شكراً. هل هناك المزيد من الأسئلة؟ أنا متعبة نوعاً ما".

سألها تيدي: "هل التقيت يوماً بمريض اسمه آندرو لايديز؟".

لم يكـــشف وجهها عن أي تعبير. أبداً على الإطلاق. بدا وكأنه تحـــول إلى حجر. بقيت يدها مسطحة على الطاولة، كما لو أن رفعها عنها سيدفع الطاولة إلى الطيران نحو السقف.

لم يعـــرف تيدي السبب، لكنه أيقن تماماً أنها كانت على وشك البكاء.

قالت: "لا. لم أسمع به أبداً".

سأل تشاك: "هل تظن أنه جرى تدريبها؟".

"أليس كذلك؟".

"حسناً، بدت الأجوبة مصطنعة قليلاً".

كانـــا في الممر الذي يصل آشكليف بالجناح ب، وباتا الآن تحت المطر، وتساقط الماء على بشرهما.

"قلـــيلاً؟ اســـتخدمت الكلمات نفسها التي استخدمها كاولي في بعض الحالات. حين سألناها عن موضوع جلسة العلاج، توقفت قليلاً ثم *قالت السيطرة على الغضب؟* كما لو أنها لم تكن واثقة. كما لو أنها كانت تخضع لامتحان، وأمضت الليل بكامله وهي تدرس".

"ماذا يعني ذلك؟".

قال تيدي: "اللعنة عليّ إذا كنت أعرف! كل ما أحصل عليه هو أسئلة. كل نصف ساعة، كما لو أن هناك ثلاثين سؤالاً إضافياً".

قـــال تـــشاك: "أوافقك الرأي. هاي، إليك هذا السؤال؛ من هو آندرو لايديز؟".

"هل انتبهت إلى ذلك؟". أشعل تيدي إحدى السجائر التي ربحها في البوكر.

"سألت كل مريض تحدثنا إليه".

"لم أسأل كين أو ليونورا غرانت".

"تيدي، لا يعرفان على أي كوكب يعيشان".

"صحيح".

"أنا شريكك، سيدي".

اتكأ تيدي إلى الخلف، على الجدار الحجري، وانضم تشاك إليه. برم رأسه، ونظر إلى تشاك.

قال له: "التقينا للتو".

"أوه، لا تثق بـــي".

"أثـــق بك، تشاك، أكيد. لكنني أخرق القوانين هنا. طلبتُ هذه القضية، بالتحديد، لحظة وصلت إلى المكتب الميداني".

"إذاً؟".

"إذاً، دوافعي ليست موضوعية تماماً".

أومـــأ تشاك برأسه، وأشعل سيجارة منه. "فتاتي، جولي - جولي تاكيتومـــي - هـــذا هو اسمها. إنها أميركية بقدري أنا. لا تتحدث أي كلمـــة يابانية. جاء أهلها قبل جيلين إلى هذا البلد. لكنهم وضعوها في مخـــيم، ومـــن ثم...". هـــزّ رأسه ثم رمى سيجارته تحت المطر، ورفع قميـــصه، كاشفاً عن البشرة فوق وركه الأيمن. "انظر تيدي. انظر إلى ندبتي الأخرى".

نظر تيدي. كانت ندبة طويلة ومثل الهلام، سميكة بقدر إبهامه.

"لم أصب بهذه الندبة، في الحرب أيضاً. أصبت بها، في أثناء عملي مـــع المارشالات. دخلنا عبر باب في تاكوما. طعنني الرجل الذي كنا نطارده بسيف. هل تصدق ذلك؟ سيف لعين! أمضيت ثلاثة أسابيع في المستـــشفى، حـــيث قامـــوا بتقطيب أحشائي. في خدمة المارشالات الأميركيين، تيدي. في خدمة بلدي. ثم يطردونني من القسم الذي أعمل فـــيه، لأنـــني مغرم بامرأة أميركية لها بشرة وعينان آسيويتان". أنـــزل قميصه مجدداً. "اللعنة عليهم!".

قـــال تيدي، بعد برهة: "بالرغم من أنني لا أعرفك جيداً، أقسم إنك مغرم فعلاً بهذه المرأة".

قـــال تشاك: "إنني مستعد للموت من أجلها. لا أندم على ذلك أيضاً".

أومأ تيدي برأسه. ما من شعور أنقى في هذا العالم برأيه.

"لا تتخل عن هذا الشعور، صديقي".

"لـــن أفعـــل تـــيدي. هذا هو المهم. لكنك ستخبرني عن سبب وجودنا هنا. من هو آندرو لايديز؟".

رمـــى تيدي كعب سيجارته في الممر الحجري، ثم سحقه بكعب حذائه.

خاطب نفسه: دولوريس عليّ إخباره. لا أستطيع فعل ذلك وحدي.

إذا كـــان بعـــد كـــل خطاياي - كل شربـــي للكحول، كل الأوقـــات التي تركتك فيها لوحدك لفترة طويلة، وخذلتك، وحطمت قلـــبك - إذا كان في وسعي التعويض عن أي من ذلك، قد يكون هذا هو الوقت، الفرصة الأخيرة التي أملكها.

أريـــد فعـــل ذلك بالطريقة الصحيحة، حبيبتي. أريد التعويض. ستفهمين ذلك أنت، وكل الأشخاص.

خاطـــب تـــشاك "آندرو لايديز". وعلقت الكلمات في حنجرته الجافة. ابتلع، وحجز بعض الريق في فمه، ثم حاول مجدداً...

قـــال: "آندرو لايديز، كان رجل الصيانة، في المبنى الذي عشت فيه وزوجتي".

"حسناً".

"كان أيضاً يحب إحراق الأشياء".

استوعب تشاك ذلك، وتأمل وجه تيدي.

"إذاً...".

قـــال تـــيدي: "آنـــدرو لايديز أشعل عود الثقاب الذي سبب الحريق...".

"اللعنة!".

"... الذي قتل زوجتي".

8

مشى تيدي إلى حافة الممشى، وأخرج رأسه من تحت السقيفة لتبليل وجهه وشعره. استطاع رؤيتها في القطرات. تذوب بفعل الاحتكاك.

لم تشأ أن يذهب إلى العمل ذلك الصباح. في السنة الأخيرة من حياتها، أصبحت خائفة بطريقة غير مبررة، عرضة للأرق الذي تركها مليئة بالرعب والتشوش. داعبته، بعدما توقف جرس المنبّه، ثم اقترحت أن يغلقا الستائر وينسيا النهار ولا يغادرا السرير أبداً. حين عانقته، تشبثت به بقوة كبيرة، ولفترة طويلة، وأحسّ تيدي بالعظام في ذراعيها تنسحق في عنقه.

فيما كان يستحم، جاءت إليه، لكنه كان مستعجلاً جداً، وقد تأخر أصلاً، وكما هي حاله غالباً هذه الأيام، يعاني من آثار الثمالة. كان رأسه مفتقداً إلى الحيوية ومليئاً بالأشواك في الوقت نفسه. بدا جسمها مثل الورق الرملي حين ضغطت بجسمها على جسمه. كان الماء النازل من الدّوش مثل الرصاص.

قالت: "ابقَ معي يوماً واحداً. أي فرق سيحدثه يوم واحد؟".

حاول الابتسام، فيما أبعدها برفق عن طريقه، وتمدد لإحضار الصابون. "حبيبتي، لا أستطيع".

"لماذا؟".

"هات. أعطني الصابون". قضمت بأسنانها صدره.

حـــاول ألا يدفعها. أمسكها بكتفيها بأكبر رفق ممكن، وأرجعها خطوة أو خطوتين. قال لها: "هيا. عليّ فعلاً الذهاب".

ضحكت قليلاً، وحاولت مداعبته مجدداً، لكنه استطاع رؤية عينيها تمتلـــئان بالـــيأس في أن تكون سعيدة، من أن لا تبقى وحيدة، من أن تعيد الأيام القديمة - قبل أن بدأ العمل كثيراً، وشرب الكحول كثيراً - قبل أن تستيقظ ذات صباح، ويبدو العالم ساطعاً جداً، صارخاً جداً، بارداً جداً.

"حـــسناً، حـــسناً". تـــراجعت إلى الخلف بحيث استطاع رؤية وجهها، فيما تناثر الماء عن كتفيه وبلل جسمها. "سأعقد صفقة معك. لـــيس اليوم كله، صغيري. ليس اليوم كله، ساعة واحدة فقط. تأخر فقط ساعة واحدة".

"أصلاً لقد...".

"ساعة واحدة". قالت وهي تربّت عليه مجدداً، وقد امتلأت يدها برغوة الصابون الآن. "ساعة واحدة ثم يمكنك الذهاب". رفعت نفسها على أطراف أصابع قدميها لتقبيله.

قـــبلها بسرعة كبيرة على الشفتين وقال لها: "حبيبتي لا أستطيع". وبرم وجهه نحو رذاذ الدُّوش.

قالت: "هل سيتم استدعاؤك مجدداً؟".

"هوه؟".

"إلى القتال".

"ذلـــك البلد اللعين. حبيبتي، ستنتهي تلك الحرب قبل أن أربط شريط حذائي".

قالت: "لا أعرف. لا أعرف حتى، لماذا نحن هنا. أقصد...".

"لأن جيوش كجيش كوريا الشمالية لا تحصل على أسلحة كهذه مـــن أي مكـــان، حبيـــبتي. حصلت الجيوش عليها من ستالين. علينا

الإثبات أننا تعلمنا من ميونيخ، أنه كان علينا توقيف هتلر حينها، لكي نتمكن من وقف ستالين وماو، الآن، في كوريا".

"ستذهب".

"إذا تم استدعائي؟ أنا مجبر. لكنهم لن يفعلوا حبيبتي".

"وكيف تعرف؟".

غسل شعره بالشامبو.

"هـــل تساءلت يوماً لماذا يكرهوننا إلى هذه الدرجة؟ الشيوعيون؟ لماذا لا يتركوننا وشأننا؟ سينفجر العالم، ولا أعرف حتى، لماذا".

"لن ينفجر".

"بلى. أقرأ الصحف و...".

"إذاً توقفي عن قراءة الصحف".

شـــطف تيدي شعره بالماء، وضغطت بوجهها على ظهره، ولفّت يـــديها حول بطنه. "أذكر المرة الأولى التي رأيتك فيها في *الغروف*. في بذلتك العسكرية".

يكـــره تـــيدي حين تفعل ذلك. شريط الذكريات. لا تستطيع التكيف مع الحاضر، حيث هما الآن، مع المشاكل وكل شيء، ولذلك تعود بشريط الذكريات إلى الوراء لتدفئة نفسها.

"كنت وسيماً جداً. وقالت ليندا كوكس: *أنا من رآه أولاً*. لكن هل تعرف ماذا قلت لها؟ لقد تأخرت حبيبتي".

"لمـــاذا قلـــت ذلك؟ لا. قلت: لقد رأيته أولاً ربما، ليندا، لكنني ســـأراه أخـــيراً". رأت أنـــك تبدو حقيراً عن قرب، لكنني قلت لها: "حبيبتي، هل نظرت في عينيه. ما من شيء حقير فيهما".

أغلـــق تيدي صنبور الدوش واستدار، ولاحظ أن زوجته نجحت في وضع بعض من صابونه عليها. تناثرت بقع من رغوة الصابون على لحمها.

"هل تريدين أن أفتح صنبور الدُّوش مجدداً؟".

هزّت رأسها.

لف منشفة حول خصره، وحلق أمام المغسلة، واتكأت دولوريس علـــى الجـــدار، فيما جفت بقع الصابون البيضاء على جسمها وقفت تراقبه.

قال تيدي: "لماذا لا تجففين نفسك. أو تضعين عليك ثوباً؟".

قالت: "لقد اختفى الماء الآن".

"لا، لم يختفِ. يبدو مثل طفيليات بيضاء عالقة عليك".

قالت: "ليس الصابون".

"ماذا إذاً؟".

"كوكونات غروف. احترق بكامله فيما كنت هناك".

"نعم، حبيبتي. سمعت ذلك".

"هـــناك". أنـــشدت بـــرفق، وهي تحاول بث المرح في الأجواء. "هناك...".

لطالما امتلكت صوتاً جميلاً. الليلة التي عاد فيها من الحرب، نـــزلا في غرفة في فندق باركر هاوس، وبعدما أقاما علاقة حميمة، سمعها تغني للمرة الأولى من الحمام، فيما كان مستلقياً على السرير؛ *فتيات بافلو*، فيما حرج البخار من تحت الباب.

قالت: "هاي".

"نعـــم؟". رأى انعكاس الجهة اليسرى من جسمها في المرآة. لقد جف معظم الصابون على بشرتها وأزعجه ذلك. أوحى ذلك باعتداء، بطريقة لا يستطيع وضع إصبعه عليه.

"هل لديك امرأة أخرى؟".

"ماذا؟".

"قل لي".

"عمّ تتحدثين؟ أنا أعمل، دولوريس".

هـــزّت كتفها، كما لو أنه لا علاقة للموضوع بالحديث الحالي. وضـــعت قدمها على الجدار، واستخدمت إصبعاً لمسح الماء عن فخذها الداخلي. "لم تعد تقيم علاقة حميمة معي".

"دولوريس، أنا جادٌّ لا تتحدثي بهذه الطريقة في المنـــزل".

"عليّ الافتراض إذاً، أنك تقوم بذلك معها".

"أنـــا لا أقـــوم بأي شيء، مع أحدٍ، وهلا توقفت عن لفظ هذه الكلمة؟".

"أي كلمة؟". وضعت يدها أسفل بطنها. "علاقة حميمة؟".

"نعم". رفع يده. تابع الحلاقة باليد الأخرى.

"هل هي سيئة؟".

"تعـــرفين أنها كذلك". أنـــزل الشفرة إلى حنجرته، وسمع صوت خربشة الشعيرات عبر رغوة الصابون.

"ما هي إذاً الكلمة الجيدة؟".

"هوه؟". غمس الفرشاة في الماء وهزّها.

"أي كلمة لا تجعلك تشعر بالغضب؟".

"لم أغضب".

"بلى".

أنهى حلاقة حنجرته، ومسح الشفرة بفوطة. وضع القسم المسطح منها تحت شارب خدّه الأيسر.

"لا، حبيبتي. لم أغضب". نظر إلى عينيها عبر المرآة.

"ماذا يفترض بـــي القول؟".

"دولوريس".

قالت: "أحمق".

انــــــزلقت الشفرة عميقاً جداً في بشرة تيدي، لدرجة شك أنها وصـــلت إلى عظم فكه. اتسعت عيناه وأشرق كل الجانب الأيسر من وجهـــه، ثم دخل بعض من رغوة الحلاقة إلى الجرح، وسال الدم داخل الغيوم البيضاء والماء الذي في المغسلة.

أعطته منشفة، لكنه دفعها بعيداً، وامتص الهواء عبر أسنانه، وترك الألم يحفر داخل عينيه، يتغلغل في دماغه، ونــــزف فوق المغسلة، وشعر أنه على وشك البكاء. ليس من الألم. ليس من آثار الثمالة. وإنما لأنه لا يعــــرف مـــاذا يحدث لزوجته، الفتاة التي رقص معها للمرة الأولى في كوكونات غروف. لا يعرف ماذا أصبحت، أو، ماذا أصبح العالم مع حـــروبه الصغيرة والقذرة، ومع الكراهية والتجسسات في واشنطن، في هولـــيوود، أقنعة الغازات في المدارس، مع ملاجئ إسمنتية من القنابل في الطوابـــق الأرضـــية. وكل شيء مترابط نوعاً ما؛ زوجته، هذا العالم، شربه للكحول، الحرب التي شارك فيها لأنه اعتقد، فعلاً، أنها ستنهي، كل ذلك...

نـــــــزف في المغسلة، وقالت دولوريس: "أنا آسفة، أنا آسفة، أنا آســـفة". وأخذ المنشفة في المرة الثانية التي أعطته إياها لكنه، لم يستطع لمسها أو النظر إليها. استطاع سماع الدموع في صوتها، وعرف أن هناك دموعاً في عينيها، وعلى وجهها، وكره كم أصبح العالم لعيناً، وفاحشاً تماماً، مثل كل شيء فيه.

* * *

في الصحيفة، قيل إن آخر شيء قاله لزوجته، هو أنه يحبها.

كذبة.

آخر شيء قاله فعلاً؟

تمدد نحو مقبض الباب، وضغط بمنشفة ثالثة على فكه، فيما بحثت عيناها في وجهه:

"الله، دولـــوريس، علـــيك استجماع قواك. لديك مسؤوليات. فكّري فيها أحياناً اتفقنا؟ وفكّري في طريقة صحيحة.

كانـــت تلـــك الكلمـــات الأخيرة التي سمعتها منه زوجته. أغلق الباب، ونـــزل السلالم، وتوقف عند الدرجة الأخيرة. فكّر في العودة. فكّـــر في صعود السلالم مجدداً والدخول إلى الشقة وتسوية الأمور نوعاً ما. أو على الأقل جعل الأمور أكثر هدوءاً.

أكثر هدوءاً. كان ذلك أفضل.

المرأة، صاحبة الندبة السوداء على حنجرتها، جاءت تتمايل في الممـــر صوبهما، وكانت مكبلة في الكاحلين والمعصمين، مع حارس علـــى كل جانب. بدت سعيدة، وأصدرت أصوات بطة، وحاولت التصفيق بمرفقيها.

قال تشاك: "ماذا فعلت؟".

أجـــاب الحـــارس: "هذه؟ إنها ماغي العجوز. نسميها ماغي مونـــباي. إنها ذاهبة الآن إلى غرفة العلاج المائي. لكننا لا نستطيع المجازفة معها.

تـــوقفت ماغـــي أمامهما، وأسرع الحارسان لمنعها من التحرك، لكـــنها دفعـــتهما بمـــرفقيها، وضربت قدميها على الأرض، فبرم أحد الحارسين عينيه وتنهد.

"أصبحت الآن مهتدية. هل تسمعان؟".

حدّقت ماغي إلى وجهيهما، وأمالت رأسها إلى اليمين، وتحركت مثل السلحفاة، التي تتحسس طريقها خارج قوقعتها.

قالـــت: "أنا الطريق. أنا النور. ولن أخبز فطائر كما اللعينة. لن أفعل. هل تفهمان؟".

قال تشاك: "طبعاً".

قال تيدي: "حاضر. لا فطائر".

"جئتما إلى هنا. ستبقيان هنا". شمت ماغي الهواء. "إنه مستقبلكما وماضيكما، وهو يدور مثل دورات القمر حول الأرض".

"نعم سيدتي".

انحنت صوبهما وشمتهما. أولاً تيدي، ومن ثم تشاك.

"إنهم يحتفظون بأسرار. هذا ما يبقي الجحيم هنا".

قال تشاك: "حسناً، هذا، والفطائر؟".

ابتـــسمت له، وبدا لبرهة أن شخصاً عاقلاً دخل جسمها، وظهر عبر بؤبؤيها.

"اضحك". قالت لتشاك. "هذا جيد للروح. اضحك".

قال تشاك: "حسناً. سأفعل سيدتي".

لمست أنفه بإصبع معقوف. "أريد أن أذكرك بهذه الطريقة؛ وأنت تضحك".

ثم استدارت بعيداً، وبدأت تمشي. لحق بها الحارسان، ومشيا معها في الممر، وعبر باب جانبـــي يؤدي إلى المستشفى.

قال تشاك: "فتاة مضحكة".

"من النوع الذي تحضره إلى المنـــزل لأمك".

"ثم تقـــتل أمـــك، وتدفـــنها خارج المنـــزل، لكن بالرغم من ذلك...". أشعل تشاك سيجارة. "لايديز".

"قتل زوجتي".

"أنت قلت هذا. كيف؟".

"كان مهووساً بالنار".

"قلت ذلك أيضاً".

"كان أيضاً عامل الصيانة في المبنى عندنا. تشاجر مع المالك. طرده المالك. في ذلك الوقت، عرفنا جميعاً أن الحريق كان مفتعلاً. أشعله شخص ما. كان لايديز على لائحة المشتبه بهم، لكنهم احتاجوا إلى بعض الوقت للعثور عليه، وحين فعلوا، حصل على البراءة. اللعنة! لم أكن واثقاً، حتى من أنه هو".

"وما الذي غيّر رأيك؟".

"قبل سنة، فتحت الجريدة ووجدته. أحرق مدرسة، حيث كان يعمل. القصة نفسها؛ طردوه وعاد، وأشعل الطابق الأرضي، وشغّل الغلاية لكي ينفجر المبنى. تماماً مثلما حصل عندنا. الأمر مشابه. لم يكن هناك أولاد في المدرسة، وإنما فقط المديرة التي كانت تعمل حتى وقت متأخر. ماتت. تمت إحالة لايديز إلى المحاكمة، وزعم أنه سمع أصواتاً، وحكموا عليه بالذهاب إلى شاتاك. حدث شيء هناك - لا أعرف ماذا - لكن تم نقله إلى هنا، قبل ستة أشهر".

"لكن، لم يره أحد".

"في الجناحين أ وب".

"ما يوحي أنه في الجناح ج".

"نعم".

"أو ميت".

"ربما. وهذا سبب آخر للعثور على المدافن".

"لكن فلنقل إنه ليس ميتاً".

"حسناً...".

"إذا عثرت عليه، تيدي، ماذا ستفعل؟".

"لا أعرف".

"لا تسخر مني سيدي".

جـــاءت ممرضتان نحوهما، وكانتا تطقطقان بأحذيتهما، وتسيران بمحاذاة الجدار، لتفادي المطر.

قالت إحداهما: "أصبحتما مبللين أيها الرجلان".

قـــال تشاك: "بالكامل؟". وضحكت تلك التي كانت أقرب إلى الجدار، فتاة قصيرة صاحبة شعر أسود قصير.

بعـــدما مرّتا، استدارت الممرضة، صاحبة الشعر الأسود، نحوهما وقالت: "هل تغازلون هكذا دوماً أيها المارشالات؟".

قال تشاك: "حسب".

"ماذا؟".

"نوعية الموظفات".

توقفـــتا لـــبرهة، وعندما فهمتا، دفنت الممرضة، صاحبة الشعر الأســـود القـــصير، وجههـــا في كتف الممرضة الأخرى، وانفجرتا في الضحك، وتوجهتا نحو باب المستشفى.

يا الله! كم يحسد تيدي تشاك. قدرته على تصديق الكلمات التي يلفظها. في مغازلات سخيفة. في ميله السهل إلى لعب سريع وسخيف بالكلمات! ولكن أكثر من كل ذلك خفة دمه وسحره!

لم يتوافـــر السحر يوماً بسهولة لتيدي. بعد الحرب، أصبح الأمر أكثر صعوبة. بعد دولوريس، اختفى تماماً.

كـــان السحر ترفاً للذين لا يزالون يعتقدون بالاستقامة الأساسية للأمور. في النقاوة والحدود المستقيمة.

قـــال لتـــشاك: "تعرف، في آخر صباح مع زوجتي، تحدثت عن حريق كوكونات غروف".

"حقاً؟!".

"هناك التقينا. في الغروف. كانت تملك تلك الصديقة الغنية، وتم السماح لي بالدخول لأنهم منحوا حسماً للعسكريين. كان ذلك مباشرة، قبل سفري. رقصت ، نها طوال الليل. حتى رقصة الفوكستروت".

أبعـــد تشاك عنقه عن الجدار، ونظر إلى وجه تيدي. "هل ترقص الفوكستروت؟ أحاول تصور ذلك، ولكن...".

قـــال تيدي: "هاي سيدي، لو رأيت زوجتي تلك الليلة! لكنت قفزت عن الأرض مثل الأرنب لو طلبت منك ذلك".

"التقيت بها إذاً، في الكوكونات غروف".

أومـــأ تيدي برأسه. "ثم احترق فيما كنت في إيطاليا؟ نعم، كنت في إيطاليا حينها؛ ووجدت ذلك خطيراً. كانت تخاف كثيراً من النار".

قال تشاك بهدوء: "لكنها ماتت بالنار".

"سخرية القدر، أليس كذلك؟".

اســـترجع تيدي صورة لها، من ذلك الصباح الأخير، وهي ترفع ساقها على جدار الحمام، عارية، وجسمها ملطخ ببقع الرغوة البيضاء.

"تيدي؟".

نظر تيدي إليه.

بسط تشاك يديه. "سأدعمك في هذه القضية. مهما كلف الأمر. تريد العثور على لايديز وقتله؟ هذا غرامي".

"غرام". ابتسم تيدي. "لم أسمع هذه الكلمة منذ...".

"ولكن، سيدي، أريد معرفة ما يمكن توقعه. أنا جادّ. علينا إنجاز مهمتـــنا بـــسرعة، وإلا سننتهي في محكمة، أو قضية جديدة. الجميع يفتشون هذه الأيام، هل تعلم؟ يبحثون عنا جميعاً. يراقبون، يصبح العالم أصغر، دقيقة بعد دقيقة".

أرجـــع تيدي إلى الخلف كتلة شعره السميك النازلة على جبينه.
"أظـــن، أنك تعرف هذا المكان. أظن، أنك تعرف شيئاً لم تخبرني به.
أظن، أنك جئت إلى هنا، لإلحاق الأذى".

وضع تيدي يده فوق قلبه.

"أنا جادٌّ، سيدي".

قال تيدي: "نحن مبللان".

"إذاً".

"برأيي، هل سنهتم إذا أصبحنا مبللين أكثر؟".

* * *

غـــادرا بعد ذلك، وتوجها إلى الشاطئ. غطى المطر كل شيء.
مـــوجات، بحجـــم المنازل، ارتطمت بالصخور. كانت تعلو كثيراً في
الهواء، ثم تتناثر لإفساح المجال أمام موجات جديدة.

صرخ تيدي فوق الهدير: "لا أريد قتله".

"لا؟".

"لا".

"لست واثقاً من أنني أصدقك".

هزّ تيدي كتفه.

قال تشاك: "لو كانت زوجتي؟ لقتلته مرتين".

قال تيدي: "تعبت من القتل. في الحرب؟ قمت كثيراً. كيف يمكن
ذلك تشاك؟ لكنني فعلتها".

"بالرغم من ذلك. إنها زوجتك، تيدي".

عثرا على مجموعة من الصخور السوداء، الحادة، التي قذفها البحر،
إلى بين الأشجار، ووصلت إلى اليابسة.

قـــال تـــيدي: "انظر". بعد أن وصلا إلى سهل مرتفع ودائرة من

الأشـــجار العالية، التي حجبت بعض المطر. "لا أزال أضع العمل المهني أولاً. نعرف ماذا حصل لراشايل سولاندو. وإذا صادفتُ لايديز في أثناء قيامي بذلك؟ يكون هذا رائعاً. سأقول له إنني أعرف أنه قتل زوجتي. سأقول له إنني سأكون في انتظاره على اليابسة حين يتم إطلاق سراحه. سأقول له إنه لن يستطيع تنفس الهواء الحر طالما أنا على قيد الحياة".

قال تشاك: "هذا كل شيء؟".

"هذا كل شيء".

مـــسح تشاك عينيه بكمّه، وأبعد شعره عن جبينه. "لا أصدقك. فعلاً، لا أصدقك".

نظـــر تـــيدي إلى جنوب حلقة الأشجار، ورأى أعلى مستشفى آشكليف ومبانيها.

"هل تظن أن كاولي يعرف السبب الحقيقي لوجودك هنا؟".

"أنا هنا فعلاً، من أجل راشايل سولاندو".

"لكـــن اللعنة، تيدي، إذا كان الرجل الذي قتل زوجتك موجوداً هنا، إذاً...".

"لم تـــتم إدانـــته بذلك. ما من شيء يربطنا ببعض أنا وهو. لا شيء".

جلـــس تشاك على صخرة نائتة، وأخفض رأسه للمطر. "المدافن إذاً. لَم لا نـــرى إذا كـــنا نستطيع العثور عليها، بعد أن أصبحنا الآن خارجـــاً؟ إذا رأيـــنا مدفناً للايديز، نعرف أن نصف المعركة يكون قد انتهى".

نظر تيدي إلى حلقة الأشجار، إلى العمق الأسود فيها. "جيد".

وقف تشاك. "بالمناسبة، ماذا قالت لك؟".

"من؟".

"المريـــضة". شبك تشاك أصابعه. "بريدجت. أرسلتني لأحضر لها الماء. قالت لك شيئاً ما. أعرف".

"لا".

"لا؟ أنت تكذب. أعرف أنها...".

قال تيدي: "كتبته". وربّت على جيوب معطفه بحثاً عن دفتره.

أخيراً، عثر عليه، في جيبه الداخلي، وبدأ يقلّب صفحاته.

بدأ تشاك يصفر، ويطرق بقدميه على الأرض اللزجة تحتهما.

حين وصل إلى الصفحة، قال تيدي: "أدولف، يكفي".

جاء تشاك إليه. "هل وجدتها؟".

أومـــأ تـــيدي برأســـه، وبرم الدفتر بحيث يستطيع تشاك رؤية الصفحة، الكلمة الوحيدة المكتوبة عليها، بخربشة صغيرة بدأت تنـــزف تحت المطر:

اهرب

9

عثرا على الصخور، على مسافة نصف ميل تقريباً، داخل اليابسة، فيما أسرعت السماء نحو الظلمة. تحت الغيوم الملبدة.

كانت الصخور فوق أجراف سبخة حيث عشب البحر ضئيل وزلق تحت المطر، واتسخا بالوحل عند شق طريقهما بصعوبة نحو الأعلى.

ثمة حقل تحتها، مسطح مثل الجهات السفلية للغيوم، خالٍ من كل شـــيء باستثناء شجيرة أو اثنتين، وبعض الأوراق السميكة التي قذفتها العاصفة، ومجموعة من الصخور الصغيرة التي افترض تيدي، أساساً، أنها جاءت مع الأوراق، بفعل قوة الرياح. توقف في منتصف الطريق، عند الجهة البعيدة من المنحدر، ونظر إليها مرة جديدة.

كانـــت منتشرة عبر الحقل، على شكل كومات صغيرة ومحكمة، وفصلت بين الكومة والأخرى مسافة ستة إنشات، تقريباً، فوضع تيدي يده على كتف تشاك، وأشار إليها.

"ما عدد الكومات التي تستطيع إحصاءها؟".

قال تشاك: "ماذا؟".

قال تيدي: "تلك الصخور. هل تراها؟".

"نعم".

"إنها مكوّمة على نحو منفصل. كم عددها برأيك؟".

وجّـــه تشاك إليه نظرة، كما لو أن العاصفة ضربت رأسه. "إنها صخور".

"أنا جادّ".

أعطاه تشاك واحدة أخرى من تلك النظرات، ثم وجّه انتباهه إلى الحقل. بعد دقيقة، قال: "عددت عشرة".

"وأنا أيضاً".

انخسف الوحل تحت قدم تشاك، فانزلق، لكنه تشبث بذراع التقطه بها تيدي، وأمسكه بها إلى أن سوّى تشاك نفسه.

قال تشاك: "هل نستطيع النزول؟". ووجه إلى تيدي إيماءة انزعاج.

شقا طريقهما نحو الأسفل، وذهب تيدي إلى كومات الصخور، ورأى أنها تشكّل خطين، واحداً فوق الآخر. بعض الكومات أصغر كثيراً من كومات أخرى. احتوت بعض الكومات فقط على ثلاث أو أربع صخور، فيما احتوت كومات أخرى على أكثر من عشر صخور، أو ربما حتى عشرين.

مشى تيدي بين الخطين، ثم توقف، ونظر إلى تشاك وقال: "أخطأنا في العد".

"كيف؟".

"بين هاتين الكومتين هنا؟". انتظر تيدي حتى ينضم إليه وراحا ينظران معاً. "ثمة صخرة واحدة هنا. إنها كومة بحدّ ذاتها".

"في هذا الهواء؟ لا. وقعت؟".

"إنها على مسافة متساوية من الكومات الأخرى. على مسافة نصف قدم من الكومة إلى اليسار، ومسافة نصف قدم من الكومة إلى اليمين. وفي الصف التالي، يحصل الشيء نفسه مرتين أيضاً. صخرة لوحدها".

"إذاً؟".

"هناك إذاً، ثلاث عشرة كومة من الصخور، تشاك".

"تظن أنها هي من ترك هذا. أليس كذلك؟".

"أظن أن أحداً فعلها".

"رمز آخر".

جـــثم تـــيدي قرب الصخور. سحب معطفه فوق رأسه، وفتح طـــياته أمـــام جـــسمه، لحمايـــة دفتره من المطر. تحرك جانبياً، مثل الـــسلطعون، وتوقف أمام كل كومة، لإحصاء عدد الصخور، وتدوين العدد. حين انتهى، كان لديه ثلاثة عشر رقماً: 18-1-4-9-5-4-4-23-1-12-4-19-14-5.

قال تشاك: "إنه، ربما، دمج لقفل العالم الأكبر".

أغلق تيدي الدفتر، ووضعه في جيبه. "ملاحظة جيدة".

قـــال تـــشاك: "شكراً لك. شكراً لك. سأظهر مرتين، ليلياً، في *كاتسكيلز*. ستأتي لتشاهدني، أليس كذلك؟".

سحب تيدي المعطف مجدداً عن رأسه ووقف، فانهمر المطر مجدداً عليه، وعثرت الريح على صوته.

توجها شمالاً، فيما امتدت الأجراف إلى اليمين، وبرزت مستشفى آشـــكليف إلى يسارهما في مكان ما، وسط الريح والمطر. ازدادت قوة المطر بشكل كبير، خلال النصف ساعة التالية، ومشيا ملتصقين ببعضهما، لكي يسمعا حديث بعضهما بعضاً، وكانا يتمايلان مثل ثملين.

"سألك كاولي إذا كنت في مخابرات الجيش. هل كذبت عليه؟".

قال تيدي: "نعم ولا. سرحت من الجيش النظامي".

"لكن، كيف دخلت إليه؟".

"من الأساس. تم إرسالي إلى كلية اللاسلكي".

"ومن هناك؟".

"دورة في كلية الحرب، وبعدها، نعم، في المخابرات".

"لكن، كيف انتهيت في الجيش النظامي؟".

"ارتكبت خطأ فظيعاً". توجب على تيدي الصراخ في وجه الرياح. "نسفت تفكيك رموز إحداثيات موقع العدو".

"كم كان ذلك سيئاً؟".

لا يزال باستطاعة تيدي سماع الضجيج الذي وصل عبر اللاسلكي. كان هناك صراخ، سكوت، بكاء، سكوت، نار بندقية. يليه المزيد من الصرخات، والمزيد من البكاء، والمزيد من السكوت. وصوت ولد، في الخلفية القريبة، لكل ذلك الضجيج، يقول: "هل ترى إلى أين ذهب باقي جسمي؟".

صرخ تيدي في الهواء: "نصف كتيبة تقريباً، تمت تصفيتها مثل رغيف اللحم".

لم يكن هناك شيء سوى صوت العاصفة في أذنيه، لدقيقة، ثم صرخ تشاك: "أنا آسف. هذا مريع".

تسلقا هضبة صغيرة، وكاد الهواء، في الأعلى، يوقعهما أرضاً، لكن تيدي أمسك بمرفق تشاك، وشقا طريقهما نحو الأمام، مع خفض رأسيهما، ومشيا بهذه الطريقة لبعض الوقت، وهما يحنيان رأسيهما وجسميهما في الهواء، ولم يلاحظا، حتى حجارة الأضرحة في البداية. استمرا في التقدم إلى الأمام والمطر يملأ عيونهما، ثم ارتطم تيدي بحجر مسطح، مائل إلى الخلف، ومقتلع من حفرته بفعل الريح، فاستلقى مسطحاً على متنه، كما لو أنه ينظر إليه.

جاكوب بلاف

شريك بوسان

1858-1832

انكسرت شجرة إلى يسارهما، وبدا صوت تصدعها أشبه بالفأس الـــذي يشق سقفاً رقيقاً، وصرخ تشاك: "الله!". ثم تناثرت أجزاء من الشجرة بفعل الريح، وتطايرت أمام عيونهما.

تحـــركا في المقـــبرة، وهما يضعان أذرعتهما حول وجهيهما، فيما تحولت القذارات والأوراق وقطع الأشجار إلى كائنات حية، كهربائية، ووقعـــا أرضاً، مرات عدة، وكادا يصابان بالعمى، ورأى تيدي شكلاً فحمياً بديناً، أمامهما، وبدأ بالإشارة إليه، فيما ضاع صراخه في الريح. مـــرّت كتلة من شيء ما، على نحو قريب جداً من رأسه، وأحسّ أنه لامـــس شعره، فركضا، فيما دفعت الريح ساقيهما، وارتفعت الأرض، وارتطمت بركبتيهما.

ضريح ضخم. كان الباب فولاذياً. لكنه مكسور عند المفصلات، ونتأت الأعشاب الضارة من الأسفل. فتح تيدي الباب، ودفعته الريح، فجعلـــته يمـــيل إلى يساره مع الباب، وسقط أرضاً فيما رفعت الريح مفـــصلة الباب السفلية، وأصدر صوتاً قوياً، ثم ارتطم بالجدار. انـــزلق تيدي في الوحل. لكنه، وقف على قدميه، وعصفت الريح بكتفيه، فوقع علـــى ركبة واحدة، ورأى الباب الأسود أمامه، فتقدم إلى الأمام عبر الأوساخ، وزحف إلى الداخل.

قال تشاك: "هل رأيت يوماً شيئاً كهذا؟". فيما وقفا عند مدخل الـــباب، وراقبا الجزيرة وهي عالقة في دوامة غضب. كان الهواء كثيفاً ومليئاً بالأوساخ والأوراق، وأغصان الأشجار والحجارة، ودوماً المطر، وأصدر صوتاً قوياً كما لو أن الأرض تتمزق.

قال تيدي: "أبداً". وتراجعا إلى الخلف بعيداً عن الباب.

عثـــر تـــيدي علـــى علبة أعواد ثقاب، لا تزال جافة في الجيب الداخلي لمعطفه، فأشعل ثلاثة أعواد ثقاب دفعة واحدة، وحاول حجب

الـــريح بجسمه، فلاحظا أن المدفن الإسمنتي، في وسط الغرفة، فارغ من التابوت أو الجثة، التي تم نقلها أو سرقتها قبل أعوام. ثمة مقعد حجري مـــشيّد في الجـــدار، في الجهـــة الأخرى من المدفن، فتوجها إليه فيما انطفأت أعواد الثقاب. جلسا على المقعد، واستمرت الريح في الدخول عبر المدخل، وارتطم الباب بالجدار.

قـــال تشاك: "لكن هذا جميل، أليس كذلك؟ جنّ جنون الطبيعة! لون تلك السماء... هل رأيت كيف انقلب اللوح الحجري؟!".

"ارتطمت به، لكن نعم، كان المنظر مذهلاً".

"واو". عصر تشاك حاشية سرواله، بحيث أصبحت هناك برك من الماء تحت قدميه، وسوّى قميصه المبللة على صدره. "أظن أنه كان يجدر بـــنا البقاء بالقرب من القاعدة. علينا الخروج سالمين من هذه العاصفة هنا".

أومـــأ تيدي برأسه قائلاً: "لا أعرف الكثير عن الأعاصير، لكنني أشعر أن الوضع سيزداد سوءاً".

"هل ستغيّر الريح اتجاهها؟ هل سيأتي ذلك الضريح إلى هنا".

"أفضل أن أكون هنا، بدلاً من التواجد هناك في الخارج".

"طبعاً، لكن التفاؤل وسط الإعصار؟ ما درجة ذكائنا؟".

"ليست عالية جداً".

"حصل الأمر بسرعة. قبل ثانية، كان مجرد مطر غزير، وبعد ثانية أصبحنا دوروثي المتوجهة إلى أوز".

"كان ذلك إعصاراً قمعياً".

"أي واحد؟".

"في كنساس".

"أوه".

ارتفـــع الــضجيج كثيراً، واستطاع تيدي سماع الريح تصل إلى الجـــدار الحجـــري السميك خلفه، وتضربه مثل الملاكم الجبّار، إلى أن أحسّ بصدمات خفيفة في ظهره.

كرر: "العاصفة تزداد قوة".

"ماذا يفعل كل المجانين الآن برأيك؟".

"يصرخون على العاصفة".

جلـــسا صامتين لبرهة، وأشعل كل منهما سيجارة. تذكر تيدي ذلك اليوم، على مركب والده، وأول إدراك له أن الطبيعة لا تبالي به، وهي أقوى منه بكثير، وتصوّر الريح كأنها شيء له وجه صقر مع منقار معقوف ينقضّ على الضريح، ويزعق بصوت عالٍ. شيء غاضب حوّل المـــوجات إلى أبراج، وابتلع المنازل مثل عيدان ثقاب، ويستطيع رفعه بقبضته، ورميه في الصين.

قـــال تـــشاك: "كنت في شمال أفريقيا عام اثنين وأربعين. شهدنا عاصفتين رمليتين. لكن، ما من شيء يشبه هذا. إلا أنك تنسى مجدداً. ربما كانت العاصفة بهذا السوء".

قـــال تيدي: "لا أستطيع تحمل ذلك. أقصد، لا أستطيع الصمود أمام ما يجري الآن، والتجول خارجاً، لكن هذا أسهل من البرد يا الله! في الأردين كنت تشعر بالجليد يخرج من فمك. حتى هذا اليوم، لا أزال أستطيع الإحساس به. كانت أصابعي باردة جداً كما لو أنها على نار. كيف تتصور ذلك؟!".

"في شمـــال أفريقيا، واجهنا الحرّ. سقط الرجال نتيجة الحرّ. كنا نقف هناك دقيقة واحدة فقط، ثم على ظهر المركب في الدقيقة التالية. عاني الرجال من تصلب الشرايين نتيجة ذلك. أطلقت النار على ذلك الرجل، وكان لحمه طرياً جداً نتيجة الحرّ، فاستدار، وشاهد الرصاصة

تخـــرج من الجهة الأخرى من جسمه". نقر تيدي على المقعد بإصبعه. قال بهدوء: "شاهدته يطير. أقسم بالله".

"قتلت رجلاً واحداً فقط؟!".

"تقريباً. وأنت؟".

"بالعكس. قتلت الكثير، ورأيت معظمهم". أرجع تيدي رأسه إلى الخلف، نحو الجدار، ونظر إلى السقف. "لو أنجبت ولداً، لا أعرف أبداً، إذا كنت سأسمح له بالذهاب إلى الحرب. حتى إلى حرب مثل تلك التي لا نملك فيها خياراً. لا أظن أنه يجب طلب ذلك، من أي كان".

"ماذا؟".

"القتل".

رفـــع تشاك ركبته إلى صدره. "أهلي، صديقتي، بعض أصدقائي الذين لا يستطيعون عيش التجربة، كلهم يسألون. هل تفهم؟".

"نعم".

"كـــيف كـــان ذلك؟ هذا ما يريدون معرفته. وأنت تقول: "لا أعرف. لقد حصل الأمر لشخص آخر. كنت فقط أشاهد من فوق، أو مـــن مكان ما". رفع يديه. "لا أستطيع شرح الأمر بطريقة أفضل. هل هذا منطقي، نوعاً ما؟".

قـــال تيدي: "في داتشاو، حاصرنا رجال العدو، خمسمئة منهم. كان هناك مراسلون، لكنهم رأوا كل الجثث مكومة عند محطة القطار أيضاً. استطاعوا أن يشموا تماماً ما كنا نشمه نحن. نظروا إلينا، وأرادونا أن نفعـــل ما فعلناه. لذا، أعدمنا كل واحد من أولئك الرجال اللعينين. وجهـــنا البـــنادق إلى ثلاثمئة رجل دفعة واحدة. عبرنا الخط الفاصل، ووضـــعنا الرصاصات في رأس كل واحد بقي يتنفس. هذه جريمة. لو كـــان هـــناك أحد. صحيح؟ ولكن، تشاك، كان هذا أقل ما نستطيع

فعلـــه. راح أولـــئك المراسلون اللعينون يصفقون. كان سجناء المخيم سعداء جداً لدرجة أنّهم راحوا يبكون. لذا، أعطيناهم بعض الأسرى. ومـــزقوهم إلى قطع. في نهاية ذلك اليوم، انتشلنا خمسمئة جثة عن وجه الأرض. قتلناهم جميعاً. ما من دفاع ذاتي، وما من حرب. كانت تلك مجزرة جماعية. وبالرغم من ذلك، لم يلمنا أحد. كانوا يستحقون أسوأ مـــن ذلك. كيف تخبر الزوجة والأهل والأولاد، أنك فعلت مثل هذا الـــشيء؟ أنـــك أعدمت أشخاصاً غير مسلحين؟ أنك قتلت صبياناً؟! صـــبياناً يحملون أسلحة، ويرتدون بذلات، وإنما صبيان صغار! الجواب هـــو أنـــك لا تستطيع إخبارهم. لن يفهموا أبداً. لأن ما فعلته، كان للسبب الصحيح. لكن ما فعلته خطأ أيضاً. ولن تستطيع نسيانه أبداً".

بعـــد برهة، قال تشاك: "كان ذلك على الأقل للسبب الصحيح. هـــل نظـــرت يوماً إلى بعض أولئك المساكين العائدين من كوريا؟ لا يزالون لا يعرفون سبب ذهابهم إلى هناك. أوقفنا أدولف. أنقذنا ملايين الأشخاص. صحيح؟ فعلنا شيئاً، تيدي".

اعترف تيدي: "نعم، صحيح. يكون هذا كافياً أحياناً".

"لا بد من ذلك. صحيح؟".

وقعـــت شجرة بأكملها أمام الباب، رأساً على عقب، وتناثرت جذورها إلى الأعلى، مثل الأشواك.

"هل رأيت ذلك؟".

"نعـــم. لقد استيقظت العاصفة وسط المحيط لتقول: "انتظرا ثانية. ليس هذا صحيحاً".

"يفترض بـــي أن أكون هناك".

"احـــتجت إلى أعـــوام، لجعـــل تلك الهضبة تبدو بالطريقة التي أريدها".

ضـــحكا بهدوء في الظلمة، وراقبا الجزيرة تدور في العاصفة مثل كابوس.

"إذاً، كم تعرف عن هذا المكان سيدي؟".

هزّ تيدي كتفه. "أعرف القليل. ليس ما يكفي. كفاية ليخيفني".

"أوه، رائع. أنت خائف. ماذا يفترض بالإنسان العادي أن يشعر إذاً؟".

ابتسم تيدي: "بالرعب الحقيقي".

"حسناً، اعتبرني مذعوراً".

"إنه مرفق تجريبـــي. أخبرتك؛ العلاج الجذري. يحصل على تمويله جزئياً من الكومونويلث، وجزئياً من مكتب السجون الفدرالية، ولكن الأغلبـــية تـــأتي مـــن صندوق أنشئ عام واحد وخمسين من قبل لجنة نشاطات الكونغرس الأميركي HUAC.

قـــال تشاك: "مذهل. محاربة جماعة الشيوعيين من جزيرة في مرفأ بوسطن. ماذا يفعل المرء حيال ذلك؟".

"يجـــرون التجارب على العقل. أظن ذلك. يدوّنون ماذا يعرفون، ويحوّلونه إلى زملاء كاولي السابقين في مكتب الخدمات الاستراتيجية، في وكالـــة الاســـتخبارات المركـــزية الأميركية ربما. هل سمعت يوماً بالفينسيكليدين؟".

هزّ تشاك رأسه.

"ميزالين؟".

"لا، لا".

قال تيدي: "إنها أدوية مهلوسة. عقاقير تدفعك إلى الهلوسة".

"حسناً".

"حـــتى بجـــرعات خفيفة، يبدأ الأشخاص العاقلون تماماً – مثلك أنت أو مثلي أنا – برؤية أشياء".

"كرؤية أشجارٍ مقلوبة رأساً على عقب أمام الباب؟".

"آه، هـــذا هـــراء. لقد رأيناها كلانا. ليست هذه هلوسة. كل شـــخص يرى أشياء مختلفة. لنقل إنك تنظر إلى الأسفل وترى ذراعيك تتحولان إلى كوبرا، وترتفع الكوبرا، وتفتح فمها لابتلاع رأسك".

"أقول: إن هذا يكون فعلاً يوماً سيئاً".

"أو قطـــرات الماء التي تتحول إلى لهب؟ أو شجيرة تتحول إلى نمر مفترس؟".

"يكـــون هـــذا يوماً أكثر سوءاً. لا يجدر بـــي مغادرة السرير أبداً. لكنك، تقول: إن عقاراً قد يستطيع أن يجعلك تظن أن هذا يحصل فعلاً؟".

"لـــيس فقط *قد*. وإنما حتماً. وإذا تم إعطاؤه بالجرعة الصحيحة، تبدأ فعلاً بالهلوسة".

"إنها بعض العقاقير".

"نعم، صحيح. الكثير من هذه العقاقير، يفترض أن يكون تأثيرها مماثلاً، لحال المصاب بانفصام شخصية وخيم. ما كان اسمه، كين؟ ذلك الـــرجل. البرد في قدميه. يصدق ذلك. ليونورا غرانت، لم تكن تراك. كانت ترى دوغلاس فايربانكس".

"ولا تنسَ؛ تشارلي شابلين أيضاً، يا صديقي".

"قد أحاول التقليد، لكنني لا أعرف الأصل".

"هاي، ليس سيئاً، سيدي. يمكنك تقديمي في *الكاتسكيلز*".

"كانت هناك حالات موثقة عن مصابين بانفصام الشخصية، سلخوا وجوههم بأنفسهم، لأنهم ظنوا أن أيديهم هي شيء آخر، حيوانات، أو أي شيء. يرون أشياء غير موجودة، يسمعون أصواتاً لا يسمعها أحد غيرهـــم، يقفزون من سطح المبنى لأنهم يظنون أن المبنى يحترق، وما إلى ذلك. الأدوية المسببة للهلوسة تفضي إلى تخيلات مماثلة".

أشـــار تشاك بإصبعه إلى تيدي. "تتحدث فجأة بمعرفة كبيرة أكثر بكثير من المعتاد".

قـــال تيدي: "ما الذي أستطيع قوله لك؟ أنجزت بعض الفروض المنـــــزلية. تـــشاك، ماذا يحصل، برأيك، إذا، أعطيت أدوية مهلوسة لأشخاص مصابين بانفصام وخيم في الشخصية؟".

"ما من أحد يفعل ذلك".

"إنهـــم يفعلـــونها، وهذا قانوني. وحدهم البشر يصابون بانفصام الشخـــصية. لا يحـــصل ذلك للفئران، أو الأرانب، أو الأبقار. كيف ستُجَرَّب إذاً، العلاجات لهذا المرض؟".

"على البشر".

"أعطِ ذلك الرجل سيجاراً".

"لكنْ، سيجار مجرد سيجار، صحيح؟".

قال تيدي: "إذا شئت".

وقـــف تـــيدي، ووضـــع يديه على المقعد الحجري، ونظر إلى العاصـــفة. "إنهـــم يعطون إذاً، المصابين بانفصام في الشخصية، عقاقير، تجعلهم أكثر انفصاماً في الشخصية؟".

"هذه مجموعة اختبارية".

"وما المجموعة الأخرى؟".

"الأشـــخاص غـــير المصابين بانفصام في الشخصية، لرؤية كيف يتفاعل دماغهم".

"هراء".

"إنهـــا مـــسألة تسجيل عام، زميلي. احضر يوماً اجتماعاً لأطباء نفسيين. لقد فعلت".

"لكنك قلت إن هذا قانوني".

قال تيدي: "إنه قانوني. وهكذا هي أيضاً أبحاث تحسين النسل".

"لكن إذا كان الأمر قانونياً، لا يمكننا فعل أي شيء حياله".

انحنى تيدي على المقعد. "لا جدال. لست هنا لأعتقل أي شخص. تم إرسالي لجمع المعلومات. هذا كل شيء".

"انتظر دقيقة، تم إرسالك؟ يا الله، تيدي، كم نحن متورطان هنا!".

تنهد تيدي ونظر إليه. "بقوة".

"لحظة". رفع تيدي يده. "منذ البداية. كيف تورطت في كل ذلك؟".

قال تيدي: "بدأت القصة مع لايديز. قبل عام. ذهبت إلى شاتاك بحجة أنني أريد إجراء مقابلة معه. اخترعت قصة عن شريك له، مطلوب من القضاء الفدرالي، وأعتقد أن لايديز يستطيع إلقاء بعض الضوء على مكان وجوده. لكن، تبين أن لايديز لم يكن هناك. تم نقله إلى آشكليف. اتصلت بالمكان هنا، لكنهم زعموا أنهم لا يملكون سجلاً له".

"و؟".

"جعلني ذلك أشعر بالفضول. أجريت بعض الاتصالات الهاتفية، ببعض المستشفيات النفسية في المنطقة، وكان الجميع مدركين لآشكليف. لكن أحداً لم يرغب في التحدث عن ذلك. تحدثت إلى آمر السجن، في مستشفى رنتون للمجانين المجرمين. كنت قد التقيت به مرتين قبلاً وقلت له *بوبي ما القصة؟ إنه مستشفى وسجن، وليس مختلفاً عن المكان الذي أنت فيه*، لكنه هزّ رأسه وقال *تيدي، ذلك المكان شيء مختلف تماماً. إنه شيء مصنّف. كيس أسود. لا تذهب إلى هناك*.

قال تشاك: "لكنك فعلت. وتم تعييني للمجيء معك".

قـــال تيدي: "لم يكن هذا جزءاً من الخطة. قال لي المسؤول إنه يجدر بــــي اصطحاب شريك معي، فأخذت شريكاً".

"كنت تنتظر إذاً، أي عذر للمجيء إلى هنا؟".

قال تيدي: "تقريباً. واللعنة، لم أظن أبداً، أن ذلك سيحصل فعلاً! أقصد أنه حتى لو حدث هروب لسجين، ما كنت لأعرف أنني سأكون في المدينة، حين يحدث ذلك. أو إذا كان سيتم تعيين شخص آخر. أو، أو، أو. يا الله، هناك مليون أو... أنا محظوظ".

"محظوظ! اللعنة!".

"على ماذا؟".

"هذا ليس حظاً سيدي. الحظ لا يعمل بهذه الطريقة. العالم لا يعمل بهذه الطريقة. تظن أنه حصل بالصدفة، أن تم تعيينك لهذه القضية؟".

"طبعاً. يبدو هذا جنوناً، نوعاً ما، ولكن...".

"عندما اتصلت بآشكليف للمرة الأولى بشأن لايديز، هل عرّفت عن نفسك؟".

"طبعاً".

"حسناً إذاً...".

"تشاك، حصل ذلك قبل عام كامل".

"إذاً، ألا تظـــن أنهم يحتفظون بالأسرار؟ خصوصاً في حالة مريض يزعمون أنهم لا يملكون سجلاً له".

"مرة جديدة؛ قبل اثني عشر شهراً".

"بالله عليك تيدي". أخفض تيدي صوته، ووضع راحتي يديه على المقعـــد، وأخذ نفساً طويلاً. "فنلقل: إنهم يقومون ببعض العمل السيئ هـــنا. ماذا لو كانوا يلاحقونك، حتى قبل أن تطأ قدمك هذه الجزيرة؟ ماذا لو أحضروك هم إلى هنا؟".

"أوه، هذا هراء".

"هراء! أين راشايل سولاندو؟ أين أدنى دليل على وجودها أصلاً؟ رأينا صورة امرأة وملفاً، يمكن لأي كان أن يفبركهما".

"لكن تشاك، حتى لو اختلقوا القصة، حتى لو ركبوا كل المسألة، لا مجال أبداً لأن يعرفوا أنه كان سيتم تعييني أنا لهذه القضية".

"أجـــريت تحقيقات، تيدي. تحريت عن هذا المكان واستفسرت. وضـــعوا ســـوراً مكهرباً، حول مرفق لمعالجة المجانين. وضعوا جناحاً، داخل حصن. وضعوا مئة مريض في مرفق، يمكن أن يتسع لثلاثمئة. هذا المكان مخيف جداً، تيدي. لا يريد أي مستشفى آخر أن يتحدث عنه، ولا يخـــبرك ذلك أي شيء؟ لديك مسؤول له روابط بمكتب الخدمات الاســـتراتيجية، وتمـــويل مـــن صندوق، من لجنة نشاطات الكونغرس الأميركي. كل شيء، في هذا المكان، يصرخ *عمليات حكومية سرية*. وأنت متفاجئ، أنه بدلاً من أن تبحث أنت عنهم، طوال العام الماضي، كانوا هم يبحثون عنك؟".

"كم مرة عليّ أن أقول لك تشاك، كيف كانوا ليعرفوا أنه سيتم تعييني لقضية راشايل سولاندو؟".

"هل أنت غبـــي؟".

استقام تيدي، ونظر إلى تشاك.

رفع تشاك يده. "آسف، آسف. أنا متوتر، حسناً؟".

"حسناً".

"كـــل مـــا أقوله، سيدي، هو أنهم عرفوا أنك ستستفيد من أدنى عـــذر للمجيء إلى هنا. قاتل زوجتك موجود هنا. كل ما عليهم فعله هـــو الادعاء أن شخصاً ما هرب. يعرفون بعدها أنك ستهبّ بسرعة لاجتياز المرفأ والوصول إلى هنا".

انشق الباب من مفصلته الوحيدة، ووقع أرضاً عند المدخل، ورأياه يرتطم بالصخرة، ومن ثم يطير في الهواء، ويحلّق فوق المقبرة، ويختفي في السماء.

حدقا إلى مدخل الباب، ثم قال تشاك: "كلانا رأينا ذلك، صحيح؟".

قال تيدي: "إنهم يستخدمون البشر للتجارب. ألا يزعجك ذلك؟".

"إنه يرعبني تيدي. لكن كيف تعرف ذلك؟ قلت إنه تم إرسالك لجمع المعلومات. من أرسلك؟".

"في لقائنا الأول مع كاولي، سمعته يسأل عن السيناتور؟".

"نعم".

"السيناتور هورلي، ديمقراطي، نيوهامبشاير. يرأس لجنة فرعية للتمويل العمومي لمسائل الصحة العقلية. رأى مقدار المال الذي يتم إرساله إلى هذا المكان، و لم يعجبه الأمر. بعدها، صادفت رجلاً اسمه جورج نويس. أمضى نويس بعض الوقت هنا في الجناح ج. كان قد مضى على خروجه من الجزيرة أسبوعان، حين دخل إلى مشرب، في أتلبورو، وبدأ يطعن الناس بالسكين. غرباء، في السجن، بدأ يتحدث عن تنين في الجناح ج. أراد محاميه زعم الجنون. إذا كان هناك شخص مجنون فعلاً، يكون هنا. إنه مخبول. لكن نويس طرد محاميه، ووقف أمام القاضي، وطلب الإدانة، وتوسله كثيراً ليتم إرساله إلى سجن، أي سجن، ولكن ليس إلى مستشفى. أمضى سنة، تقريباً، في السجن، لكنه راح يستعيد عقله، وفي النهاية، بدأ يخبر قصصاً عن آشكليف، قصصاً تبدو مجنونة، لكن السيناتور يظن أنها ليست مجنونة، بقدر ما يراها الآخرون".

جلس تشاك على المقعد، وأشعل سيجارة، ودخنها قليلاً، فيما كان يتأمل تيدي.

"لكن كيف عثر السيناتور عليك، وكيف نجحتما في العثور على نويس؟".

لبرهة، ظن تيدي أنه رأى أضواء تومض عبر العاصفة في الخارج.

"في الواقـع، حصلت الأمور بالطريقة المعكوسة. عثر عليّ نويس وأنـا عثرت على السيناتور. اتصل بـي ذات صباح بوبـي فاريس، آمر السجن في رنتون. وسألني إذا كنت لا أزال مهتماً بآشكليف. قلت لـه طبعاً وأخبرني عن هذا المحكوم في ديدهام، الذي يحدث الكثير من الـضجة حـول آشـكليف. هكذا، ذهبت إلى ديدهام مرات عدة، وتحـدثت إلى نـويس. قال نويس إنه حين كان في الكلية، ذات سنة أصـبح يتوتر قرابة موعد الامتحانات. صرخ في وجه أستاذ، وضرب النافذة بيده في مبنى نوم الطلاب. انتهى بالتحدث إلى أحدهم، في قسم الطـب النفسي. الشيء التالي الذي تعرفه هو، أنه وافق على أن يكون جـزءاً من اختبار، بحيث يستطيع الحصول على بعض المال لجيبه. بعد سـنة، ترك الكلية، وأصبح مصاباً بانفصام كامل في الشخصية، يهذي في زوايا الشوارع، يرى أشياء، ويهلوس".

"هذه قصة رجل بدأ عادياً...".

رأى تـيدي الضوء مجدداً عبر العاصفة، واقترب أكثر من الباب، وحدّق إلى الخارج. برق! افترض أن هذا منطقي، بالرغم من أنه لم يرَ أي شيء من ذلك قبلاً.

"عـادي مثل، أي شخص. ربما كانت لديه – ماذا يسمونها هنا؟ مـسائل الـسيطرة على الغضب. لكن، في الإجمال، كان إنساناً عاقلاً تماماً. بعد سنة، فقد عقله. صادف هذا الرجل في بارك سكواير شخصاً ما ذات يوم، وظن أنه البروفسور، الذي أوصاه للمرة الأولى برؤية أحد في القـسم النفسي. إنها باختصار قصة طويلة، وأشبعه نويس ضرباً. تم

إرساله إلى آشكليف. الجناح أ. لكنه لم يبقَ هناك لوقت طويل. أصبح الـــرجل عنـــيفاً جداً في ذلك الوقت، وأرسلوه إلى الجناح ج. أعطوه الأدوية المهلوسة، وتراجعوا إلى الخلف، وراحوا يراقبون الوحوش، وهي تأكلـــه، وهـــو يجنّ جنونه. كان مجنوناً أكثر قليلاً، مما أرادوا، حسبما أظن، لأنه في النهاية، أجروا له جراحة لمجرد تهدئته".

قال تشاك: "جراحة!".

أومـــأ تيدي برأسه. "جراحة فصية في الدماغ. هذا مضحك، تـــشاك. يعرّضـــونك لصدمة كهربائية ثم يدخلون في عينك عوداً جلـــيدياً. لا أمـــزح. مـــن دون تخدير. يدخلون العود هنا وهناك ويستخرجون بعض الألياف العصبية من دماغك، ثم تنتهي العملية. بهذه البساطة".

قال تشاك: "لكن قانون نورمبرغ يمنع...".

"... إجراء التجارب على البشر، لمجرد خدمة العلم. نعم. ظننت أن لديـــنا قضية مرتكزة على نورمبرغ أيضاً. وكذلك فعل السيناتور. لكنـــنا أخطأنا. فالتجارب مسموح بها، إذا تم استخدامها لمعالجة مرض الشخص مباشرة. هكذا، طالما يقول الطبيب: "هاي، نحن نحاول فقط مساعدة هذا المسكين اللعين، ونعرف ما إذا كانت هذه العقاقير قادرة على تحفيز انفصام الشخصية، فيما تستطيع تلك الأدوية وقفها؛ تكون المسألة قانونية تماماً".

قـــال تـــشاك: "انتظر ثانية. انتظر ثانية. تقول إن نويس خضع لجراحة...".

"نعم، جراحة فصية في الدماغ".

"لكـــن إذا كان الهدف من ذلك تهدئة شخص ما، كيف وصل ذلك الشخص إلى بارك سكواير؟".

"يبدو جلياً، أن الأمر لم ينجح".

"هل هذا شائع؟".

شـــاهد تيدي الأضواء مجدداً، وكان واثقاً تماماً هذه المرة، أنه سمع صوت محرك وراء كل هذا الضجيج.

"أيهـــا المارشـــالان!". كان الصوت ضعيفاً في الريح، لكنهما سمعاه.

أنـــزل تشاك ساقيه عن المقعد الحجري، وقفز، وانضم إلى تيدي عند مدخل الغرفة، واستطاعا رؤية الأضواء الأمامية لسيارة، في الطرف البعيد من المقبرة، وسمعا صوت مكبّر للصوت يقول:

"أيها المارشالان! إذا كنتما هنا، أرسلا لنا إشارة من فضلكما. أنا نائب آمر السجن ماكفرسون. أيها المارشلان!".

قال تيدي: "ما رأيك في ذلك؟ عثروا علينا".

"إنها جزيرة سيدي. سيعثرون دوماً علينا".

نظـــر تيدي في عيني تشاك، وأومأ له برأسه. للمرة الأولى منذ أن التقيا، لاحظ الخوف في عيني تشاك، فيما حاول فكّه الانكماش لكبت الخوف.

"ستجري الأمور على ما يرام، شريكي".

"أيها المارشالان! هل أنتما هنا؟".

قال تشاك: "لا أعرف".

"أنا أعرف". قال تيدي ذلك بالرغم من أنه لا يعرف. "ابقَ معي. سنخرج من هذا المكان اللعين، تشاك. لا ريب أبداً في ذلك".

ثم خـــرجا مـــن المدخل والمقبرة. ارتطمت الريح بجسميهما بقوة كبيرة لكنهما بقيا واقفين على قدميهما، يشبكان ذراعيهما، ويتشبثان بكتفي بعضهما، فيما توجها متمايلين نحو الضوء.

10

"هل أصبتما بالجنون؟".

قـــال ماكفرســـون، وهو يصرخ في الريح، فيما اندفعت سيارة الجيب بسرعة، بمحاذاة الحافة الغربية للمقبرة.

كـــان جالساً في مقعد الركاب، ينظر إليهما بعينين حمراوين، وقد اختفت في العاصفة كل ملامح الجاذبية لابن تكساس الريفي. لم يـــتم تعريفهما إلى السائق. كان شاباً، صاحب وجه نحيل مع ذقن ناتـــئة إلى الأمـــام. هذا كل ما استطاع تيدي رؤيته، تحت قلنسوة المعطـــف الواقـــي من المطر. إلا أنه قاد سيارة الجيب، مثل محترف، وتجـــاوز الـــشجيرات ومُخلّفـــات العاصـــفة، كما لو أنها لم تكن موجودة.

"تمـــت، للـــتو، ترقية العاصفة. من عاصفة استوائية إلى إعصار. ستـــصل سرعة الرياح إلى مئة ميل في الساعة الآن. وفي منتصف الليل، يتوقع أن تصل السرعة إلى مئة وخمسين ميلاً. وأنتما تتجولان في خضم هذه العاصفة؟!".

قـــال تـــيدي: "كـــيف عـــرفت، أنه تم الإعلان عن ترقية قوة العاصفة؟".

"عـــبر اللاســـلكي أيها المارشال. توقع أن نفقد الإرسال، خلال ساعتين أيضاً".

قال تيدي: "طبعاً".

"يجدر بنا تفقد المجمّع في الوقت الحاضر، لكننا نبحث عنكما بدلاً من ذلك". ضرب متن مقعده، ثم استدار إلى الأمام، بعد أن انتهى من الحديث معهما.

قفـــزت سيارة الجيب فوق مطبّ، ولفترة وجيزة لم يرَ تيدي إلا الـــسماء، ولم يـــشعر بـــشيء تحت العجلات، ثم ارتطمت العجلات بالـــوحل، والـــتفت عبر منعطف قاسٍ، انحدر بقوة كبيرة مع الطريق، واســـتطاع تيدي رؤية المحيط إلى يسارهم، فيما المياه تتحرك باهتياج، بحيث أفرزت رغوات بيضاء وكبيرة، شبيهة بالغيوم الفطرية.

تجـــاوزت سيارة الجيب مجموعة من الهضاب الصغيرة، ثم عبرت مجمـــوعة مـــن الأشجار، وكان تيدي وتشاك يتشبثان بالمقاعد، فيما ارتطما ببعضهما بعضاً في المقعد الخلفي، ثم أصبحت الأشجار خلفهما، ووجـــدا نفـــسيهما أمام الجهة الخلفية لقصر كاولي، ثم خفف السائق سرعة السيارة، وتوجه نحو الباب الرئيس.

قـــال ماكفرسون، وهو ينظر إليهما: "سنأخذكما لرؤية الدكتور كاولي، يتحرق شوقاً للتحدث إليكما أيها الرجلان".

قال تشاك: "أكاد أظن أن أمي عادت إلى سياتل".

استحما في الطابق الأرضي من المبنى المخصص لنوم الموظفين، وتم مـــنحهما ملابـــس من مجموعة ملابس الممرضين. تم إرسال ملابسهما الخاصة إلى مصبغة المستشفى. في الحمام، مشط تشاك شعره إلى الخلف، ونظـــر إلى قميصه الأبيض وسرواله الأبيض وقال: "هل ترغب في رؤية لائحة الطعام؟ طبقنا الخاص لليلة هو عجل ويلنغتون. إنه لذيذ جداً".

أقـــبل تراي واشنطن إلى الحمام. بدا وكأنه يكبح ابتسامة، فيما تأمل ملابسهما الجديدة، ثم قال: "أنا هنا لإيصالكما إلى الدكتور كاولي".

"هل نحن في ورطة كبيرة؟".

"نعم، حسبما أتوقع".

قال كاولي، فيما دخلا الغرفة: "سررت برؤيتكما أيها الرجلان".

بدا في مزاج جيد، فيما أشرقت عيناه، وترك تيدي وتشاك تراي عند الباب، فيما دخلا إلى غرفة كبيرة، في الطابق العلوي من المستشفى.

كانت الغرفة مليئة بالأطباء، الذين ارتدى بعضهم الأردية البيضاء، فيما ارتدى بعضهم الآخر بذلات رسمية، وجلسوا جميعاً حول طاولة طويلة من خشب التك، مع مصابيح خضراء أمام كراسيهم، ومنافض قاتمة امتلأت بالسجائر أو السيجار، فيما الغليون الوحيد، كان لنايهرينغ الذي جلس عند رأس الطاولة.

"أيها الأطباء، هذان هما المارشالان الفدراليان اللذان تحدثنا عنهما. المارشالان دانيالز وأول".

سأل أحد الرجال: "أين ملابسكما؟".

"سؤال جيد". قال كاولي وهو يستمتع بالسؤال، برأي تيدي.

قال تيدي: "كنا خارجاً، في العاصفة".

أشار الطبيب إلى النوافذ الطويلة قائلاً: "خارجاً في هذا الطقس!".

تم تثبيتها بشريط لاصق كبير وبدت أنها تتنفس قليلاً، وتزفر الهواء في الغرفة. طقطقت ألواح الزجاج، بفعل قطرات المطر، ورزح المبنى كله، تحت ضغط الرياح.

قال تشاك: "أخشى ذلك".

قال نايهرينغ: "من فضلكما، اجلسا. نكاد ننتهي".

عثرا على كرسيين في نهاية الطاولة.

قال نايهرينغ لكاولي: "جون، نحتاج إلى إجماع حول هذا".

"تعرف موقفي".

"وأظـــن أننا نحترم جميعاً ذلك، لكن، إذا كان باستطاعة الأدوية المهدئة للأعصاب توفير الانخفاض الضروري في الخلل الحاصل في توازن السيروتونين، لا أشعر أننا نملك خياراً كبيراً. علينا متابعة البحث. وأول مريـــضة اختبارية، أوه، دوريس والش، تتطابق مع كل المعايير. لا أرى مشكلة هنا".

"أنا قلق بشأن الكلفة".

"إنها أقل بكثير من كلفة الجراحة، وأنت تعرف ذلك".

"أنا أتحدث عن مخاطر التلف في الكتلة العصبية الأساسية والقشرة المخـــية. أنـــا أتحدث عن دراسات أولية في أوروبا كشفت عن مخاطر لـــتلف الأعـــصاب، مماثلـــة للمخاطر التي تنجم عن التهاب الدماغ، والسكتات الدماغية".

تجاهـــل نايهرينغ الاعتراض برفع يده. "كل الذين يؤيدون طلب الدكتور بروتيغان فليرفعوا أيديهم".

شاهد تيدي كل يد ترتفع في الهواء باستثناء يد كاولي ويد رجل آخر.

قـــال نايهـــرينغ: "أقول إن هذا إجماع. سنطلب إذاً، من مجلس الإدارة تمويل بحث الدكتور بروتيغان".

أومـــأ رجـــل شـــاب، يفترض أنه الدكتور بروتيغان، برأسه علامـــة شكر لكل شخص جالس حول الطاولة. كشف عن خدّين طويلـــتين هـــزيلتين، وبـــدا أميركياً صرفاً. رأى تيدي أنه من نوع الرجل الذي يحتاج إلى المراقبة، ويشعر بثقة كبيرة في تحقيقه لأحلام أهله الكبيرة.

قـــال نايهرينغ: "حسناً، إذاً". وأغلق الملف الذي أمامه، فيما نظر عبر الطاولة إلى تيدي وتشاك، "كيف هي الأمور أيها المارشلان؟".

نهض كاولي عن كرسيه، وسكب فنجان قهوة لنفسه على طاولة مجاورة. "يقال إنه تم العثور عليكما في مقبرة".

صـــدرت بضع قهقهات ناعمة من الطاولة، ورفع الأطباء أيديهم لوضعها فوق أفواههم.

قال تشاك: "وهل تعرف مكاناً أفضل للاختباء من إعصار؟".

قال كاولي: "هنا. ومن الأفضل في الطابق الأرضي".

"سمعنا أن سرعة الإعصار قد تصل إلى مئة وخمسين ميلاً في الساعة".

أومـــأ كـــاولي برأسه وهو يدير ظهره إلى الغرفة. "هذا الصباح، نيوبورت، رود آيلند، خسرت ثلاثين بالمئة من منازلها".

قال تشاك: "آمل ألا يكونوا الفاندربيلت".

جلـــس كـــاولي على كرسيه. "وصل الإعصار إلى بروفنستاون وتـــرورو بعد الظهر. لا يعرف أحد فداحة الأضرار التي حصلت، لأن الطرقات قطعت، وكذلك الاتصال اللاسلكي. لكن يبدو أن الإعصار يتوجه مباشرة إلينا".

قال أحد الأطباء: "إنه أسوأ إعصار يضرب الساحل الشرقي، منذ ثلاثين عاماً".

قال كاولي: "يحوّل الهواء إلى كهرباء ساكنة صرف. لهذا السبب تعطـــل مركـــز الاتصالات الليلة الفائتة. لهذا السبب لم يكن الاتصال اللاســـلكي في أحسن أحواله. وإذا أصابنا الإعصار مباشرة، فلا أعرف ما الذي سيبقى على حاله".

قـــال نايهرينغ: "لهذا السبب، أكرر إصراري على أن يوضع كل مرضى المنطقة الزرقاء في قيود يدوية".

قال تيدي: "المنطقة الزرقاء؟!".

قال كاولي: "الجناح ج. المرضى الذين يشكلون خطراً على أنفسهم، وعلى هذه المؤسسة، وعلى الناس عموماً". استدار نحو نايهرينغ. "لا يمكننا فعل ذلك. إذا فاض هذا المرفق، فسيغرقون. أنت تعرف ذلك".

"سيمرّ وقت طويل قبل حصول فيضان".

"نحـــن في المحـــيط. على وشك التعرض لرياح إعصار بسرعة مئة وخمسين ميلاً في الساعة. لذا، فإن الفيضان يبدو محتملاً. نضاعف عدد الحـــراس. نـــراقب كـــل مرضـــى المنطقة الزرقاء باستمرار. من دون اســـتثناءات. لكننا لا نستطيع تثبيتهم بأسرّهم. إنهم محبوسون أصلاً في زنـــزاناتهم. يكون ذلك إجراماً بحقهم".

"إنهـــا مغامرة غير مضمونة النتائج جون". قال بهدوء، رجل بني الشعر، جالس في وسط الطاولة. إضافة إلى كاولي، كان الرجل الوحيد الـــذي امتنع عن التصويت على المسألة التي كانت تناقش، حين دخل تـــيدي وتـــشاك. كان ينقر على قلم حبر بشكل متكرر، وحدّق إلى الطاولـــة، لكـــن تيدي عرف من نبرة صوته أنه صديق لكاولي. "إنها مغامرة حقيقية. ماذا لو تعطلت الكهرباء".

"ثمة مولد احتياطي".

"وإذا تعطل؟ ستفتح الزنـــزانات".

قـــال كاولي: "إنها جزيرة. إلى أين سيذهب أي كان؟ يستبعد أن يـــركب أحد في مركب، ويتوجه إلى بوسطن، ويسبب الفوضى. إذا كانوا مقيدين بأغلال يدوية، وفاض هذا المرفق، أيها السادة، سيموتون جمـــيعاً. هـــناك أربعة وعشرون شخصاً. ماذا لو حصل أي شيء في المجمّـــع؟ أعـــني للاثنين وأربعين شخصاً الآخرين؟ يا الله! هل يمكنكم تحمل هذا؟! أنا لا أستطيع التحمل".

نظر كاولي إلى الطاولة، من طرفها إلى طرفها، وأحسّ تيدي فجأة بقـــدرة على الشفقة، لم يشعر أنها موجودة لديه من قبل. لا يملك أدنى فكـــرة عن سبب سماح كاولي لهما بالدخول إلى هذا الاجتماع، لكنه بدأ يفكر، في أن هذا الرجل لا يملك الكثير من الأصدقاء في الغرفة.

قال تيدي: "حضرة الطبيب، لا أقصد التدخل".

"على الإطلاق، أيها المارشال. أحضرناكما إلى هنا".

كاد تيدي يقول: "بلا مزاح؟".

"عندما تحدثنا هذا الصباح، عن رموز راشايل سولاندو...".

"يعرف الجميع عما يتحدث عنه المارشال".

"قانـــون الأربعة". قال بروتيغان، مع ابتسامة أراد تيدي الإمساك بها بكمّاشة. "أحب ذلك".

قـــال تيدي: "عندما تحدثنا هذا الصباح، قلت: إنك لا تملك أي فكرة بشأن التلميح الأخير".

قال نايهرينغ: "من هو السابع والستون؟ نعم؟".

أومأ تيدي برأسه، وتراجع إلى الخلف على كرسيه، منتظراً.

وجد الجميع ينظرون إليه بذهول.

قال تيدي: "هل صحيح أنكم لا تفهمونه؟".

قـــال صديق كاولي "نفهم ماذا، أيها المارشال؟". ونظر تيدي إلى ثوبه الأبيض، ولاحظ أن اسمه ميلر.

"لديكم ستة وستون مريضاً هنا".

حدّقـــوا جميعاً إليه، مثل الأولاد في ذكرى الميلاد، الذين ينتظرون مفاجأة المهرّج التالية.

"اثـــنان وأربعون مريضاً، في الجناحين أ وب. أربعة وعشرون في الجناح ج. يعني ذلك ستة وستين مريضاً".

لاحظ تيدي ملامح الفهم على بعض الوجوه، لكن الأغلبية بقوا مصعوقين.

قال تيدي: "ستة وستون مريضاً. يوحي ذلك أن الجواب على من هو *السابع والستون*؟ هو وجود مريض سابع وستين هنا".

صمت. نظر عدد من الأطباء إلى بعضهم بعضاً، عبر الطاولة.

في النهاية، قال نايهرينغ: "لا أفهم".

"لماذا؟ أوحت راشايل سولاندو بوجود مريض سابع وستين".

قـــال كاولي، وهو يمدّ يديه أمامه على الطاولة: "لكن هذا المريض لا وجود له، إنها فكرة رائعة أيها المارشال، وكانت حتماً لتفك الرمز، لو كانت صحيحة. ولكن إذا أضفنا اثنين إلى اثنين فهما لا يساويان، أبداً، خمسة، حتى لـــو أردت ذلك. إذا كان هناك ستة وستون مريضاً فقط في الجزيرة، فإن السؤال المتعلق بمريض سابع وستين هو غير واقعي. هل فهمت ما أقصده؟".

قال تيدي، وقد أبقى صوته هادئاً: "لا، لا أوافقك الرأي في هذه المسألة".

بدا كاولي أنه اختار كلماته بعناية قبل التحدث، كما لو أنه انتقى الأكثـــر بـــساطة. "لـــو افترضنا أن هذا الإعصار، لم يصل إلينا، لكنا استقبلنا مريضين جديدين هذا الصباح. ولكان وصل المجموع إلى ثمانية وســـتين. ولو مات مريض، لا سمح الله، في نومه الليلة الماضية، لوصل عـــدد المرضى إلى خمسة وستين. يمكن أن يتغير العدد كل يوم، أو كل أسبوع، حسب عدد من العوامل المتغيرة".

قال تيدي: "لكن، في الليلة التي كتبت فيها سولاندو رمزها...".

"كان هناك ستة وستون مريضاً، بمن فيهم هي. أضمن لك ذلك أيهـــا المارشال. لا يزال هناك واحد ناقص لبلوغ سبعة وستين، أليس كذلك؟ أنت تحاول وضع دائرة داخل مربع".

"لكن هذا هو رأيها".

"أفهم ذلك، نعم. لكن رأيها غير صحيح، إنه وهم. لا يوجد مريض سابع وستون هنا".

"هل تسمح لي أنا، وشريكي بالاطلاع على ملفات الموظفين؟".

أفضى هذا السؤال إلى عبوس العديد من الوجوه، وظهور النظرات المنزعجة، من حول الطاولة.

قال نايهرينغ: "طبعاً لا".

"لا يمكننا فعل ذلك أيها المارشال. أنا آسف".

أخفض تيدي رأسه لدقيقة، ونظر إلى قميصه الأبيض السخيف وسرواله الأبيض. بدا مثل أحمق حقيقي. ربما بدا جازماً. ربما يجدر به توزيع أكواب البوظة في الغرفة، لمعرفة ما إذا كان يستطيع استمالتهم بهذه الطريقة.

"لا نستطيع النفاذ إلى ملفات الموظفين. لا نستطيع النفاذ إلى ملفات المرضى. كيف يفترض بنا أن نعثر على المريضة المفقودة أيها السادة؟".

تراجع نايهرينغ إلى الخلف على كرسيه، وأمال رأسه.

تجمّدت ذراع كاولي، وبقيت السيجارة نصف مرفوعة أمام شفتيه.

همس عدد من الأطباء لبعضهم بعضاً.

نظر تيدي إلى تشاك.

همس تشاك: "لا تنظر إليّ. أنا مذهول".

قال كاولي: "ألم يخبرك آمر السجن؟".

"لم نتحدث أبداً، إلى آمر السجن. استقبلنا السيد ماكفرسون".

قال كاولي "أوه، يا الله!".

"ماذا؟".

نظر كاولي إلى الأطباء الآخرين، واتسعت عيناه.

كرر تيدي: "ماذا؟".

أطلق كاولي دفقةً من الهواء خارج فمه، ونظر إلى الطاولة.

"لقد وجدناها".

"ماذا؟".

أومـــأ كاولي برأسه ومجّ سيجارته. "راشايل سولاندو. وجدناها بعد ظهر اليوم. إنها هنا أيها السادة. مباشرة خارج هذا الباب، في آخر الممر".

نظر تيدي وتشاك فوق كتفيهما إلى الباب.

"يمكنكما الاسترخاء الآن، أيها المارشلان. لقد انتهى بحثكما".

11

رافقهما كاولي ونايهرينغ في رواق مبلّط بالأسود والأبيض، وعبر مجموعة من الأبواب المزدوجة، وصولاً إلى جناح المستشفى الرئيس. مرّوا أمام مكتب الممرضات إلى اليسار، واستداروا إلى اليمين نحو غرفة كبيرة، فيها مصابيح فلورية طويلة، وقضبان ستائر على شكل U، متدلية من علاقات في السقف، وها هي، جالسة على سرير، في ثوب أخضر شاحب يصل مباشرة إلى فوق ركبتيها، فيما شعرها الداكن مغسول حديثاً، وممشط إلى الخلف، بعيداً عن جبينها.

قال كاولي: "راشايل. جاءنا بعض الأصدقاء. أتمنى ألا تمانعي".

سوّت حاشية ثوبها، تحت فخذيها، ونظرت إلى تيدي وتشاك، مثل الولد الذي يتوقع شيئاً ما.

لا توجد علامة عليها.

بشرتها بلون الحجر الرملي. لا خدوش أبداً، على وجهها وذراعيها، وساقيها. قدماها حافيتان. وكانت بشرتهما خالية من الخدوش، غير محتكة بالأغصان، أو الأشواك، أو الصخور.

سألت تيدي: "كيف أستطيع مساعدتكما؟".

"سولاندو، نحن هنا لـ...".

"لبيع شيء ما؟".

"سيدتي!".

"أتمنى ألا تكونا هنا، لبيع شيء ما. لا أريد أن أكون فظة، لكن زوجي هو الذي يتخذ كل هذه القرارات".

"لا سيدتي. لسنا هنا لبيع أي شيء".

"حسناً، هذا جيد إذاً. ما الذي أستطيع فعله لكما؟".

"هل يمكنك أن تقولي لنا أين كنت البارحة؟".

"كنت هنا. كنت في المنزل". نظرت إلى كاولي. "من هما هذان الرجلان؟".

قال كاولي: "إنهما ضابطان في الشرطة، راشايل".

"هل حدث أي شيء لجيم؟".

قال كاولي: "لا. لا، جيم بخير".

"ولا للأولاد". نظرت حولها. "إنهم يلعبون في الحديقة. لم يرتبكوا أي حماقة، أليس كذلك؟".

قال تيدي: "آنسة سولاندو، لا. أولادك ليسوا في ورطة وزوجك بخير". نظر إلى كاولي وأومأ كاولي برأسه دليل الموافقة. "لقد سمعنا للتو، أوه، أن مخرّباً معروفاً جاء إلى المنطقة البارحة. شوهد في شارعكم يوزع مناشير حول الشيوعية".

"أوه، يا الله، لا. للأولاد؟!".

"ليس حسب علمنا".

"لكن، في هذه المنطقة؟! في هذا الشارع؟!".

قال تيدي: "أخشى ذلك، سيدتي. أتمنى أن تخبرينا، أين كنت البارحة، بحيث نعرف إذا صادفت الرجل الذي نتحدث عنه؟".

"هل تتهمانني أنني شيوعية؟". ابتعد ظهرها عن الوسادات، وأمسكت الشرشف بقبضتي يديها.

وجّه كاولي نظرة إلى تيدي تقول: لقد حفرت الحفرة. اعثر على طريقك للخروج منها.

"شـــيوعية، سيدتي، أنت! أي رجل عاقل يمكن أن يفكر هكذا؟ أنت أميركية بقدر بيتي غرابل. وحده الرجل الأعمى، لا يدرك ذلك".

أفلـــتت الشرشف من قبضة إحدى يديها، وفركت بها ركبتها.

"لكنني لا أبدو مثل بيتي غرابل".

"فقـــط في وطنيتك الواضحة. لا، أقول إنك تشبهين أكثر تيريزا رايت، سيدتي. ما كان اسم الفيلم الذي تشاركت بطولته مع جوزف كاتون قبل عشرة أعوام، أو اثني عشر عاماً؟".

قالـــت "*ظلال الشك*. لقد سمعت به". وكانت ابتسامتها جذابة ومغـــرية في الـــوقت نفـــسه. "حارب جيم في تلك الحرب. عاد إلى المنـــزل، وقال *إن العالم حرّ الآن، لأن الأميركيين حاربوا لأجله، ورأى العالم بكامله، أن الطريقة الأميركية هي السبيل الوحيد*".

قال تيدي: "آمين. أنا أيضاً شاركت في تلك الحرب".

"هل تعرفت إلى جيم؟".

"أخشى أنني لم أتعرف إليه، سيدتي. أنا واثق من أنه رجل رائع. كان في الجيش؟".

فركت أنفها، عند سماع ذلك وقالت: "في المارينـــز".

قـــال تيدي: "رائع. سولاندو، من المهم أن نعرف كل خطوة قام بها ذلك المخرّب البارحة. يحتمل أنك لم ترينه. إنه محتال. لذا، نريد أن نعـــرف مـــاذا فعلتِ، بالتحديد، لكي نتمكن من مطابقة ذلك مع ما نعرفه عن مكان وجوده، بحيث نرى إذا صادفتما بعضكما".

"مثل السفن في الليل".

"بالضبط. فهمت إذاً؟".

"أوه، طــبعاً". جلــست على السرير، ووضعت ساقيها تحتها، وأحسّ تيدي بحركاتها في معدته وبين...

قال لها: "أخبريني إذاً، عن يومك".

"حــسناً، فلنرَ. حضّرت الفطور لجيم والأولاد، ثم وضّبت غداء جــيم قبل أن يغادر، وبعدها أرسلت الأولاد إلى المدرسة، ثم قررت أن أسبح طويلاً في البحيرة".

"هل تفعلين ذلك غالباً؟".

"لا". قالت وهي تنحني إلى الأمام وتضحك، كما لو أنه غازلها: "لا أعرف، لكنني شعرت بالقليل من الكآبة. تعرف كيف تكون الحال أحياناً. تشعر فقط بالقليل من الكآبة".

"طبعاً".

"حسناً هكذا شعرت. لذا، خلعت ملابسي، وسبحت في البحيرة إلى أن تخشبت ذراعاي وساقاي. كانت ثقيلة جداً، فخرجت من الماء، وجففت جسمي، وارتديت ملابسي على الفور، وقمت بنــزهة على الــشاطئ. والــتقطتُ بعض الحجارة، وشيّدت بعض القصور الرملية الصغيرة. صغيرة".

سأل تيدي "هل تذكرين عددها؟". وشعر أن كاولي يحدّق إليه.

فكّرت في الأمر، ووجهت عيناها صوب السقف قائلة: "نعم".

"كم عددها؟".

"ثلاثة عشر".

"هذا عدد قليل".

قالت: "بعضها كان صغيراً جداً. بحجم فنجان الشاي".

"وماذا فعلت بعدها؟".

قالت له: "فكّرت فيك".

رأى تيدي نايهرينغ ينظر إلى كاولي، من الجهة الأخرى للسرير. نظـــر تيدي إلى نايهرينغ، ورفع نايهرينغ يديه، كما لو أنه متفاجئ مثل الجميع.

قال تيدي: "لماذا أنا؟".

كشفت ابتسامتها عن أسنان بيضاء، مرصوفة قرب بعضها بعضاً، باســتثناء طـــرف أحمر صغير للسان مقحوم بينها. "لأنك جيم، أيها السخيف. أنت جنديّي". نهضت على ركبتيها، وتمددت، وأمسكت يد تـــيدي بيدها، وداعبتها. "خشنة جداً. أحب خشونتها عند احتكاكها ببشرتي. اشتقت إليك، جيم. لا تأتي أبداً إلى المنـــزل".

قال تيدي: "أنا أعمل كثيراً".

"اجلس". أمسكت بذراعه.

أومـــأ له كاولي بالتقدم نحوها، فسمح تيدي لنفسه بالجلوس على السرير. جلس قربها. لقد اختفى السبب الذي أثار الذهول في عينيها، في الـــصورة الفوتوغـــرافية، على الأقل مؤقتاً، ويستحيل، عند الجلوس قـــربها إلى هـــذه الدرجة، عدم ملاحظة كم هي جميلة! كان الانطباع الإجمـــالي الذي تولّده عذباً. عينان داكنتان تسطعان، مع نظرة صافية مـــثل المـــاء، حركات بطيئة في جسمها، جعلت أطرافها تبدو وكأنها تسبح في الهواء، ووجه ممتلئ بنعومة في الشفتين والذقن.

قالت: "أنت تعمل كثيراً". ومررت أصابعها فوق المساحة الممتدة مباشرة، تحت حنجرته، كما لو أنها تسوّي طيّة، في عقدة ربطة عنقه.

قال تيدي: "توجب عليّ إحضار اللحم إلى المنـــزل".

قالـــت "أوه، نحـــن بخير". وأحسّ بتنفسها على عنقه. "لدينا ما يكفي".

قال تيدي: "للوقت الحاضر. أفكر في المستقبل".

قالت راشايل: "لم أره أبداً. هل تذكر ما كان والدي يقوله؟".

"لقد نسيت".

مشطت الشعر عند صدغه بأصابعها. "المستقبل هو شيء تدّخره، كـــان يقـــول. أنـــا أدفع نقداً". وجّهت إليه ضحكة صغيرة، وانحنت بالقرب منه، إلى درجة استطاع الإحساس بنهديها على متن كتفيه. "لا صـــغيري، علينا العيش لليوم. للآن". هذا ما كانت تقوله دولوريس. كما أن الشفتين والشعر لهما الشكل نفسه، لدرجة، أنه لو اقترب وجه راشـــايل أكثر، لتمت مسامحته على الظن أنه يتحدث إلى دولوريس. حـــتى إنهمـــا تملكان الجاذبية المرتعشة نفسها، والتي لا يعرف تيدي – بالـــرغم مـــن كل سنواتهما معاً – ما إذا كانت زوجته مدركة حتى لتأثيرها.

حاول تذكر ما يفترض به سؤالها. عرف أنه يفترض به إعادتها إلى الـــسكة. وجعلـــها تخبره عن يومها البارحة، كيف كان، وماذا حصل بعدما مشت على الشاطئ وشيّدت القصور.

قال لها: "ماذا فعلت بعدما سرت قرب البحيرة؟".

"تعرف ماذا فعلت".

"لا".

"أوه، تريد سماعه مني وأنا أقوله؟ أليس كذلك؟".

انحنت إلى الأمام بحيث بات وجهها قليلاً، تحت وجهه، وحدّقت تلك العينان الداكنتان إلى الأعلى، فيما الهواء الخارج من فمها دخل إلى فمه.

"ألا تذكر؟".

"لا أذكر".

"كاذب".

"أنا جاد".

"لست كذلك. إذا نسيت ذلك، جايمس سولاندو، فإنك تبحث عن مشكلة".

همس تيدي: "إذاً، أخبريني".

"تريد فقط سماع ذلك".

"أريد فقط سماع ذلك".

مررت راحة يدها فوق عظم وجنته، وعلى ذقنه، وأصبح صوتها أكثر خشونة حين تحدثت:

"عدت مبللة من البحيرة، ولعقتني حتى جففتني".

وضع تيدي يديه على وجهها، قبل أن تغلق المسافة الفاصلة بينهما. انزلقت أصابعها على صدغيه، وأحسّ برطوبة شعرها على إبهاميه فنظر إلى عينيها.

همس لها: "أخبريني أيضاً، ماذا فعلت البارحة؟". ورأى شيئاً يكافح الصفاء في عينيها. الخوف، إنه واثق تماماً. ثم ظهر الخوف على شفتها العلوية، والبشرة التي بين حاجبيها. أحسّ بالارتعاشات في لحمها.

فتشت في وجهه، واتسعت عيناها، وتحركتا من جهة إلى أخرى في محجريهما.

قالت: "لقد دفنتك".

"لا، أنا هنا".

"دفنتك. في تابوت فارغ، لأن جسمك تطاير فوق كل شمال الأطلسي. دفنت صفائحك المعدنية لأنها كل ما استطاعوا العثور عليه. جسمك، جسمك الجميل، احترق، وأكلته أسماك القرش".

قال كاولي: "راشايل".

قالت: "مثل اللحم".

قال تيدي: "لا".

"مثل اللحم الأسود، المحترق جداً".

"لا، لم يكن هذا أنا".

"لقد قتلوا جيم. جيم خاصتي مات. فمن أنت، إذاً؟".

أفلتت من قبضته، وتراجعت على السرير نحو الجدار، واستدارت للنظر إليه.

"من هذا بربكم؟". أشارت إلى تيدي وبصقت عليه.

لم يستطع تيدي التحرك. حدّق إليها، في الغضب الذي اجتاح عينيها، مثل الموجة.

"كنت ستقيم علاقة حميمة معي، أيها البحار! أليس كذلك؟ فيما أولادي يلعبون في الفناء الخارجي. هل كانت هذه خطتك؟ اخرج من هنا أيها اللعين! هل تسمعني؟ اخرج من هنا...".

اقتربت منه بسرعة، مع يد فوق رأسها، فقفز تيدي عن السرير، ومرّ بسرعة أمامه حارسان يضعان أحزمة جلدية، سميكة على كتفيهما، وأمسكا براشايل من تحت ذراعيها، وألقيا بها على السرير.

أحسّ تيدي بالارتعاشات في جسمه، بالعرق المتصبب من مسامه، وانفجر صوت راشايل عبر الجناح:

"أيها المغتصب! أيها الوحش المغتصب! سيأتي زوجي ويقتلع حنجرتك! هل تسمعني؟ سيقطع رأسك اللعين وسنشرب دمك! سنستحمّ به، أيها الحقير اللعين!".

انقضّ حارس فوق صدرها، فيما أمسك الحارس الآخر بكاحليها بقبضة قوية وثبّتا الأحزمة في مشابك حديدية في قضبان السرير، ثم شبكا الأحزمة فوق صدر راشايل وكاحليها، وأدخلاها في المشابك

الموضوعة في الجهة الأخرى من السرير، وشدّا الأحزمة بإحكام وثبّتاها، وأصـــدرت المـــشابك صـــوتاً قوياً عند إقفالها، وتراجع الحارسان إلى الخلف.

قال كاولي: "راشايل". وكان صوته رقيقاً وأبوياً.

"أنـــتم جميعاً مغتصبون لعينون. أين هم أطفالي؟ أين هم أطفالي؟ أعيدوا إليّ أطفالي، يا أولاد العاهرات! أعطوني أطفالي!".

أطلقـــت صـــرخة عالـــية، اخترقت العمود الفقري لتيدي، مثل الرصاص، وثارت في قيودها بقوة كبيرة، لدرجة اهتزّت قضبان السرير، وقال كاولي: "سنعود لنراك لاحقاً، راشايل".

بصقت عليه، وسمع تيدي صوت سقوط البصقة على الأرض، ثم صـــرخت مجـــدداً، وكان هناك دم على شفتها، في المكان الذي يفترض أنها قضمته، وأومأ لهما كاولي، وبدأ بالمشي فانطلقا وراءه، ونظر تيدي إلى الخلف، فوق كتفه، فرأى راشايل تراقبه، تنظر إليه مباشـــرة إلى العينين، وقوّست كتفيها بعيداً عن الفرشاة، وانتفخت الـــشرايين في عنقها، وامتلأت شفتاها بالدم واللعاب، فيما صرخت فـــيه، صرخت، كما لو أنها رأت رأس ميت يتسلق نافذتها ويتوجه نحو سريرها.

ثمـــة مشرب في مكتب كاولي، توجّهوا إليه. ما إن دخلوا، حتى اســـتدار كاولي إلى اليمين، فأضاعه تيدي، لفترة وجيزة. اختفى وراء غشاء من الضباب الأبيض، وقال تيدي لنفسه:

لا، ليس الآن. ليس الآن بالله عليكم.

قال تيدي: "أين عثرتم عليها؟".

"على الشاطئ، قرب المنارة. ترمي الحجارة في المحيط".

عاد كاولي للظهور مجدداً، لأن تيدي أدار رأسه إلى اليسار، فيما تابـع كاولي طريقه، إلى اليمين. حين برم تيدي رأسه، غطى الضباب مكتـبة في الجدار، ومن ثم النافذة. فرك عينه اليمنى، محاولاً دحض كل الأدلـة، لكـن الأمـر لم يجدِ نفعاً، ثم شعر به، في الجهة اليسرى من رأسـه – وادٍ ضيق مليء بالحمم المتدفقة عبر الجمجمة، مباشرة تحت شعره – ظن أنه سمع صراخ راشايل هنا، الضجيج الغاضب، لكن الأمر تعدى ذلك، وانفجر الألم، مثل عشرات السيوف التي انغرزت ببطء في جمجمته، فجفل ورفع أصابعه إلى صدغيه.

"أيها المارشال؟!". نظر إلى الأعلى ليرى كاولي، في الجهة الأخرى من مكتبه، مع ضباب إلى يساره.

نجح تيدي في القول: "نعم؟".

"تبدو شاحباً جداً".

"هل أنت بخير سيدي؟". أصبح تشاك قربه فجأة.

قـال تـيدي: "بخير". ووضع كاولي كأس الشراب الاسكتلندي على المكتب، فكان الصوت أشبه بصوت طلقة المسدس.

قال كاولي: "اجلس".

قال تيدي: "أنا بخير". لكن الكلمات شقت طريقها من دماغه إلى لسانه، عبر سلم مليء بالأشواك.

طقطقـت عظـام كـاولي مثل الخشب المحترق، فيما انحنى على المكتب أمام تيدي. "صداع الشقيقة؟".

نظر تيدي إلى شكله الضبابـي. أراد الإيماء برأسه، لكن التجربة الـسابقة علّمـته ألا يومـئ أبداً خلال هذه النوبات. "نعم". نجح في القول.

"عرفت ذلك، من طريقة فركك لصدغيك".

"أوه".

"هل تعاني منها غالباً؟".

"نصف دزينة...". أصبح فم تيدي جافاً، واحتاج إلى بضع ثوانٍ لإعادة بعض الرطوبة إلى لسانه. "... في السنة".

قال كاولي: "أنت محظوظ في جانب واحد، على كل حال".

"وكيف ذلك؟".

"الكثير من المصابين بصداع الشقيقة يعانون من الصداع العنقودي، مرة أسبوعياً تقريباً". أصدر جسمه صوت الخشب المحترق، مجدداً، فيما نهض عن المكتب، وسمعه تيدي يفتح خزانة.

سأل تيدي: "ماذا تعاني؟ فقداناً جزئيًّا للرؤية، جفافاً في الفم، ناراً في الرأس؟".

"برافو".

"درسنا الدماغ، طوال قرون عدة، ولم يعرف أحد من أين تأتي. هل تصدق ذلك؟ نعرف أنها تهاجم الفص الجداري عادة. نعرف أنها تسبب تخثراً للدم. إنها أمور متناهية الصغر، لكنها تحصل في شيء دقيق، وصغير، هو الدماغ. ويعاني المرء من انفجارات. لكن، طوال هذا الوقت، ومع كل هذه الدراسات، لا يعرف أحد السبب، أو التأثيرات طويلة الأمد للتصرفات التي نعتمدها لوقف الزكام الشائع".

أعطاه كاولي كوباً من الماء، ووضع حبتين صفراوتين في يده. "يفترض بهاتين أن تجديا نفعاً. قد تنام لساعة أو ساعتين، لكن حين تستيقظ، يفترض أن تكون بخير. عقلك صافٍ تماماً".

نظر تيدي إلى الحبتين الصفراوتين، وإلى كوب الماء العالق في قبضة محفوفة بالمخاطر.

نظـــر إلى كاولي، وحاول التركيز بعينه الجيدة، لأن الرجل بات مغطى بضوء أبيض جداً وقاسٍ كثيراً، بحيث غطى كتفيه وذراعيه.

مهما فعلت، بدأ صوت يقول في رأس تيدي...

انغرزت مسامير في الجهة اليسرى من جمجمته، وسُكب دفقٌ من المسامير الصغيرة هناك، وصفّر تيدي فيما استنشق الهواء.

"يا الله، سيدي!".

"سيكون بخير أيها المارشال".

جرّب الصوت مجدداً: مهما فعلت، تيدي...

أدخـــل أحـــدهم قضيباً فولاذياً في كومة المسامير الصغيرة، وضغط تيدي بمتن يده على عينه الجيدة فيما انهمرت الدموع منها، وتمايلت معدته.

... لا تأخذ هذه الحبوب.

تـــوجهت معدته جنوباً، وانـــزلقت عبر وركه الأيمن، فيما لعق اللهب جوانب الشقوق في رأسه، وإذا ساءت الأمور أكثر، كان واثقاً، من أنه سيعضّ لسانه.

لا تأخـــذ تلـــك الحبوب اللعينة، صرخ الصوت، وركض جيئة وذهاباً في الوادي المحترق، ملوّحاً بعلم، راكضاً أمام الحشود.

أخفض تيدي رأسه، وتقيأ على الأرض.

"سيدي، سيدي. هل أنت بخير؟".

قال كاولي: "أوه، أوه. تعاني من نوبة سيئة".

رفع تيدي رأسه.

لا...

أصبحت وجنتاه مبللتين بدموعه.

... تأخذ...

غرز أحدهم شفرة بالطول في الوادي.

... تلك...

بدأت الشفرة تتحرك جيئة وذهاباً.

... الحبوب.

صك تيدي أسنانه، وأحسّ بمعدته تثور مجدداً. حاول التركيز على الكوب في يده، ولاحظ شيئاً غريباً على إبهامه، وقال إنه، بلا شك، صداع الشقيقة الذي يؤثر في إدراكه.

لا تأخذ هذه الحبوب.

تمرير جديد لأسنان المنشار عبر طيات دماغه، وتوجب على تيدي كبت صرخة، وسمع صراخ راشايل هناك، مع النار، ورآها تنظر في عينيه، وأحسّ بنَفسها على شفتيه، وأحسّ بوجهها بين يديه فيما داعب إبهاماه صدغيها، وعاد ذلك المنشار اللعين للتحرك جيئة وذهاباً عبر رأسه؛ لا تأخذ هذه الحبوب.

ووضع راحة يده على فمه، وأحسّ بالحبتين تدخلان إلى هناك، فيما تدفق الماء خلفهما وابتلعهما، وأحس بهما تنزلقان عبر المريء، وشرب من كوب الماء حتى فرغ.

قال كاولي: "ستشكرني".

كان تشاك بقربه مجدداً، وأعطى تيدي منديلاً، فمسح تيدي جبينه به، ثم مسح فمه، وأفلته على الأرض.

قال كاولي: "ساعدني على حمله أيها المارشال".

رفعا تيدي عن الكرسي، وبرماه بحيث استطاع رؤية باب أسود أمامه.

قال كاولي: "لا تخبر أحداً، لكن، ثمة غرفة هناك، آخذ فيها قيلولاتي أحياناً. أوه، حسناً، مرة يومياً. سنضعك هناك أيها المارشال، وستنام. بعد ساعتين من الآن، ستكون بأفضل حالاتك".

رأى تيدي يديه تنـــزلقان عن كتفيهما. بدوَا مضحكين؛ وتدلّت يداه فوق عظم صدره. والإبهامان، كشفا عن ذلك التمويه البصري. ما هـــذا؟ تمنى لو أنه يستطيع حكّ البشرة، لكن كاولي بات يفتح الباب الآن، ونظر تيدي مرة أخرى إلى البقع على الإبهامين.

بقع سوداء!

ملمّع أحذية، قال لنفسه، فيما أدخلاه إلى الغرفة الداكنة.

كيف وصل ملمع الأحذية إلى إبهاميّ؟

12

كانت من أسوأ الكوابيس التي عرفها.

بـــدأت مع تيدي يمشي عبر شوارع هال، شوارع اجتازها مرات لامتناهـــية، من الطفولة إلى الرجولة. مرّ أمام مدرسته القديمة. مرّ أمام المتجـــر الصغير، الذي كان يشتري منه العلكة، والصودا القشدية. مرّ أمـــام منـــــزل ديكرســـون، ومنـــزل باكاسكي، وموراي، وبويد، وفيـــنون، وكونستانتين. لكن، ما من أحد في منـــزله. لم يعد أي أحـــد موجـــوداً. أصبحت فارغة، البلدة بأكملها. وهادئة جداً. لم يستطع حتى سماع المحيط، بالرغم من أنه يمكنك دوماً سماع المحيط في هال.

هذا مريع؛ بلدته، ورحيل الجميع. جلس على السور البحري على طـــول جادة المحيط؛ وفتش في الشاطئ الفارغ، وجلس، وانتظر، ولكن لم يـــأتِ أحـــد. أدرك أنهم ماتوا جميعاً، قبل زمن طويل وبعيد. كان شبحاً، عاد عبر القرون إلى بلدته الشبح. لم تعد موجودة أصلاً. لم يعد موجوداً أصلاً. لا يوجد أحد هنا.

وجـــد نفسه بعد ذلك في قاعة رخامية كبيرة، مليئة بالأشخاص والحمّـــالات وأكياس المصل الحمراء فشعر فوراً بالتحسن. أينما كان هـــذا، ليس لوحده. ثلاثة أولاد – صبيان وفتاة – مرّوا أمامه. ارتدوا أثواب مستشفى، وكانت الفتاة خائفة. أمسكت بيدي أخويها. قالت: "إنها هنا. ستجدنا".

انحنى آندرو لايديز وأشعل سيجارة تيدي. "هاي، لا مشاعر سيئة، صحيح يا صديقي؟".

كان لايديز عيّنة مقيتة من البشرية – جسم مشوّه، رأس متدلٍ مع ذقن ناتئة، أطول مرتين مما كانت، أسنان مشوهة، بقع من الشعر الأشقر على جمجمة وردية – لكن تيدي سُرّ برؤيته. كان الوحيد الذي يعرفه في الغرفة.

قال لايديز: "أحضروا لي قنينة، إذا، أردت الشرب لاحقاً". غمز تيدي، وأدار ظهره، واستدار نحو تشاك، وبدا ذلك طبيعياً جداً.

قال تشاك: "علينا الذهاب. بدأت الساعة تتكتك هنا يا صديقي".

قال تيدي: "بلدتي فارغة. ما من أحد فيها".

وبدأوا بالركض لأنها أصبحت هنا، راشايل سولاندو، تصرخ فيما تركض عبر الغرفة الكبيرة مع ساطور كبير. وقبل أن يتمكن تيدي من الوصول إليها، أمسكت بالأولاد الثلاثة، وراح الساطور يتحرك صعوداً ونزولاً، صعوداً ونزولاً، وتجمّد تيدي، مذهولاً فعلياً، مدركاً أنه لا يستطيع فعل أي شيء في هذه المرحلة، لأن هؤلاء الأولاد ماتوا.

نظرت راشايل إليه. كان وجهها وعنقها ملطخين بالدماء. قالت: "ساعدني".

قال تيدي: "ماذا؟ سأقع في مشكلة".

قالت: "ساعدني وسأكون دولوريس. سأكون زوجتك. ستعود لك".

قال لها: "موافق" وساعدها. رفعا الأولاد الثلاثة دفعة واحدة، نوعاً ما، ونقلاهم عبر الباب الخلفي إلى الأسفل نحو البحيرة، ووضعاهم

في الماء. من دون رميهم. كانا لطيفين. وضعا الأولاد على الماء وغرق الأولاد. عاد أحد الصبيين للارتفاع مجدداً، مع يد معقوفة، وقالت راشايل: "لا بأس. لا يستطيع السباحة".

وقفا على الشاطئ، وشاهدا الصبي يغرق، ووضعت ذراعها حول خصر تيدي وقالت: "ستكون جيم خاصتي وسأكون دولوريس خاصتك. سننجب، أطفالاً جدداً".

بدا هذا حلاً مثالياً تماماً، وتساءل تيدي لماذا لم يفكر فيه أبداً من قبل.

لحق بها إلى آشكليف، والتقيا بتشاك ومشوا، هم الثلاثة في رواق طويل، امتد لمسافة ميل كامل. قال تيدي لتشاك: "إنها تأخذني إلى دولوريس. سأذهب إلى منزلي يا صديقي".

قال تشاك: "هذا رائع. أنا مسرور. لن أغادر أبداً هذه الجزيرة".

"لا؟".

"لا، لكن لا بأس سيدي. فعلاً. أنا أنتمي إلى هنا. هنا موطني".

قال تيدي: "موطني راشايل".

"تقصد دولوريس".

"صحيح، صحيح. ماذا قلت؟".

"قلت راشايل".

"أوه، آسف بشأن ذلك. هل تظن فعلاً أنك تنتمي إلى هنا؟".

أومأ تشاك برأسه. "لم أغادر أبداً. لن أغادر أبداً. أقصد، أنظر إلى يديّ، سيدي".

نظر تيدي إليهما. رآهما ناعمتين تماماً. قال له ذلك.

هزّ تيدي رأسه. "لا تنطبقان. تتحول الأصابع أحياناً إلى فئران".

"حسناً، أنا مسرور إذاً، لأنك في موطنك".

"شـــكراً سيدي". أدار ظهره، ونظر إلى كاولي وراشايل اللذين أصبحا بعيدين عنهما، نوعاً ما، وبدأ تيدي يمشي بسرعة مضاعفة.

قال كاولي: "لا يمكنك أن تحب امرأة قتلت أولادها".

قال تيدي وهو يمشي أسرع: "بلى أستطيع. لكنك لا تفهم".

"مـــاذا؟". لم يكـــن كاولي يحرّك ساقيه، لكنه بقي بمحاذاة تيدي تماماً. "ما الذي لا أفهمه؟".

"لا أستطيع أن أكون لوحدي. لا أستطيع مواجهة ذلك. ليس في هذا العالم اللعين. أحتاج إليها. إنها دولوريس خاصتي".

"إنها راشايل".

"أعـــرف ذلك. لكننا عقدنا اتفاقاً. ستكون دولوريس خاصتي. وسأكون جيم خاصتها. إنها صفقة جيدة".

قال كاولي: "أوه، أوه".

عـــاد الأولاد الـــثلاثة وهـــم يركضون في الرواق نحوهم. كانوا مبللين، وكانوا يصرخون، فيما رؤوسهم منـــزوعة.

قال كاولي: "أي أم تفعل ذلك؟!".

شـــاهد تـــيدي الأولاد يركضون في مكانهم. مرّوا أمامه وأمام كاولي، ثم تغير الهواء، أو شيء ما لأنهم ركضوا، وركضوا، ولكنهم، لم يتحركوا أبداً إلى الأمام.

قال كاولي: "تقتل أولادها!".

قال تيدي: "لم تقصد ذلك. إنها فقط خائفة".

قال كاولي: "مثلي؟". لكنه لم يعد كاولي. أصبح بيتر برين. "إنها خائفة، ولذلك تقتل أولادها فتصبح الأمور جيدة؟".

"لا. أقصد نعم. لا أحبك بيتر".

"ماذا ستفعل حيال ذلك؟".

وضع تيدي مسدس الخدمة على صدغ بيتر.

قـــال تـــيدي: "هـــل تعرف عدد الأشخاص الذين أعدمتهم؟". وكانت الدموع تنهمر على وجهه.

قال بيتر: "حسناً، لا تفعل. أرجوك".

ضغط تيدي على الزناد، ورأى الرصاصة تخرج من الجهة الأخرى لـــرأس برين، وشاهد الأولاد الثلاثة كل شيء، وبدأوا يصرخون الآن مـــثل المجانين فقال بيتر: "اللعنة!". اتكأ على الجدار، وأمسك بيده على جرح الدخول. "أمام الأولاد؟!".

وسمعوها، سمعوا صراخاً خرج من الظلمة أمامهم، صراخها هي، إنها آتية. إنها هناك في مكان ما في الظلمة، كانت تركض نحوهم بكل سرعتها، وقالت الفتاة الصغيرة: "ساعدنا".

"لست والدكم. ليس هذا مكاني".

"سأناديك بابا".

قال تيدي: "جيد". مع تنهيدة، وأخذ يدها.

مشيا في الأجراف المطلة على شاطئ الجزيرة، ثم تجولا في المقابر، ووجد تيدي رغيف خبز وبعض زبدة الفول السوداني والهلام، فحضّر سندويـــشات في المقبرة، وكانت الفتاة الصغيرة سعيدة جداً، جالسة في حضنه، تأكل سندويشها، وأخذها تيدي معه إلى فناء المقبرة، وأشار إلى مدفن والده ومدفن والدته ومدفنه:

إدوارد دانيالز

بحار سيئ

1957-1920

سألت الفتاة: "لماذا أنت بحار سيئ؟".

"لا أحب الماء".

"وأنا أيضاً لا أحب الماء. يجعلنا ذلك صديقين".

"أظن ذلك".

"أنت ميت. حصلت على لا أعرف ماذا".

"مدفن".

"نعم".

"إذاً، أظن أنني ميت. لا يوجد أحد في بلدتي".

"أنا ميتة أيضاً".

"أعرف. آسف بشأن ذلك".

"لم تمنعها".

"ومـــا الذي كنت أستطيع فعله؟ حين وصلت إليها، كانت قد، تعرفين...".

"أوه، يا الله!".

"ماذا؟".

"لقد عادت مجدداً".

ثم ظهرت راشايل تمشي في فناء المقبرة قرب المدفن. لقد تاه تيدي في العاصفة. أخذت وقتها. كانت جميلة جداً، فيما شعرها مبلل نتيجة المطر، واستبدلت الساطور بفأس له مقبض طويل وجرّته قربها وقالت: "هيا تيدي. إنهم لي".

"أعرف. لكنني لا أستطيع إعطاءك إياهم".

"سأكون مختلفة هذه المرة".

"كيف؟".

"أنا بخير الآن. أعرف مسؤولياتي. أصبح رأسي جيداً".

بكى تيدي قائلاً: "أحبك كثيراً".

"وأنـــا أحـــبك أيضاً صغيري. فعلاً". جاءت وقبّلته، قبّلته فعلاً، ووضـــعت يديها على وجهه، وانـــزلق لسانها فوق لسانه، وصدر تأوه خفـــيف مـــن حنجرتها، ودخل إلى فمه، فيما قبّلته بقوة أكبر وأكبر وأحبها كثيراً.

قالت: "والآن أعطني الفتاة".

أعطاهـــا الفـــتاة، فأمسكت الفتاة بذراع واحدة، ورفعت الفأس باليد الأخرى وقالت: "سأعود فوراً، اتفقنا؟".

قال تيدي: "طبعاً".

لـــوّح للفتاة، مدركاً أنها لا تفهم. لكنها ستكون المرة الأخيرة. عرف ذلك. عليك اتخاذ قرارات صعبة حين تكون راشداً، قرارات ربما لا يـــستطيع الأولاد فهمها. لكنها تتخذها نيابة عن الأولاد. واستمرّ تـــيدي في التلويح، بالرغم من أن الفتاة لم تلوّح، فيما أخذتها أمها نحو المقـــبرة، ونظرت الفتاة الصغيرة إلى تيدي، وتوسلت الإنقاذ في عينيها، مستـــسلمة لهـــذا العالم، لهذه التضحية، فيما لا يزال فمها مليئاً بزبدة الفول السوداني والهلام.

"أوه يـــا الله!". جلس تيدي. كان يبكي. شعر أنه أجبر نفسه على الاستيقاظ، مزق دماغه إلى الوعي لمجرد النهوض من هذا الحلم. أحسّ فيه، هـــناك، في دماغه، ينتظر، فيما الأبواب مشرّعة. كل ما عليه هو إغماض عينيه، وإرجاع رأسه إلى الخلف نحو الوسادة للعودة مباشرة إلى ذلك الحلم.

"كيف حالك أيها المارشال؟".

غمز بعينيه مرات عدة في الظلمة. "من يوجد هنا؟".

أشـــعل كاولي مصباحاً صغيراً. وقف قرب كرسيه في زاوية من الغرفة. "آسف. لم أقصد إخافتك".

جلس تيدي على السرير. "كم مضى على وجودي هنا؟".

وجّــه إليه كاولي ابتسامة اعتذار. "كانت الحبوب أقوى قليلاً مما ظننت. نمت لأربع ساعات".

"اللعنة!". فرك تيدي عينيه بكعبــي يديه.

"كنت تعاني من الكوابيس أيها المارشال. كوابيس حقيقية".

قال تيدي: "أنا في مصح عقلي على جزيرة وسط إعصار".

قال كاولي: "تأثرت. أمضيت شهراً كاملاً هنا قبل أن أنعم بنوم هانئ في الليل. من دولوريس؟".

قال تيدي: "ماذا؟". وأنــزل ساقيه عن طرف السرير.

"بقيت تلفظ اسمها".

"فمي جاف".

أومــأ كاولي برأسه، وبرم جسمه على الكرسي، ورفع كوباً من الماء عن الطاولة قربه. أعطى الكوب إلى تيدي. "أخشى أن يكون هذا تأثيراً جانبياً. خذ".

أخذ تيدي الكوب، وشربه على دفعات.

"كيف حال رأسك؟".

تذكــر تــيدي سبب وجوده في هذه الغرفة أساساً، واحتاج إلى بــضع ثــوانٍ للاستيعاب. رؤية واضحة. لا ألم في الرأس. القليل من الغثــيان، ولكــن الأمر ليس سيئاً جداً. ألم خفيف في الجهة اليمنى من الرأس، مثل رضة تعود لثلاثة أيام، تماماً.

قال: "أنا بخير. كانت تلك حبوب".

"نسعى للإرضاء. من دولوريس؟".

قال تيدي: "زوجتي. إنها ميتة. ونعم، حضرة الطبيب، لا أزال لا أستوعب الأمر. هل هذا طبيعي؟".

"طبيعـــي جداً حضرة المارشال. وأنا آسف لخسارتك. هل ماتت فجأة؟".

نظر تيدي إليه وضحك.

"ماذا؟".

"لست فعلاً في مزاج لأخضع لتحليل نفسي، حضرة الطبيب".

شبك كاولي ساقيه عند الكاحلين، وأشعل سيجارة. "وأنا لا أحاول إزعاجك أيها المارشال. صدّق أو لا تصدق. لكن شيئاً ما حصل في تلك الغـــرفة الليلة مع راشايل. لم تكن فقط هي. أكون مهملاً في واجباتي، بصفتي معالجها، إذا لم أتساءل عن نوع الشياطين التي تحملها".

قال تيدي: "ماذا حصل في تلك الغرفة؟ كنت أؤدي الدور الذي أرادته مني".

قهقـــه كـــاولي قـــائلاً: "أنت تعرف نفسك أيها المارشال. من فضلك. لو تركناكما لوحدكما، هل تقول لي إننا كنا سنعود لرؤيتكما وأنتما ترتديان كل ثيابكما؟".

قال تيدي: "أنا أؤدي وظيفتي حضرة الطبيب. مهما ظننت أنك رأيت هناك، ليس هذا صحيحاً".

رفع كاولي يده قائلاً: "جيد. مثلما تريد".

قال تيدي: "مثلما أريد".

جلس، ودخّن، وتأمل تيدي، ودخّن المزيد، واستطاع تيدي سماع العاصفة خارجاً، واستطاع الإحساس بضغطها على الجدران، وشعر أنها تدخل عبر الفجوات تحت السقف، وبقي كاولي صامتاً ومتأملاً، وقال تيدي أخيراً:

"ماتـــت في حريق. أشتاق إليها مثلما... لو كنت تحت الماء، لما اشتقت إلى الأوكسيجين هكذا". رفع حاجبيه إلى كاولي. "راضٍ؟".

انحنى كاولي إلى الأمام، وأعطى تيدي سيجارة، وأشعلها له.

"أحببت امرأة ذات مرة في فرنسا. لا تخبر زوجتي، اتفقنا؟".

"طبعاً".

"أحببت هذه المرأة مثلما تحب... حسناً، لا شيء". قال وظهرت نبرة مفاجئة في صوته. "لا يمكنك مقارنة هذا النوع من الحب بأي شيء، هل يمكنك؟".

هزّ تيدي رأسه.

"إنه هدية فريدة". لحقت عينا كاولي الدخان المنبعث من سيجارته، وقد خرج أثره من الغرفة، فوق المحيط.

"ماذا كنت تفعل في فرنسا؟".

ابتسم، وهزّ إصبعه أمام تيدي.

قال تيدي: "آه".

"على كل حال، كانت هذه المرأة آتية للقائي ذات ليلة. كانت مستعجلة، حسبما أظن. كانت ليلة ممطرة في باريس. تعثرَت. هذا هو".

"ماذا؟".

"تعثرَت".

"و؟". حدّق تيدي إليه.

"ولا شيء. تعثرت. وقعت إلى الأمام. ضربت رأسها. ماتت. هل تصدق ذلك؟ كنّا في حرب كل الطرائق ممكنة ليموت فيها شخص. تعثرت".

استطاع تيدي ملاحظة الألم في وجهه، حتى بعد كل هذه السنوات، وعدم التصديق أنها ليست مزحة بشعة.

قال كاولي بهدوء: "أحياناً، أمضي ثلاث ساعات كاملة من دون التفكير فيها. أحياناً، أمضي أسابيع كاملة من دون تذكر رائحتها، تلك

النظـــرة التي كانت توجهها إليّ حين تعرف أننا وجدنا الوقت لنكون، وحـــدنا ذات لـــيلة، شعرها، الطريقة التي كانت تلعب به حين تقرأ. أحـــياناً...". أطفأ كاولي سيجارته. "أينما كانت روحها، إذا كانت هـــناك بوابة، لنقل، تحت جسمها، وانفتحت حين ماتت، وذهبت إلى هـــناك، لعدت إلى باريس غداً، لو كنت أعرف أن تلك البوابة ستفتح مجدداً وسأستطيع اللحاق بها".

قال تيدي: "ما كان اسمها؟".

قال كاولي: "ماري". واحتاج إلى جهد لمجرد قول ذلك.

مجّ تيدي سيجارته، وأخرج الدخان بكسل من فمه.

قـــال: "دولوريس، كانت تتقلب في نومها كثيراً، وكانت يدها، في ســـبعين بالمـــئة من الحالات، لا أمزح، ترتطم بوجهي. فوق فمي وأنفي. ضربة مدوية وها هي. كنت أبعدها، هل تعرف؟ بصعوبة كبيرة أحـــياناً. كـــنت نائماً بشكل رائع، ثم بوم، ها قد استيقظت. شكراً حبيـــبتي. لكن أحياناً كنت أتركها هناك. أقبّلها، أشمّها، أستنشقها. لو أستطيع فقط إعادة يدها فوق وجهي، أيها الطبيب؟ أبيع العالم من أجل ذلك".

قعقعت الجدران، وارتعد الليل بالريح.

راقب كاولي تيدي مثلما تراقب الأولاد في زاوية شارع مزدحم. "أنـــا جيد تماماً في ما أفعله، حضرة المارشال. أعترف أنني أناني. معدل ذكائـــي مـــرتفع جـــداً، ومـــنذ أن كنت ولداً صغيراً، أستطيع قراءة الأشـــخاص أفضل من أي كان. أقول ما أريد قوله من دون أن أقصد الإهانة، لكن، هل فكّرت يوماً في الانتحار؟".

قال تيدي: "حسناً، أنا مسرور لأنك لا تقصد إهانتي".

"لكن هل فكّرت فيه؟".

قـــال تـــيدي: "نعم. لهذا السبب، لم أعد أشرب الكحول أيها الطبيب".

"لأنك تعرف أن...".

"... أنها كانت قتلتني قبلاً لو ينفع ذلك".

أومأ كاولي برأسه قائلاً: "على الأقل لا تضلل نفسك".

قال تيدي: "نعم. على الأقل استوعبت ذلك".

قـــال كـــاولي: "حين تغادر هذا المكان، أستطيع إعطاءك بعض الأسماء، أسماء أطباء جيدين يستطيعون مساعدتك".

هـــزّ تيدي رأسه. "المارشالات الأميركيون لا يذهبون إلى أطباء للرأس. عذراً، فإذا تسرب الخبر، سيتم طردي من الخدمة".

"حسناً، حسناً. منطقي كفاية. لكن حضرة المارشال؟".

نظر تيدي إليه.

"إذا اســـتمريت في مسارك الحالي، ليست مسألة إذا. إنها مسألة متى".

"لا تعرف ذلك".

"بلـــى، بلى، أعرف. أنا متخصص في صدمات الحزن والشعور بالـــذنب لدى الناجين. أعاني من الشيء نفسه، ولذلك تخصصت في الشيء نفسه. رأيتك تنظر في عيني راشايل سولاندو قبل بضع ساعات، ورأيـــت رجـــلاً يـــريد الموت. مديرك، المسؤول عن المكتب الميداني؟ أخبرني أنك أفضل رجل لديه. قال إنك عدت من الحرب مع كمية من الميداليات كافية لملء صدر بأكمله. صحيح؟".

هزّ تيدي كتفه.

"قـــال إنـــك كنت في الأردين، وكنت جزءاً من قوة التحرير في داتشاو".

هزّ كتفه مرة أخرى.

"وحينها قُتِلت زوجتك؟ كم هو برأيك أيها المارشال مقدار الضغط الذي يستطيع الرجل تحمله قبل أن ينكسر؟".

قال تيدي: "لا أعرف أيها الطبيب. أنا أيضاً أتساءل عن الشيء نفسه".

انحنى كاولي عبر المسافة الفاصلة بينهما، ونقر على ركبة تيدي. "خذ هذه الأسماء مني قبل أن تغادر. اتفقنا؟ أودّ أن أجلس هنا بعد خمس سنوات من الآن، أيها المارشال، وأعرف أنك ما زلت في هذا العالم".

نظر تيدي إلى اليد الموضوعة على ركبته. ثم نظر إلى كاولي.

قال بهدوء: "وأنا أيضاً".

13

التقـــى بتـــشاك في الطابق الأرضي من مبنى نوم الرجال، حيث جمعـــوا أسرّة للجميع للخروج سالمين من العاصفة. للوصول إلى هنا، تـــوجب على تيدي عبور سلسلة من الممرات تحت الأرضية التي تربط كـــل المباني في المجمّع ببعضها بعضاً. رافقه حارس اسمه بين، وهو عبارة عن كتلة ضخمة من اللحم الأبيض، واجتاز أربع بوابات مقفلة وثلاث نقـــاط تفتيش محروسة برجال، وهنا، في الأسفل، لا يمكنك معرفة أن هـــناك عاصفة تهبّ في الخارج. كانت الممرات طويلة ورمادية ومضاءة بطريقة خافتة، لم يحب تيدي كثيراً مقدار الشبه بينها وبين الممرات التي رآها في حلمه. صحيح أنها ليست طويلة بهذا القدر، وليست مليئة ببقع مفاجئة من الظلمة، ولكنها رمادية وباردة بالطريقة نفسها.

شـــعر بالإحراج عند رؤية تشاك. لم يعانِ أبداً من نوبة صداع الشقيقة بهذه القوة أمام الآخرين من قبل، وشعر بالخجل حين تذكر كيف تقيأ على الأرض. كان عاجزاً جداً، مثل الطفل، واحتاج إلى من يرفعه عن الكرسي.

لكـــن حـــين نادى تشاك: "هاي سيدي". من الجهة الأخرى في الغـــرفة، تفاجـــأ لإحساسه بالكثير من الارتياح للقاء به مجدداً. طلب إجـــراء هذا التحقيق بمفرده، وتم رفض طلبه. في ذلك الوقت، أزعجه الأمر، لكن الآن، بعد يومين في هذا المكان، بعد المقبرة ونَفَس راشايل في فمـــه، وتلك الأحلام اللعينة، عليه الاعتراف أنه مسرور لأنه ليس وحده في هذه القضية.

تـــصافحا، وتذكر ما قاله له تشاك في الحلم: "لن أغادر أبداً هذه الجزيـــرة". وشـــعر تيدي بشبح عصفور أسود يمرّ أمام صدره ويصفق بجناحيه.

"كيف حالك سيدي؟". ربّت تشاك على كتفه.

وجّـــه إلـــيه تيدي ابتسامة خجولة. "أنا أفضل. مضطرب قليلاً، ولكنني جيد بشكل عام".

"اللعـــنة!". قـــال تـــشاك وهو يخفض صوته، ويبتعد قليلاً عن حارســـين يدخـــنان السجائر قرب عمود دعم. "لقد أخفتني سيدي. ظننت أنك تعرضت لنوبة قلبية، أو سكتة دماغية، أو ما شابه".

"مجرد صداع الشقيقة".

قـــال تـــشاك: "مجرد". أخفض صوته أكثر، وتوجها إلى الجدار الإسمـــنتي البـــيج، في الجهة الجنوبية من الغرفة، بعيداً عن بقية الرجال. "تعـــرف، ظننتُ أنك تتظاهر بالأمر في البداية، كما لو أن لديك خطة للوصول إلى الملفات أو ما شابه".

"ليتني كنت بهذا الذكاء".

نظر في عيني تيدي، وقد تلألأت عيناه. "لكن، خطرت لي فكرة".

"لا".

"بلى".

"ماذا فعلت؟".

"أخـــبرت كـــاولي أنني سأبقى معك. وفعلت. وبعد برهة، تلقى اتصالاً وغادر المكتب".

"هل فتشت في ملفاته؟".

أومأ تشاك برأسه.

"ماذا وجدت؟".

انخفـــض وجـــه تشاك. "حسناً، في الواقع ليس الكثير. لم أستطع الوصول إلى خزانات الملفات. لديه بعض الأقفال التي لم أشاهدها أبداً مـــن قـــبل. واخترت الكثير من الأقفال. كان في وسعي اختيار تلك الأقفال، لكنني كنت سأترك بصمات. تفهمني؟".

أومأ تيدي برأسه. "فعلت الشيء الصحيح".

"نعم، حسناً...". أومأ تشاك برأسه لحارس مرّ أمامهما، وأحسّ تيدي كما لو أنه تم نقلهما إلى فيلم قديم لكاغني، فيما الأشرار في الفناء الخلفي يخططون لهروبهم. "لكنني وصلت إلى مكتبه".

"ماذا؟".

قال تشاك: "هذا جنون، أليس كذلك؟ يمكنك ليّ معصمي لاحقاً".

"ليّ معصمك؟ إنك تستحق ميدالية!".

"لا ميدالية. لم أعثر على الكثير سيدي. فقط على روزنامته. لكن إلـــيك ما وجدته؛ *البارحة، اليوم، غداً، وبعد غد* كلها مشطوبة، هل تعرف؟ شطبها بالأسود".

قال تيدي: "الإعصار. سمع أنه آت".

هـــزّ تـــشاك رأسه. "كتب فوقً الخانات الأربع. هل تعرف ما أقصده. مثلما تكتب *عطلة في الكاب* كود. هل تفهمني؟".

قال تيدي: "طبعاً".

جـــاء تـــراي واشنطن إليهما، مع بحة في صوته، وقد غطى المطر رأسه وملابسه وقال: "أنتما تختبئان هنا، أيها المارشلان؟".

قال تشاك: "حزرت".

سأله تيدي: "هل كنت في الخارج؟".

"أوه نعـــم. العاصفة قوية الآن أيها المارشلان. كنا نطوق المجمع بأكمله بأكياس الرمل، ونثبت كل النوافذ. اللعنة. كل الأشياء تتساقط

فـــوق بعـــضها في الخارج". أعاد تراي إشعال سيجارة بواسطة قدّاحة زيبو، واستدار نحو تيدي. "هل أنت بخير أيها المارشال؟ سرت شائعة في المكان أنك تعرضت لنوبة ما".

"أي نوع من النوبات؟".

"أوه، الآن، وقـــد مـــضى على وجودك كل الليل، تحاول تصور سيناريوهات عدة للقصة".

ابتسم تيدي: "أعاني من صداع الشقيقة. من نوبات سيئة".

"لـــديّ عمة كانت تعاني من نوبات مريعة. كانت تحبس نفسها في غرفة نوم، وتطفئ الضوء، وتغلق الستائر، و لم يكن أحد يراها طوال أربع وعشرين ساعة".

"أتعاطف معها".

نفـــخ تراي دخان سيجارته. "حسناً، لقد ماتت قبل زمن بعيد، لكـــن، حين أصعد إلى الأعلى سأذكرها في صلواتي الليلة. كانت امرأة حقيرة، على كل حال، سواء أعانت من الصداع أم لا. كانت تضربني وأخـــي بواسطة قضيب كبير. أحياناً من دون سبب. كنت أقول لها: عمـــتي *مـــاذا فعلت؟* فتجيبني: *لا أعرف، لكنك تفكر في القيام بشيء فظيع*. ماذا تفعل مع امرأة كهذه؟".

بدا وكأنه ينتظر جواباً فعلاً، ولذلك قال تشاك: "الهروب بسرعة".

أطلـــق تيدي قهقهة خفيفة حول سيجاره. "أليست هذه الحقيقة؟ نعم، سيدي". تنهد. "سأذهب لأجفف نفسي. أراكما لاحقاً".

"نراك".

كانـــت الغرفة مليئة بالرجال الآتين من العاصفة، الذين يحاولون نـــزع الرطوبة عن أثوابهم السوداء، وقبعاتهم الكبيرة السوداء، وكانوا يسعلون، ويدخنون، ويمررون لبعضهم قناني الشراب بشكل علني.

اتكأ تيدي وتشاك على الجدار البيج، وتحدثا بنبرة منخفضة وهما ينظران إلى الغرفة.

"إذاً، ما كانت الكلمات على الروزنامة...؟".

"نعم".

"لم تكن *عطلة في الكاب كود*".

"لا".

"ماذا كانت؟".

"كانت المريض السابع والستين".

"فقط؟".

"فقط".

"لكن هذا يكفي، أليس كذلك؟".

"أوه، نعم حسبما أظن".

لم يستطع النوم. أصغى إلى الرجال يشخرون، ويشهقون، ويزفرون صفيراً خفيفاً، وسمع بعضهم يتحدثون في نومهم، وسمع أحدهم يقول: "عليك إخباري. هذا كل شيء. فقط قل الكلمات...". وسمع رجلاً آخر يقول: "هناك بوشار في حنجرتي". ركل بعضهم الشراشف، وبرم بعضهم الآخر مراراً وتكراراً، ونهض بعضهم لضرب الوسادات قبل الاستلقاء مجدداً على الفراش. بعد برهة، بلغ الضجيج نوعاً من الإيقاع المريح، الذي ذكّر تيدي بنشيد مكبوت.

كان الصوت مكبوتاً أيضاً في الخارج، لكن تيدي استطاع سماع العاصفة تضرب بالأرض وتعصف بالأسس، وتمنى لو أنه توجد نوافذ هنا، ليتمكن فقط من رؤية وميض العاصفة، والبرق المرسوم في السماء.

فكّر في ما قاله له كاولي.

ليست مسألة إذا. إنها مسألة متى.

هل يفكّر في الانتحار؟

افتـــرض ذلك. لا يذكر يوماً منذ موت دولوريس لم يفكّر فيه في الانـــضمام إلـــيها، ووصل الأمر أحياناً إلى أبعد من ذلك. شعر أحياناً وكـــأن الاســـتمرار في العيش هو عمل جبان. فما الجدوى من شراء الحاجيات، أو ملء خزان وقود سيارة الكرايزلر، أو الحلاقة، أو انتعال الجـــوارب، أو الوقـــوف في صف آخر، أو اختيار ربطة عنق، أو كيّ قمـــيص، أو غـــسل الوجه، أو تمشيط الشعر، أو دفع شيك، أو تجديد الرخـــصة، أو قـــراءة الجـــريدة، أو التبول، أو الأكل - بمفرده، دوماً بمفرده - أو الذهاب إلى السينما، أو شراء أسطوانة، أو دفع الفواتير، أو الحلاقة مجدداً، والغسيل مجدداً، والنوم مجدداً، والاستيقاظ مجدداً...

... إذا كان كل هذا لا يجعله أقرب إليها؟

عـــرف أنه يفترض به المضي قدماً، التعافي، وضع المسألة وراءه. لقد قال له ذلك أصدقاؤه القليلون وأقاربه القليلون، وعرف أنه لو كان في الخـــارج ينظر إلى الداخل، لقال لذلك التيدي أن يستوعب الأمر، ويتحلى بالشجاعة، ويمضي قدماً في بقية حياته.

لكن، لفعل ذلك، عليه العثور على طريقة لوضع دولوريس على رف، والـــسماح لها بالامتلاء بالغبار على أمل أن يتراكم غبار كافٍ عليها لتمويه ذكراه لها، تمويه صورها. إلى أن تصبح، يوماً ما، أقل من شخص عاش وأكثر من حلم امرأة.

يقولـــون، تغلب عليها، عليك التغلب عليها، ولكن التغلب على ماذا؟ على هذه الحياة اللعينة! كيف يفترض بـــي إخراجك من عقلي. لم يـــنجح الأمـــر لغاية الآن، فكيف يفترض بـــي فعل ذلك؟ كيف يفتـــرض بـــــي التخلي عنك، هذا كل ما أسأله، أريد الإمساك بك

مجدداً، شم رائحتك مجدداً، ونعم، أريدك أيضاً أن تختفي. من فضلك أن تختفي...

تمنى لو أنه لم يتناول أبداً تلك الحبتين. استيقظ تماماً عند الثالثة. كان مستيقظاً تماماً يسمع صوتها، مع لكنة بوسطن الخفيفة التي لا تكشف نفسها في حرفي "أيه" و"آر" بقدر حرفي "إي" و"أر" بحيث أحبته دولوريس في كلمات مهموسة. ابتسم في الظلمة، وهو يسمعها، يرى أسنانها، أهدابها، الشهوة الكسولة في نظراتها صباح يوم الأحد.

تلك الليلة التقى بها في الكوكونات غروف. كانت الفرقة الموسيقية تعزف لحناً قوياً، وأصبح الهواء فضياً بفعل الدخان، وكان الجميع يرتدون أجمل الثياب؛ البحارة والجنود في أجمل بذلاتهم البيضاء، والزرقاء، والرمادية، فيما وضع المدنيون ربطات عنق متفجرة بالأزهار، وبذلات مزدوجة الصدر مع مناديل مثلثة مقحمة بترتيب في الجيوب، والنساء، كانت النساء في كل مكان. رقصن حتى خلال توجههن إلى غرفة التبرج. رقصن وهن يتحركن من طاولة إلى طاولة، ودرن على رؤوس أصابعهن، فيما أشعلن السجائر وفتحن علب التجميل الصغيرة، وانزلقن إلى المشرب وأرجعن رؤوسهن إلى الخلف للضحك، وكان شعرهن لامعاً مثل الساتين يلتقط الضوء كلما تحركن.

كان تيدي هناك مع فرانكي غوردون، ضابط آخر من إنتل، وبعض الرجال الآخرين، الذين سيغادرون جميعاً خلال أسبوع، لكنه تخلى عن فرانكي لحظة رآها، فتركه وسط الكلام، وتوجّه إلى حلبة الرقص، أضاعها لبرهة بين الناس الذين يفصلون بينهما، بحيث كان الجميع يتدافعون إلى الجانبين لإفساح المجال لبحار وامرأة شقراء ترتدي ثوباً أبيض، فيما برمها البحار على ظهره، ثم رفعها فوق رأسه، وبرمها وعاد لالتقاطها وهي تهبط، فأنزلها نحو الأرض، فيما صفق له

الجمهور، ثم لمح تيدي وميض فستانها البنفسجي مجدداً.

كان فستاناً جميلاً وكان اللون أول شيء لفت انتباهه. لكن هناك الكثير من الفساتين الجميلة تلك الليلة، الكثير منها، وبالتالي ليس الفستان الذي لفت انتباهه، وإنما الطريقة التي ارتدته بها، بعصبية، بوعي، لمسته بتفهم، سوّته، وأعادت تسويته. ضغطت براحتي يديها على حشوتي الكتفين.

كان مستعاراً، أو مستأجراً. لم ترتدِ أبداً مثل هذا الفستان من قبل. أرعبها. لدرجة لم تعرف ما إذا كان الرجال والنساء ينظرون إليها بسبب الشهوة، أو الحسد، أو الشفقة.

لاحظت تيدي وهو يراقبها، فيما كانت تسحب إبهامها عن رباط حمالة الثديين. أخفضت عينيها، وتدفق اللون إلى الأعلى من حنجرتها، ثم نظرت إلى الأعلى نحو تيدي، ونظر تيدي إلى عينيها وابتسم وقال لنفسه، أشعر بالغباء في هذا اللباس أنا الآخر. لو أن هذه الفكرة تنتقل عبر الأرض. ويبدو أنها فعلت، لأنها ابتسمت، ابتسامة غزل وامتنان في الوقت نفسه، وترك تيدي فرانكي غوردون هناك، فيما كان فرانكي يتحدث عن متاجر الغذاء في أيوا أو ما شابه، وفي الوقت الذي مرّ فيه أمام سياج الراقصين، أدرك أنه لا يملك شيئاً ليقوله لها. ماذا سيقول؟ هل سيقول فستاناً جميلاً؟ هل أطلب لك مشروباً؟ أم تملكين عينين جميلتين؟

قالت: "تائه؟".

دوره في الدوران. وجد نفسه ينظر إلى الأسفل، إليها. كانت امرأة قصيرة لا يتعدى طولها خمس أقدام وأربعة إنشات في الكعب العالي. جميلة جداً. ليس بطريقة جامحة مثل العديد من النساء الأخريات الموجودات هناك، مع أنوف وشعر وشفاه مثالية. ثمة شيء مهمل في وجهها، عيناها بعيدتان ربما قليلاً عن بعضهما، وشفتاها عريضتان جداً

بحيث بدتا غير متناسقتين مع وجهها الصغير، وذقن غير واثق من نفسه.

قال: "قليلاً".

"حسناً، عَمّ تبحث؟".

قالها قبل أن يفكّر في منع نفسه: "عنك".

اتسعت عيناها، ولاحظ بقعة صغيرة برونــزية في بؤبؤها الأيسر، وشــعر بالرعب يجتاح جسمه، فيما أدرك أنه فجّر الموضوع، فتصرف مثل روميو الواثق جداً من نفسه.

عنك.

من أين جاء بهذه الكلمة بالله عليكم؟ ماذا كان...؟.

"حسناً". قالت...

أراد الركض. لم يتحمل النظر إليها ثانية أخرى.

"... على الأقل لم تضطر للمشي بعيداً".

شعر بابتسامة صغيرة تجتاح وجهه، وشعر أنه منعكس في عينيها. أبله. أحمق. سعيد جداً للتنفس.

"لا آنستي، لا أظن ذلك".

قالت "يا الله!". وتراجعت إلى الخلف للنظر إليه، وضغطت بكأس شراب العنب على أعلى صدرها.

"ماذا؟".

"أنت خارج المكان هنا تماماً مثلي، أليس كذلك أيها الجندي؟".

اتكــأت على نافذة سيارة الأجرة، فيما جلست في المقعد الخلفي مــع صــديقتها ليندا كوكس، وكانت ليندا منحنية إلى الأمام لإعطاء العنوان للسائق، وقال تيدي: "دولوريس".

"إدوارد".

ضحك.

"ماذا؟".

رفع يده. "لا شيء".

"لا. ماذا؟".

"لا أحد يناديني إدوارد باستثناء أمي".

"إذاً، تيدي".

أحب سماعها تلفظ الكلمة.

"نعم".

قالت مجدداً: "تيدي". وهي تجرّب الكلمة.

قال: "هاي ما اسم عائلتك؟".

"شانال".

رفع تيدي حاجبه عند سماع ذلك.

قالت: "أعرف. لا يتماشى الاسم مع بقيتي على الإطلاق. يبدو متعجرفاً جداً".

"هل أستطيع الاتصال بك؟".

"هل تملك ذاكرة جيدة للأرقام؟".

ابتسم تيدي. "في الواقع...".

قالت: "وينتر هيل، ستة، أربعة، ثلاثة، أربعة، ستة".

وقف على الرصيف، فيما انطلقت سيارة الأجرة، وذكرى وجهها البعيد مسافة إنش واحد عن وجهه - عبر نافذة سيارة الأجرة، وعلى حلبة الرقص - عطلت دماغه تقريباً، وكادت تخرج اسمها ورقمها من هناك.

قال لنفسه: هذا هو الحب إذاً. لا منطق فيه، فهو بالكاد يعرفها. لكنها القصة نفسها. لقد التقى للتو بالمرأة التي عرفها، نوعاً ما، قبل أن يولد. مقياس كل حلم لم يجرؤ أبداً على حلمه.

دولوريس. كانت تفكر فيه الآن في المقعد الخلفي المظلم، وتحسّ به مثلما يحسّ بها.

دولوريس.

كل ما احتاج إليه يوماً، وقد بات له اسمٌ الآن.

استدار تيدي في سريره، وتمدد للوصول إلى الأرض، وبحث حوله إلى أن عثر على دفتره وعلبة أعواد ثقاب. أشعل أول عود وحمله فوق الصفحة التي خربش عليها في العاصفة. أشعل أربعة أعواد ثقاب قبل أن يطابق الأحرف الصحيحة بالأرقام

18-1-4-9-5-4-19-1-12-4-23-14-5

R-A-D-I-E-D-S-A-L-D-W-N-E

لكن بعد الانتهاء من ذلك، لم يحتج إلى وقت طويل لفك الرمز. عـــودا ثقاب إضافيّان، وراح تيدي يحدّق إلى الاسم، فيما شقت اللهبة طريقها عبر الخشب وصولاً إلى أصابعه.

آندرو لايديز.

حين أصبحت أعواد الثقاب أكثر سخونة، نظر إلى تشاك، الذي يـــنام بعـــد سريرين، وتمنى ألا تتأثر مهنته. لا يفترض ذلك. سيتحمل تيدي كل اللوم. يفترض أن يكون تشاك بخير. يملك تلك الهالة عموماً، مهما حصل، يخرج تشاك غير مخدوش.

نظر مجدداً إلى الصفحة، وألقى عليها نظرة سريعة، أخيرة قبل أن ينطفئ عود الثقاب.

ســـأجدك الـــيوم، آندرو. وإذا كنت لا أدين لدولوريس بحياتي، فإنني أدين لها بهذا على الأقل.

سأجدك.

سأقتلك.

اليوم الثالث

المريض السابع والستون

14

المنـــــزلان خــــارج الجـــدار - منـــزل آمر السجن ومنـــزل كـــاولي - أصيبا بأضرار مباشرة. اختفى نصف سقف كاولي، وطار القرميد فوق كل المستشفى، مثل درس في التواضع. دخلت شجرة عبر نافذة غرفة الجلوس في منـــزل آمر السجن، واخترقت الخشب الرقائقي المثبت هناك للحماية، وباتت الجذور، وكل شيء وسط المنـــزل.

كـــان المجمع مليئاً بالأصداف وأغصان الأشجار مع إنش ونصف الإنش من الماء. سقف كاولي، بعض الجرذان الميتة، كومات من التفاح، وكل ذلك مغطى بالرمل. بدت قاعدة المستشفى وكأن أحداً فتتها بآلة ثقـــب الصخور، وخسر الجناح أربع نوافذ، وعدة أقسام من الصفائح المعدنـــية كانت ملتفة إلى الخلف على السقف. تحول اثنان من أكواخ المـــوظفين إلى قضبان، فيما سقطت أكواخ أخرى على جانبها. خسر مبنـــيا نوم الممرضات والحراس، العديد من النوافذ، وعانت من بعض أضـــرار الماء بينها. بقي الجناح ب بمنأى عن الأضرار، من دون أي أثر فيه. وفي كل الجزيرة، استطاع تيدي رؤية أشجار مقتلعة الرؤوس، فيما برز خشبها العاري مثل الرماح.

كـــان الهواء ساكناً مجدداً، وكثيفاً، وملبداً. هطل المطر على نحو مطّـــرد. غطت الأسماك الميتة الشاطئ. عندما خرجوا للمرة الأولى في الصباح، كانت هناك سمكة مفلطحة تتقلب في النسيم، مع عين حزينة ومتورمة تنظر إلى الخلف، نحو البحر.

راقب تيدي وتشاك، ماكفرسون وحارساً يقلبان سيارة جيب عن جانبها. حين شغّلا المحرك، اشتغل في المرة الخامسة، أرجعا السيارة إلى الخلف عبر البوابات، ورآهما تيدي بعد دقيقة، يسرعان في الطريق خلف المستشفى باتجاه الجناح ج.

دخل كاولي إلى المجمع، وتوقف لالتقاط قطعة من سقفه والتحديق إليها قبل رميها مجدداً على الأرض المليئة بالماء. مرّت عيناه أمام تيدي وتشاك مرتين قبل أن يتعرف إليهما في ثيابهما البيضاء الخاصة بالحراس والمعاطف السوداء والقبعات السوداء. وجّه إليهما ابتسامة ساخرة، وبدا أنه على وشك الاقتراب منهما، حين خرج من المستشفى طبيب يضع مسماعاً حول عنقه وركض إليه.

"اختفى الرقم اثنان. لا يمكننا إعادته. علينا العثور على هذين الاثنين. سيموتان، جون".

"أين هاري؟".

"هاري يعمل على الأمر، لكنه لا يستطيع الحصول على شحنة. ما نفع الاحتياط إذا كان لا يوفر احتياطاً لأي شيء؟".

"حسناً. فلندخل إلى هناك".

دخلا بسرعة إلى المستشفى، وقال تيدي: "هل تعطل مولّد الكهرباء الاحتياطي؟".

قال تشاك: "يبدو أن مثل هذه الأمور تحدث في إعصار".

"هل ترى أي أضواء؟".

نظر تشاك حوله إلى النوافذ. "لا".

"هل تظن أن النظام الكهربائي كله تعطل؟".

قال تشاك: "احتمال كبير".

"يعني ذلك أسواراً".

التقط تشاك تفاحة طافت عند قدمه. قذفها في الهواء، ثم ركلها بساقه نحو الجدار. "الضربة الأولى!". استدار نحو تيدي. "يعني ذلك أسواراً، نعم".

"كل الجهاز الأمني الإلكتروني. بوابات. أبواب".

قال تشاك: "أوه، يا الله، ساعدنا!". التقط تفاحة أخرى، وقذفها فوق رأسه ليلتقطها وراء ظهره. "تريد الدخول إلى ذلك الحصن، أليس كذلك؟".

أحنى تيدي وجهه تحت المطر الخفيف. "يوم مثالي لذلك".

ظهر آمر السجن، وقد دخل في سيارة إلى المجمّع مع ثلاثة حرّاس، فيما تطاير الماء من الدواليب. لاحظ آمر السجن تشاك وتيدي يقفان في الفناء الخارجي، وبدا أن الأمر أزعجه. أدرك تيدي أنه اعتقد أنهما حارسان، تماماً مثلما فعل كاولي، وانزعج لأنهما لا يحملان رفشين، أو مضختي ماء في أيديهما. إلا أنه مرّ أمامهما ورأسه مندفع إلى الأمام، للتركيز على أشياء أكثر أهمية. أدرك تيدي أنه عليه سماع صوت الرجل، وتساءل إذا كان أسود بقدر شعره، أو شاحباً بقدر بشرته.

قال تشاك: "يجدر بنا الذهاب إذاً. لن يستمر الوضع هكذا إلى الأبد".

بدأ تيدي المشي نحو البوابة.

لحق به تشاك. "أود الصفير، لكن فمي جاف جداً".

قال تيدي بصوت خافت: "خائف؟".

"أعتقد أن الكلمة الصحيحة هي مذعور سيدي". ألقى التفاحة إلى قسم آخر من الجدار.

اقتربا من البوابة، وكشف الحارس هناك عن وجه صبي صغير وعينين قاسيتين. قال: "يجدر بكل الحراس التوجه إلى السيد ويليس في المكتب الإداري. أنتما مسؤولان عن التنظيفات".

نظر تشاك وتيدي إلى قميصي وسروالي بعضهما البيضاء.

قال تشاك: "عجة بالبيض".

أومأ تيدي برأسه. "شكراً. كنت أتساءل. للغداء؟".

"شرائح لحم رفيعة".

استدار تيدي نحو الحارس، وأظهر له بطاقته. "لا تزال ملابسنا في المصبغة".

ألقى الحارس نظرة على بطاقة تيدي، ثم نظر إلى تشاك وانتظر.

تنهد تشاك، وأخرج محفظته، وفتحها تحت أنف الحارس.

قال الحارس: "ماذا تفعلان خارج الجدار؟ تم العثور على المريضة المفقودة".

قرر تيدي أن أي شرح سيجعلهما يبدوان ضعيفين ويضع ميزان القوة في يد ذلك الحقير. عرف تيدي العشرات من هؤلاء الرجال خلال الحرب. لم يعد معظمهم إلى منازلهم، وتساءل تيدي غالباً، إذا اكترث أحد فعلاً لأمرهم. لا يمكنك التعامل مع مثل هذا الأحمق، ولا يمكنك تعليمه أي شيء. لكنك تستطيع دعمه، إذا، فهمت أن الشيء الوحيد الذي يحترمه هو القوة.

تقدم تيدي نحو الرجل، وفتش في وجهه، وارتسمت ابتسامة صغيرة على زاوية شفتيه، وانتظر حتى نظر الرجل إلى عينيه.

قال تيدي: "نحن نقوم بجولة".

"لا تملكان تفويضاً".

"بلى نملك". اقترب تيدي منه أكثر بحيث توجب على الصبي رفع عينيه إلى الأعلى. استطاع شمّ نَفَسه. "نحن مارشلان فدراليان في مرفق فدرالي. هذا تفويض من... نفسه. لا نجيب عن أسئلتك، لا نشرح لك. يمكننا توجيه الرصاص إلى قضيبك، أيها الصغير، وما من

محكمة في البلاد سترفع ضدنا قضية". اقترب تيدي مسافة نصف إنش إضافي. "لذا، افتح لنا البوابة اللعينة".

حاول الصبـــي التحديق إلى عيني تيدي. ابتلع لعابه. حاول جعل عينيه قاسيتين.

قال تيدي: "أكرر: افتح تلك...".

"حسناً".

قال تيدي: "لم أسمعك".

"حاضر سيدي".

استمر تيدي في النظر بقساوة إلى وجه الولد لثانية إضافية، وزفر الهواء بصوت عالٍ عبر منخريه.

"جيد كفاية أيها الصغير. هوو - آه".

قـــال الولد بطريقة عفوية: "هوو - آه". وانتفخت تفاحة آدم في عنقه.

برم مفتاحه في القفل، وفتح البوابة، ودخل تيدي عبرها من دون النظر إلى الخلف.

استدارا إلى اليمين، ومشيا بمحاذاة الجهة الخارجية للجدار لبعض الوقت وقال تشاك: "لمسة رائعة مع الهوو - آه".

نظر تيدي إليه. "أحببت ذلك أنا أيضاً".

"كنت ضابطاً مخيفاً، أليس كذلك؟".

"كـــنت آمـــر كتيـــبة مع مجموعة من الأولاد تحت أمرتي. مات نـــصفهم في ريعـــان الشباب. لا يمكنك التعاطي معهم *بلطافة* لكسب الاحترام، وإنما عليك إخافتهم".

"نعـــم حضرة الضابط. مفهوم تماماً". ضرب له تشاك التحية. "حتى مع وجود القوة، تذكر أن هذا حصن نحاول التسلل إليه، أليس كذلك؟".

"لم يغب الأمر عن بالي".

"هل لديك أي فكرة؟".

"لا".

"هـــل تظـــن أنهـــم يملكون خندقاً مائياً؟ لا بد من وجود شيء كهذا".

"بعض أنابيب الغاز الساخن ربما في الجدران ذات الفتحات".

قال تشاك: "القناطر. إذا كانت هناك قناطر، تيدي...".

"ونحن من دون السلاسل".

تجـــاوزا شجرة أسقطتها العاصفة، وكانت الأرض موحلة وزلقة بـــالأوراق المبللة. عبر النباتات المتناثرة أمامهما، استطاعا رؤية الحصن، وجدرانه الرمادية الكبيرة، ورؤية المسارات من خلال علامات إطارات السيارات رباعية الدفع التي كانت تتحرك جيئة وذهاباً طوال الصباح.

قال تشاك: "يملك ذلك الحارس وجهة نظر".

"وكيف ذلك؟".

"الآن بعـــد العـــثور على راشايل، لم يعد تفويضنا بالوجود هنا ســـاري المفعول. إذا تم كشفنا، سيدي، لا مجال أبداً للتوصل إلى تبرير منطقي".

أحـــسّ تيدي بشغب الخضار المفتت والمتناثر في عمق عينيه. شعر بالإرهـــاق، والقليل من الدوار. فلم يحصل الليلة الماضية إلا على أربع ساعات من النوم الناجم عن تناول العقاقير والمليء بالكوابيس. تساقط رذاذ المطـــر على أعلى قبعته، واجتمع حول الحافة. طنّ دماغه، بطريقة خفيفة، وإنما مستمرة. إذا وصل المركب اليوم - وهو يشك في ذلك - ثمة جزء فيه يريد القفز على المركب والذهاب بعيداً. الابتعاد عن هذه الصخرة اللعينة. ولكن من دون نتيجة واضحة لهذه الرحلة، سواء أتمثل

ذلك في دليل للسيناتور هورلي أو في شهادة موت لايديز، يكون أخفق في مهمـــته. لا يزال يفكر في الانتحار، ومع هذا العبء الإضافي على ضميره، لا يكون فعل أي شيء للتغيير.

فتح دفتره الصغير. "كومات الصخور تلك التي تركتها لنا راشايل البارحة. هذا هو الرمز المكسور". أعطى الدفتر إلى تشاك.

طوق تشاك الدفتر بيده، وأبقاه قريباً من صدره. "إنه موجود هنا إذاً".

"إنه هنا".

"إن المريض السابع والستين هنا برأيك؟".

"هذا ما أظنه".

توقف تيدي وسط منحدر موحل. "يمكنك العودة تشاك. لست مجبراً على التورط".

نظر تشاك إليه، وأغلق الدفتر في يده. "نحن مارشلان، تيدي. ماذا يفعل المارشالات دوماً؟".

ابتسم تيدي. "يقتحمون الأبواب".

قـــال تـــشاك: "أولاً، نقتحم الأبواب ثانياً، لا ننتظر حتى يدعمنا بعـــض رجـــال شرطة المدينة إذا كان هذا تبديداً للوقت. نقتحم ذلك الباب اللعين".

"نعم، صحيح".

قـــال تشاك: "حسناً، إذاً". وأعاد له الدفتر، وتابعا طريقهما نحو الحصن.

عند النظر إليه عن قرَب، لم يعد أي شيء يفصلهما عنه باستثناء صف شجيرات وحقل صغير، وقال تشاك ما كان تيدي يفكر فيه:

"لقد قضي علينا".

جدار السايكلون الذي كان يحيط عادة بالحصن تحطم إلى أجزاء عدة على الأرض. وقعت أجزاء منه على الأرض، فيما تطايرت أجزاء أخرى فوق الأشجار البعيدة، وارتاحت الأجزاء الأخرى في مواقع أخرى متناثرة.

إلا أن الحراس المسلحين تجولوا حول محيط الحصن. قام العديد منهم بجولات منتظمة في السيارات رباعية الدفع. قام عدد من العمال بجمع النفايات المكدسة حول الحصن من الجهة الخارجية، فيما قامت مجموعة أخرى منهم بإزالة شجرة كبيرة وقعت على جدار. لا يوجد خندق مائي، لكن هناك باباً واحداً فقط، باباً أحمر صغيراً من الحديد المثبت وسط الجدار. وقف الحراس أمام الباب، وحملوا البنادق على أكتافهم وصدورهم. كانت النوافذ القليلة الصغيرة المفتوحة في الحجر مطوقة بالقضبان. لا يوجد مرضى مكبلون أو غير مكبلين خارج الباب، سواء أكانوا هناك فقط حراس وعمال بأعداد متساوية.

رأى تيدي اثنين من الحراس يتنحيان جانباً، فيما وقف عدد من العمال على الشرفات ذات الفرجات، ونادوا أولئك الواقفين على الأرض للابتعاد قليلاً. حملوا نصف شجرة إلى حافة السقف، ثم دفعوها جيئة وذهاباً إلى أن تمايلت هناك. اختفوا بعدها، ووقفوا خلف الشجرة ودفعوها إلى الأمام، فتمايل نصف الشجرة إلى الأمام بضع أقدام، ثم انطلقت الشجرة إلى الأمام وصرخ الرجال، فيما وقعت إلى الأسفل، وتحطمت على الأرض. عاد العمال للوقوف عند حافة السقف، ونظروا إلى الأسفل ثم تصافحوا، وربتوا على أكتاف بعضهم بعضاً.

قال تشاك: "لا بد من وجود قناة من نوع ما، أليس كذلك؟ للتخلص من الماء أو النفايات ورميها في البحر، يمكننا الدخول بهذه الطريقة".

هزّ تيدي رأسه. "ولِمَ نـــزعج أنفسنا؟ سندخل مباشرة".

"أوه، مثلما خرجت راشايل من الجناح ب؟ فهمت. نحصل على بعض تلك البودرة العجيبة التي لديها. فكرة جيدة".

قطـــب تشاك حاجبيه، ولمس تيدي ياقة معطفه. "نحن لا نرتدي ثياب المارشالات، تشاك. هل فهمت ما أقصده؟".

نظـــر تـــشاك إلى العمـــال الواقفين حول محيط الحصن، وراقب أحدهم يخرج من الباب الحديدي مع فنجان قهوة في يده، فيما الدخان يتصاعد من الكوب على شكل أفاعٍ ملتوية.

"آمين". قال. "آمين يا أخي".

دخـــنا السجائر وتحدثا عن أمور تافهة لبعضهما بعضاً، فيما مشيا في الطريق المؤدية إلى الحصن.

في منتصف الحقل، التقيا بحارس، يحمل بندقيته بكسل تحت ذراعه ويوجهها نحو الأرض.

قال تيدي: "لقد أرسلونا إلى هنا. ثمة شجرة على السقف".

نظر الحارس إلى الخلف فوق كتفه. "لا. لقد اهتموا بأمرها".

"أوه، رائع". قال تشاك، وبدأ يمشي في طريق العودة.

"أوه، انتظـــرا". قـــال الحارس. "لا يزال هناك الكثير من العمل الواجب إنجازه".

استدارا مجدداً.

قال تيدي: "هناك ثلاثون رجلاً يعملون في ذلك الجدار".

"نعـــم، لكن توجد في الداخل فوضى رهيبة. لا تستطيع عاصفة تـــدمير مثل هذا المكان، لكنها استطاعت بالرغم من ذلك الوصول إلى داخله. تعرفان؟".

قال تيدي: "أوه طبعاً".

قال تشاك للحارس المتكئ على الجدار قرب الباب. "أين تفاصيل التنظيف؟".

أشار بإبهامه، وفتح الباب، ودخلا عبره إلى قاعة الاستقبال.

قال تشاك: "لا أريد أن أبدو ناكراً للجميل، لكن، هذا كان سهلاً جداً".

قال تيدي: "لا تستخف بالأمر. أحياناً يحالفك الحظ".

أغلق الباب وراءهما.

قال تشاك مع ارتجاج بسيط في صوته: "الحظ، هل نسميه هكذا؟".

"نعم، نسميه هكذا".

أول شيء لفت انتباه تيدي كانت الروائح. رائحة مطهر اصطناعي قوي يعمل بأقصى فاعليته لإخفاء رائحة التقيؤ والبراز والعرق، وخصوصاً، البول.

ثم صدح الضجيج من القسم الخلفي للمبنى، وصوت أقدام تنزل الدرج، من الأسفل ركضاً، أصوات صراخ مدوية عبر الجدران السميكة والهواء الرطب، صرخات قوية ومفاجئة تثقب الأذن، ثم تموت، العويل لعدة أصوات مختلفة تصدر كلها دفعة واحدة.

صرخ أحدهم: "لا يمكنك أيها اللعين! لا يمكنك فعل ذلك! هل تسمعني؟ لا يمكنك. ابتعد...". ثم تلاشت الكلمات.

في مكان ما فوقهم، عند منبسط الدرج الحجري تقريباً، أنشد رجل ما: "مئة قنينة من شراب الشعير على الجدار". انتهى بالقنينة السابعة والسبعين، وبدأ بالقنينة السادسة والسبعين.

ثمـــة آلـــتان للقهوة على طاولة جانبية مع كومات من الأكواب الورقية، وبعض أكواب الحليب. جلس حارس على طاولة أخرى قرب قاعدة الدرج، ونظر إليهما وابتسم.

"المرة الأولى، أليس كذلك؟".

نظـــر تـــيدي إليه بطريقة عادية، فيما استُبْدِلت الأصوات القديمة بأخرى جديدة، وصدح المكان بأكمله بنوع من الفوضى الصوتية التي تصم الآذان في كل اتجاه.

"نعم، سمعنا قصصاً ولكن...".

قال الحارس: "ستعتادان على ذلك. تعتادان على كل شيء".

"أليست هذه الحقيقة؟".

قـــال: "إذا كان الرجال لا يعملون على السقف، يمكنكما تعليق المعطفين والقبعتين في الغرفة التي ورائي".

قال تيدي: "قالوا لنا إن عملنا على السطح".

قـــال الحارس: "ومن سيرشدكما؟ اتبعا هذه السلالم. لقد كبلنا معظـــم المجـــانين بأسرّتهم، لكن بعضهم لا يزالون طليقين. إذا رأيتما واحـــداً، تـــصرخان، اتفقـــنا؟ ومهمـــا فعلتما، لا تحاولا أبداً تقييده لـــوحدكما. لـــيس هذا الجناح أ. هل تعرفان؟ يستطيع هؤلاء المجانين قتلكما. مفهوم؟".

"مفهوم".

صعدا السلالم، وقال الحارس: "انتظرا دقيقة".

توقفا، ونظرا نحوه إلى الأسفل.

كان يبتسم، وأشار بإصبعه إليهما.

انتظرا.

"أعرفكما أيها الرجلان". ثمة لحن ناعم في صوته.

لم يتفوه تيدي بكلمة. لم يتفوه تشاك بكلمة.

كرر الحارس: "أعرفكما أيها الرجلان".

نجح تيدي في القول: "حقاً؟".

"نعـــم. أنـــتما الـــرجلان اللذان علقا بتنظيف السقف في المطر اللعين". ضحك، ومدد الإصبع، ونقر على الطاولة بيده الأخرى.

قال تشاك: "هذا نحن. هاها".

قال الحارس: "ها، اللعنة، ها!".

أشار تيدي إليه وقال: "لقد نلت منا أيها الصديق". ثم استدار نحو السلالم. "لقد عرفتنا فعلاً".

رافقتهما ضحكة الغبـــي على السلالم.

توقفا عند أول منبسط درج. واجها قاعة كبيرة مع سقف مقوّس من النحاس المطروق، وأرضية داكنة مصقولة لدرجة تحولت إلى مرآة. عـــرف تـــيدي أنه يستطيع رمي كرة بايسبول أو واحدة من تفاحات تـــشاك مـــن حيث هو، وعدم بلوغ الطرف الآخر من الغرفة. كانت الغـــرفة فارغة والبوابة التي أمامهما مفتوحة جزئياً، وشعر تيدي بحركة فئـــران بين ضلوعه، فيما دخل إلى الغرفة لأنها ذكّرته بالغرفة في حلمه، تلك التي قدّم إليه فيها لايديز كأساً وذبحت راشايل أولادها. إنها الغرفة نفـــسها تقـــريباً، تلك التي في حلمه كانت لها نوافذ عالية، مع ستائر سميكة، وأشعة ضوء، وأرضية خشبية، وثريات ثقيلة، لكنها شبيهة جداً بهذه.

ربّـــت تشاك بيد على كتفه، وأحسّ تيدي بنقاط العرق المتصببة على جانب عنقه.

"أكـــرر". همس تشاك مع ابتسامة ضعيفة: "هذا سهل جداً. أين الحارس عند هذه البوابة؟ ولماذا هي غير مقفلة؟".

استطاع تيدي رؤية راشايل، بشعرها المتطاير وصراخها، فيما ركضت عبر الغرفة مع ساطور.

"لا أعرف".

انحنى تشاك إلى الأمام، وهمس في أذنه: "هذه مهمة سهلة جداً سيدي".

بدأ تيدي اجتياز الغرفة. آلمه رأسه من قلّة النوم، من المطر، من الصراخ، وأصوات الأقدام المتسارعة فوقه. أمسك الصبيان والفتاة بأيدي بعضهم بعضاً، ونظروا فوق أكتافهم، مذعورين.

استطاع تيدي سماع المريض يغني مجدداً: "... تنزل واحدة إلى الأسفل، تمررها، أربع وخمسون قنينة شراب شعير على الجدار".

ومضت الصورة أمام عينيه. الصبيان وتلك الفتاة، يسبحون في الهواء الطافي، واستطاع تيدي رؤية تلك الحبوب الصفراء التي وضعها كاولي في يده الليلة الماضية، وشعر بالقليل من الغثيان في معدته.

"أربع وخمسون قنينة شراب شعير على الجدار، أربع وخمسون قنينة...".

"علينا العودة فوراً، تيدي. علينا المغادرة. هذا سيئ. يمكنك الإحساس بذلك. يمكنني الإحساس بذلك".

في الطرف الآخر من القاعة، قفز رجل من الباب.

كان حافي القدمين وعاري الصدر، يرتدي فقط سروال بيجاما أبيض اللون. كان حليق الرأس، لكن استحالت رؤية بقية قسماته في الضوء الخفيف.

قال: "مرحبا".

مشى تيدي بوتيرة أسرع.

قال الرجل: "التقطتك! أنت هو!". وقفز من الباب.

لحق تشاك بتيدي: "سيدي، بالله عليك".

كان هنا، لايديز، في مكان ما. استطاع تيدي الإحساس به.

وصـــلا إلى نهايـــة القاعة، ووجدا منبسطاً حجرياً عريضاً وسلماً يـــنحدر بقوة في الظلمة، وسلماً آخر يرتفع نحو الصراخ والثرثرة، التي باتت عالية جداً الآن، واستطاع تيدي سماع أصوات طقطقة السلاسل والمعـــادن. سمـــع أحدهم يقول: "الفواتير! الآن، أيها الرجل! اهدأ! لا يمكنك الهروب. هل تسمعني؟".

سمـــع تيدي شخصاً يتنفس قربه. أدار رأسه إلى اليسار، وأصبح حليق الرأس بعيداً عنه مسافة إنش واحد الآن.

قال الرجل: "أنت هو!". ونقر على ذراع تيدي بالسبابة.

نظر تيدي إلى وجه الرجل.

قال تيدي: "أنا هو".

قـــال الرجل: "طبعاً. أنا قريب جداً. يمكنك فقط برم معصمك، وأكون أنا هو مجدداً، ثم أبرم معصمي وتكون أنت هو مجدداً، ونستطيع الاستمرار هكذا لساعات، أو حتى طوال النهار، ويمكننا التناوب على التحول إلى هو، مراراً وتكراراً، من دون حتى استراحة للغداء، أو حتى استراحة للعشاء، ويمكننا المضي قدماً وقدماً".

قال تيدي: "وأي متعة في ذلك؟".

"هـــل تعرف من يوجد هناك؟". أشار الرجل برأسه إلى السلالم. "في البحر؟".

قال تيدي: "السمك؟".

أومـــأ الرجل برأسه. "السمك. جيد جداً. السمك، نعم. الكثير مـــن السمك. ولكن، نعم، السمك، جيد جداً، السمك، نعم، ولكن أيـــضاً، أيضاً؟ غواصات. نعم. هذا صحيح. غواصات سوفياتية. على

مـــسافة مـــئتيّ ميل أو ثلاثمئة ميل من شواطئنا. نسمع ذلك، صحيح؟ أخبرونا. طبعاً. واعتدنا على الفكرة. ننسى، طبعاً. أقصد حسناً، هناك غواصـــات. شـــكراً على المعلومات. تصبح جزءاً من وجودنا اليومي. نعـــرف أنها هناك، لكننا نتوقف عن التفكير في ذلك. صحيح؟ لكنها موجـــودة هناك، وهي مسلّحة بالصواريخ. وهي توجه صواريخها نحو نـــيويورك، وواشـــنطن، وبوســـطن. وهي هناك. قابعة. هل يزعجك ذلك؟".

استطاع تيدي سماع تشاك قربه يتنفس ببطء، وينتظر تلميحاً منه.

قال تيدي: "مثلما قلت، أفضل عدم التفكير في الأمر كثيراً".

"ممم". أومأ الرجل برأسه. مشط الشعيرات في ذقنه. "نسمع أشياء هـــنا. لا تظنان ذلك، صحيح؟ لكننا نسمع. يأتي رجل جديد، يخبرنا بأشـــياء. يـــتحدث الحراس، أنت، العمال تتحدثون. نحن نعرف، نحن نعرف. عن العالم الخارجي. عن اختبارات القنبلة الهيدروجينية، والجزر المرجانية. هل تعرف كيف تعمل القنبلة الهيدروجينية؟".

قال تيدي: "بالهيدروجين؟".

"جـــيد جـــداً. ذكي جداً. نعم، نعم". أومأ الرجل برأسه مرات عـــدة. "بالهـــيدروجين، نعـــم. ولكن أيضاً، أيضاً، ليس مثل القنابل الأخـــرى. تـــسقط قنبلة، حتى القنبلة الذرية، وتنفجر. صحيح؟ تماماً حـــيث أنت. لكن القنبلة الهيدروجينية تنفجر داخلياً. تقع على نفسها وتشهد سلسلة من التفككات الداخلية، والانهيارات والانهيارات. لكن، كل هذا الانهيار يولّد كتلة وكثافة. هل تفهم؟ إن غضب التدمير الذاتي يولّد وحشاً جديداً بالكامل. فهمت ذلك؟ صحيح؟ كلما كان التفكك أكـــبر، كـــان التدمير الذاتي أكبر، وأصبح أكثر قوة. وبعدها، حسناً، حـــسناً: الانفجـــار اللعين! فقط... بانغ، بوم، ووش. في غياب ذاتها،

تنتـــشر. تولّد انفجاراً خارجياً وانفجاراً ضمنياً يكون مدمراً مئة مرة، ألـــف مـــرة، مليون مرة أكثر من أي قنبلة أخرى في التاريخ. هذا هو إرثـــنا. ولا تـــنسَ ذلك". ربّت على ذراع تيدي مرات عدة، تربيتات خفـــيفة، كما لو أنه ينقر على الطبلة بأصابعه. "أنت هو! إلى الدرجة العاشرة. هيبي!".

قفز على السلالم المظلمة، وسمعاه يصرخ *بلامو* في أثناء نـــزوله.

"... تـــسعة وأربعـــون قنيـــنة شـــراب شعير! تأخذ واحدة إلى الأسفل...".

نظر تيدي إلى تشاك. كان وجهه رطباً، وزفر الهواء بعناية عبر فمه.

قال تيدي: "أنت محق. فلنخرج من هنا".

"الآن اعترفت".

جاء الصوت من أعلى السلالم:

"فليساعدني أحد هنا! بالله عليكم!".

نظـــر تـــيدي وتشاك إلى الأعلى، ورأيا رجلين ينـــزلان السلالم بسرعة كبيرة. ارتدى أحد الرجلين ملابس الحرّاس الزرقاء، فيما ارتدى الرجل الآخر ملابس المرضى البيضاء، وتوقفا عند منحنى السلالم، عند أعرض درجة.

رفـــع المريض يده، وأقحمها في وجه الحارس مباشرة تحت عينه اليـــسرى، وانتزع قطعة من اللحم، فصرخ الحارس، وأرجع رأسه إلى الخلف.

ركـــض تيدي وتشاك على السلالم. رفع المريض يده مجدداً، لكن تشاك أمسكها عند المعصم.

مـــسح الحـــارس عيـــنه، ولطّخ ذقنه بالدم. استطاع تيدي سماع تنفسهم هم الأربعة، وسمع أغنية شراب الشعير البعيدة، علماً أن المريض

أصـــبح في القنينة الثانية والأربعين الآن، وبدأ ينتقل إلى القنينة الواحدة والأربعـــين، ثم رأى الـــرجل تحته وقد فتح فمه كثيراً، وقال: "تشاك، انتبه". وضرب بكعب يده جبين المريض قبل أن يتمكن هذا الأخير من قضم معصم تشاك.

قال للحارس: "عليك الابتعاد عنه، هيا، ابتعد عنه".

أفلـــت الحـــارس نفـــسه من ساقي المريض وتراجع درجتين إلى الخلـــف. جاء تيدي فوق المريض وضربه بقوة على كتفيه، وثبته على الحجـــر، ونظر إلى الخلف فوق كتفه إلى تشاك، وطارت العصا بينهما، فحلقت في الهواء مع صوت صفير، وانكسرت على أنف المريض.

أحسّ تيدي أن الجسم الذي تحته ينهار وقال: "يا الله!".

تمايـــل الحـــارس مجدداً، واستدار تيدي نحو جسم المريض، وثبّت الذراع بمرفقه.

نظر إلى وجهه الملطخ بالدم. "هاي! هاي! إنه بارد. هاي!".

إلا أن الحارس استطاع شمّ رائحه دمه. رفع العصا إلى الأعلى.

قال تشاك: "انظر إلي! انظر إلي!".

نظر الحارس بعينيه إلى وجه تشاك.

"اصمد. هل تسمعني؟ اصمد. تمت السيطرة على المريض". أفلت تـــشاك معـــصم المريض، ووضع ذراعه على صدره. اتكأ تشاك على الجدار، وبقي يحدّق إلى الحارس. قال بهدوء: "هل تسمعني؟".

أخفـــض الحـــارس عينيه، وأنـــزل العصا. لمس الجرح في جبينه بقميصه، ثم نظر إلى الدم المتناثر على القماش. "لقد مزّق وجهي".

انحنى تيدي إلى الأمام، ونظر إلى الجرح. لقد رأى أسوأ منه بكثير. لن يموت الرجل منه أو من أي شيء. لكنه جرح بشع. لن يستطيع أي طبيب تقطيبه جيداً.

قال: "ستكون بخير. مجرد قطبتين".

اســـتطاع أن يسمع تحطم عدد من الأجسام وبعض المفروشات فوقهم.

قال تشاك: "أنتم تواجهون حالة شغب؟".

استنـــشق الحارس الهواء، وأخرجه عبر فمه إلى أن عاد اللون إلى وجهه. "تقريباً".

سأل تشاك بمرح: "هل يحاول المجانين الاستيلاء على المصحّ؟".

نظر الرجل إلى تيدي بعناية، ومن ثم إلى تشاك. "ليس بعد".

أخرج تيدي منديلاً من جيبه، وأعطاه للرجل.

أومأ الرجل برأسه، علامة شكر، وضغط بالمنديل على وجهه.

رفـــع تشاك معصم المريض مجدداً، وراقبه تيدي وهو يتحسس نبضه. أخفض المعصم، وأنـــزل أحد جفني الرجل. نظر إلى تيدي. "سيعيش".

قال تيدي: "فلنساعده على النهوض".

وضـــعا ذراعي المريض حول كتفيهما، ولحقا بخطى الحارس. لا يزن كثيراً، لكن السلالم طويلة، واستمرت أعلى قدميه بالارتطام بقوائم الـــدرجات. حين وصلوا إلى الأعلى، استدار الحارس، وبدا أكبر سناً، وربما أكثر ذكاء.

قال: "أنتما المارشلان".

"ماذا؟".

أومـــأ برأسه. "أنتما المارشلان. رأيتكما حين وصلتما". وجّه إلى تشاك ابتسامة صغيرة. "تلك الندبة على وجهك، تعرف؟".

تنهد تشاك.

قال الرجل: "ماذا تفعلان هنا؟".

قال تيدي: "ننقذ وجهك".

رفع الرجل المنديل عن جرحه، ونظر إليه، ثم ضغط به على وجهه مجدداً.

قـــال: "الـــرجل الـــذي أمسكتما به؟ بول فنجيس. من ويست فيرجينـــيا. قـــتل زوجة أخيه وابنتين، فيما كان أخوه يخدم في كوريا. وضعهنّ في الطابق الأرضي، ممتعاً نفسه، فيما كانت الجثث تتعفن".

قـــاوم تيدي رغبته في إفلات ذراع فنجيس، وتركه يسقط على السلالم.

"الحقيقة هي". قال الرجل ونحنح حنجرته: "الحقيقة هي أنه سيطر عليّ". نظر إلى عيونهما وكانت عيناه حمراوين.

"ما اسمك؟".

"بايكر. فريد بايكر".

صـــافحه تيدي. "اسمع، فريد؟ هاي، نحن مسروران لأننا استطعنا المساعدة".

نظر الرجل إلى حذائه، ورأى بقع الدم هناك. "مجدداً، ماذا تفعلان هنا؟".

قال تيدي: "نقوم بجولة. لدقيقتين ثم نذهب".

أخـــذ الـــرجل بعـــض الوقت للتفكير في ذلك، واستطاع تيدي الإحساس بالسنتين الماضيتين من حياته؛ خسارة دولوريس، البحث عن لايديـــز، اكتـــشاف هذا المكان، مصادفة جورج نويس وقصصه عن المخـــدرات وتجـــارب جراحة الدماغ، والاتصال بالسيناتور هورلي، وانتظار الوقت الصحيح لعبور المرفأ تماماً مثلما تم الانتظار، لعبور القناة الإنكليزية إلى النورماندي؛ تذكر كل ذلك، فيما انتظره الرجل.

قـــال الرجل: "تعرفان. عملت في عدد من الأماكن الأخرى، في ســـجون، حـــبس انفـــرادي، مكـــان آخر كان مستشفى للمجانين

المجـــرمين...". نظر إلى الباب، واتسعت عيناه، كما لو أنه يتثاءب لكنّ فمـــه لم يفتح. "نعم. عملت في بعض الأماكن. لكن، هذا المكان؟". وجّه إلى كل منهما نظرة طويلة. "يكتبون قصصهم الخاصة هنا".

حـــدّق إلى تيدي، وحاول تيدي قراءة الجواب في عيني الرجل، لكن النظرة كانت متنوعة كثيراً، وباهتة وقديمة.

"لدقيقتين؟". أومأ الرجل لنفسه. "حسناً. لن يلاحظ أحد في هذه الفوضى اللعينة. خذا دقيقتين ثم اخرجا من هنا. اتفقنا؟".

قال تشاك: "طبعاً".

"وهاي". وجه إليه الرجل ابتسامة صغيرة، فيما وصل إلى الباب. "حاولا ألا تموتا خلال هاتين الدقيقتين. اتفقنا؟ سأقدّر ذلك".

15

دخلا عبر الباب، ووصلا إلى غرفة لها جدران من الغرانيت الأسود وأرضية من الغرانيت امتدت على طول الحصن تحت قناطر عرضها عشر أقدام وطولها أربع عشرة قدماً. النوافذ الطويلة على جانبي الأرضية، وفّرت الضوء الوحيد، وتساقط الماء من السقف، وكانت الأرضيات مليئة ببقع الماء. امتدت الزنزانات على اليمين واليسار، وكانت مدفونة في الظلمة.

قال بايكر: "انفجر مولد الكهرباء الأساسي قرابة الساعة الرابعة اليوم. يتم التحكم بأقفال الزنزانات بطريقة إلكترونية. هذا أحد أحدث ابتكاراتنا". فكرة رائعة، أليس كذلك؟ هكذا، فُتحت كل الزنزانات عند الساعة الرابعة. لحسن الحظ أننا لا نزال نستطيع التحكم بهذه الأقفال يدوياً، ولذلك أعدنا معظم المرضى إلى الداخل وحبسناهم في الزنزانات، لكن، ثمة شخص يملك مفتاحاً. ينجح في التسلل والوصول إلى زنزانة واحدة، على الأقل، قبل أن يهرب مجدداً".

قال تيدي: "ربما رجل أصلع؟".

نظر بايكر إليه. "رجل أصلع؟ نعم. إنه واحد لا نستطيع الاعتماد عليه. تصوّرت أنه قد يكون هو. اسمه ليتشفيلد".

"إنه يلعب في ذلك الدرج الذي صعدنا منه. في النصف السفلي".

أخذهما بايكر إلى الزنزانة الثالثة على اليمين وفتحها. "ارمياه هنا".

احتاجا إلى بضع ثوانٍ للعثور على السرير في الظلمة، ثم نقر بايكر على ضوء ومضي، ووجه الضوء إلى الداخل، فيما وضعا فنجيس على السرير وتأوه ألماً وتدفق الدم من منخريه.

قـــال بايكر: "عليّ إحضار بعض الدعم والبحث عن ليتشفيلد. الطابـــق الأرضي هو حيث نضع الرجال الذين لا نطعمهم إلا في حال وجود ستة حرّاس في الغرفة. إذا أفلتوا، تحصل ثورة حقيقية هنا".

قال تشاك: "أحضر مساعدة طبية أولاً".

عثر بايكر على قطعة غير ملطخة بالدم في منديله، وضغط بها على الجرح. "لا أملك الوقت".

قال تشاك: "لا".

نظـــر بايكر إلى الداخل عبر القضبان. "نعم. حسناً. سأعثر على طبيب. وأنتما الاثنان؟ تدخلان وتخرجان في وقت قياسي. اتفقنا؟".

قال تشاك فيما غادرا الزنـــزانة: "اتفقنا. أحضر طبيباً للرجل".

أقفل بايكر باب الزنـــزانة. "سأفعل ذلك".

ركـــض في رواق الزنـــــزانات، ومـــرّ أمام ثلاثة حرّاس يجرّون عملاقاً، له لحية، إلى زنـــزانته، وتابع الركض.

قـــال تيدي: "ما رأيك؟". استطاع عبر القناطر رؤية رجل عند النافذة البعيدة، يتشبث بقضبان، فيما يحاول بعض الحرّاس جرّ خرطوم مياه. بدأت عيناه تتكيفان مع الضوء الخافت في الرواق الأساسي، لكن الزنـــزانات بقيت معتمة تماماً.

قـــال تشاك: "لا بد من وجود مجموعة من الملفات، في مكان ما، هـــنا. حتى ولو لأغراض طبية أساسية بحتة. أنت ابحث عن لايديز وأنا سأبحث عن الملفات؟".

"وأين هذه الملفات برأيك؟".

نظـــر تشاك إلى الباب. "حسبما تبدو الأمور، تصبح المسألة أقل خطـــورة كلما ارتفعنا أكثر هنا. أتصور أن الإدارة موجودة في الطابق العلوي".

"حسناً. أين ومتى نلتقي؟".

"بعد خمس عشرة دقيقة؟".

أحـــضر الحرّاس خرطوم الماء، وأطلقوا منه الماء على الرجل فوقع عن القضبان، واندفع على الأرض.

صـــفق بعـــض الرجال بأيديهم في الزنـــزانات، فيما تأوه رجال آخرون، وكان الأنين عميقاً جداً كما لو أنه آتٍ من أرض معركة.

"خمـــس عشرة دقيقة تبدو جيدة. هل نلتقي مجدداً في تلك القاعة الكبيرة؟".

"طبعاً".

تصافحا وكانت يد تشاك مبللة وشفته العلوية دبقة.

"انتبه إلى نفسك تيدي".

ثمة مريض خرج من الباب خلفهما، وركض أمامهما في القاعة. كـــان حافي القدمين، وركض، كما لو أنه يتدرب على مباراة ملاكمة محترفة، بحيث كانت خطوات القدمين تعمل بالتناسق مع الذراعين.

ابتسم تيدي إلى تشاك وقال: "سأرى ما أستطيع فعله".

"إذاً، اتفقنا".

"اتفقنا".

تـــوجه تـــشاك إلى الباب. توقف للنظر إلى الخلف. أومأ تيدي برأسه.

فتح تشاك الباب، فيما نـــزل حارسان على السلالم، وقال أحد الحارسين لتيدي: "هل رأيت الأمل الأبيض الكبير يمرّ من هنا؟".

نظـــر تيدي إلى الخلف، عبر ممر القناطر، ورأى المريض يرقص في مكانه على كعبـــي قدميه، ويضرب الهواء بمعصميه. أشار تيدي إليه، وانطلق الرجال الثلاثة نحوه.

قال تيدي: "هل كان ملاكماً؟".

قال الرجل الموجود إلى يساره، وكان رجلاً أسود طويلاً ومتقدماً في العمر: "أوه، لقد أتيتما من الشاطئ، هوه؟ من أجنحة الإجازة. أوه. نعم. حسناً، ويلي، الذي هناك، يظن أنه يتدرب لإجراء مباراة ملاكمة مع جو لويس. والمشكلة هي أنه ليس سيئاً جداً".

باتوا قريبين من الرجل، وراقب تيدي معصمي المريض يضربان في الهواء.

"سيتطلب الأمر أكثر منا نحن الثلاثة".

قهقه الحارس، الكبير في السن. "لن يحتاج إلا إلى شخص واحد. أنـــا المسؤول عنه، ألا تعرف؟". نادى بصوت عالٍ: "هاي ويلي. لديّ رسالة لك أيها الرجل. لم يبقَ إلا ساعة واحدة لموعد المباراة".

"لا أريد أي رسالة". بدأ ويلي ينقر الهواء بلكمات سريعة.

قـــال الحارس: "لا أستطيع إحضار بطاقة وجبة طعامي معي. هل تسمعني؟".

"أحضرتها فقط في المرة التي تباريت فيها مع جيرسيه جو".

"وانظر كيف كانت النتيجة".

نـــزلت ذراعا ويلي على جانبيه. "لديك وجهة نظر".

"غرفة التدريب، مباشرة هنا". لوّح الحارس بذراعه إلى اليسار مع ابتسامة.

"لا تلمسني. لا أريد أن يلمسني أحد قبل المباراة. تعرف ذلك".

"أوه، أعرف، أيها القاتل". فتح باب الزنـــزانة. "تعال الآن".

مشى ويلي نحو الزنـــزانة. "يمكنك فعلاً سماعهم، أليس كذلك؟ الجماهير؟".

"طبعاً، طبعاً".

اســـتمر تيدي والحارس الآخر في المشي، ورفع الحارس يداً سمراء وقال: "أنا آل".

صافحه تيدي. "أنا تيدي يا آل. سررت بلقائك".

"لماذا توجهتم جميعاً إلى الخارج، تيدي؟".

نظـــر تـــيدي إلى معطفه الواقي من المطر. "يوجد شيء ما على السطح. إلا أننا صادفنا مريضاً على السلالم وطاردناه حتى هنا. تصورنا أنكم قد تستفيدون من مساعدة إضافية".

وقعـــت كـــتلة من البراز على الأرض قرب قدم تيدي، وثرثر أحـــدهم مـــن ظلمة زنـــزانة، وأبقى تيدي عينيه أمامه و لم يتوقف أبداً.

قال آل: "عليك البقاء قريباً من الوسط قدر الإمكان. وبالرغم من ذلك، قد تتعرض لضربة من نوع ما، مرة على الأقل كل أسبوع. هل رأيت رجلك؟".

هزّ تيدي رأسه. "لا، أنا...".

قال آل: "أوه، اللعنة!".

"ماذا؟".

"أرى رجلي".

كـــان مـــتوجهاً نحوهما، وهو مبلل تماماً، ولاحظ تيدي الحراس يفلـــتون خرطوم الماء ويبدأون المطاردة. ثمة رجل قصير القامة مع شعر أحمـــر، ولـــه وجه مثل قفير النحل، مغطى بالبثور السوداء، مع عينين حمراوين تتطابقان مع لون شعره. غيّر اتجاهه فجأة في اللحظة الأخيرة،

وارتطم بفجوة رآها، فيما التفت ذراعا آل فوق رأسه، وانزلق الرجل الصغير على ركبتيه، وبرم، ثم انطلق يركض.

ركض آل خلفه، ثم أسرع الحراس يركضون أمام تيدي، وهم يحملون العصيّ فوق رؤوسهم، وكانوا مبللين مثل الرجل الذي يطاردونه.

انطلق تيدي في عملية المطاردة، بدافع الفطرة على الأقل، حين سمع: "لايديز".

وقف وسط الغرفة، منتظراً سماع الكلمة مجدداً. الأنين الجماعي، الذي توقف للحظة بفعل مطاردة صاحب الرأس الأحمر، بدأ يرتفع مجدداً، وانطلق بمثابة أزيز بين خشخشة الأسرّة.

فكّر تيدي في تلك الحبوب الصفراء مجدداً. إذا كان كاولي يشك، فعلاً يشك، أنه هو وتشاك...".

"لايد.ديز".

استدار، ورأى ثلاث زنزانات إلى يمينه. كانت كلها مظلمة. انتظر تيدي، وهو يعرف أن المتحدث يستطيع رؤيته، متسائلاً إذا كان الشخص هو لايديز نفسه.

"كان يفترض بك إنقاذي".

جاء الصوت من الزنزانة التي في الوسط، أو تلك التي إلى يسارها. ليس صوت لايديز. حتماً لا. لكن الصوت بدا مألوفاً أيضاً.

اقترب تيدي من قضبان الزنزانة التي في الوسط. فتش في جيوبه. عثر على علبة أعواد الثقاب وأخرجها. مرر عود ثقاب فوق جانب العلبة، وأشعله، ورأى منخفضاً صغيراً ورجلاً مع ضلوع ناتئة جالساً على السرير، يكتب على الجدار. نظر إلى الخلف فوق كتفه إلى تيدي. ليس لايديز. ليس رجلاً يعرفه.

"هل تمانع؟ أفضل العمل في الظلام. أوه شكراً كثيراً لك".

تراجع تيدي إلى الخلف بعيداً عن القضبان، واستدار إلى يساره، ولاحظ أن كل الجدار الأيسر في زنزانة الرجل مغطى بالخربشات، من دون أي إنش فارغ، مع آلاف الخطوط المكتنزة عليه، وكانت الكلمات صغيرة جداً بحيث لا يمكن قراءتها، إلا إذا ألصقت عينيك بالجدار.

انتقل إلى الزنزانة التالية، وانطفأ عود الثقاب، وقال الصوت، القريب جداً الآن: "لقد خذلتني".

ارتجفت يد تيدي، وأشعل عود الثقاب التالي لكن العود انكسر في أثناء الإشعال.

"قلت لي إنني سأتحرر من هذا المكان. وعدتني".

أخذ تيدي عود ثقاب آخر، لكنه طار، ووقع داخل الزنزانة من دون أن يشتعل.

"كذبت".

أشعل عود ثقاب ثالث، وحلّق اللهب عالياً فوق إصبعه فجعله قرب القضبان، وحدّق إلى داخل الزنزانة. كان الرجل جالساً على السرير في الزاوية اليسرى وقد أخفض رأسه، وأقحم وجهه بين ركبتيه، ولف ذراعيه حول ربلتيّ ساقيه. كان أصلع الرأس في الوسط، مع شعر أشيب على الجانبين. كان عارياً باستثناء سروال أبيض قصير. ارتعدت عظامه داخل لحمه.

لعق تيدي شفتيه وسقف فمه. حدّق فوق عود الثقاب وقال: "مرحباً؟".

"لقد أرجعوني. يقولون إنني لهم".

"لا أستطيع رؤية وجهك".

"يقولون إنني الآن في مكاني الصحيح".

"هلاّ رفعت رأسك؟".

"يقولون إن هذا مكاني. لن أغادره أبداً".

"دعني أرى وجهك".

"لماذا؟".

"دعني أرى وجهك".

"ألم تتعرف إلى صوتي؟ كل المحادثات التي أجريناها؟".

"ارفع رأسك".

"ظننت أن الأمر بيننا لم يعد مهنياً بحتاً. ظننت أننا أصبحنا صديقين، نوعاً ما. بالمناسبة، سينطفئ عود الثقاب هذا قريباً".

حدّق تيدي إلى البشرة الصلعاء والأطراف المرتجفة.

"أقول لك يا صديقي...".

"تقول لي ماذا؟ تقول لي ماذا؟ ما الذي تستطيع قوله لي؟ المزيد من الأكاذيب، هذا كل شيء".

"أنا لا...".

"أنت كاذب".

"لا. لست كذلك. ارفع...".

أحرق اللهب طرف السبابة وجانب الإبهام، فأفلت عود الثقاب.

اختفت الزنزانة في الظلام. استطاع سماع نوابض السرير تتحرك، مع خربشة قاسية للقماش على الحجر، وطقطقة للعظام.

سمع تيدي الاسم مجدداً.

"لايديز".

جاء الصوت من الجهة اليمنى للزنزانة هذه المرة.

"لم تكن هذه الحقيقة أبداً".

أخرج عودي ثقاب من العلبة وأشعلهما مع بعضهما.

"أبداً".

رفع عود الثقاب. كان السرير فارغاً. حرّك يده إلى اليمين، ورأى الرجل واقفاً في الزاوية وهو يدير ظهره له.

"أليس كذلك؟".

"ماذا؟".

"الحقيقة".

"نعم".

"لا".

"هذه هي الحقيقة. كشف...".

"هـــذه حقيقتك أنت. لايديز. هذا كل شيء. كنت أنا مصادفة. كنت عابراً".

اســـتدار الرجل. مشى نحوه. كان وجهه مسحوقاً. كتلة منتفخة بالأرجواني والأسود والأحمر الكرزي. الأنف مكسور، ومغطى بشريط أبيض متشابك.

قال تيدي: "الله!".

"أحببت ذلك؟".

"من فعل هذا؟".

"أنت فعلت هذا".

"بالله عليك كيف يمكنني...؟!".

اقتـــرب جورج نويس من القضبان، وكانت شفتاه سميكتين، مثل إطارات الدراجة الهوائية ومليئتين بالقطب. "كل كلامك. كل كلامك الأحمق، وأنا عدت إلى هنا. بسببك".

تذكـــر تـــيدي آخر مرة رآه فيها في غرفة الزيارات في السجن. بالـــرغم مـــن ضوء الزنـــزانة، بدا بصحة جيدة، وحيوياً، وخالياً من

معظم همومه. أخبر نكتة، عن شيء له علاقة بإيطالي وألماني دخلا مشرباً في أل باسو.

قال جورج نويس: "انظر إليّ. لا تنظر بعيداً. لم تشأ أبداً فضح هذا المكان".

"جورج". قال تيدي وقد أبقى صوته منخفضاً وهادئاً: "ليس هذا صحيحاً".

"بلى".

"لا. برأيك، كنت أخطط لماذا خلال السنة الأخيرة من حياتي؟ هذا. الآن. هنا".

"اللعنة عليك!".

أحس تيدي بالصرخة ترتطم بوجهه.

"اللعنة عليك!". صرخ جورج مجدداً: "أمضيت السنة الأخيرة من حياتك وأنت تخطط؟ تخطط للقتل. هذا كل شيء. القتل. لايديز. هذه لعبتك اللعينة. وانظر إلى أين وصلت أنا. إلى هنا. عدت إلى هنا. لا أستطيع تحمل ذلك. لا أستطيع تحمل منزل الرعب اللعين هذا. هل تسمعني؟ ليس مجدداً، ليس مجدداً، ليس مجدداً".

"اسمع، جورج. ماذا فعلوا للوصول إليك؟ لا بد من وجود أوامر نقل. لا بد من وجود استشارات نفسية. ملفات، جورج، أوراق".

ضحك جورج. ضغط بوجهه على القضبان، وحرك حاجبيه صعوداً ونزولاً. "هل تريد سماع سر؟".

اقترب تيدي منه أكثر.

قال جورج: "هذا جيد...".

قال تيدي: "أخبرني".

بصق جورج على وجهه.

تراجع تيدي إلى الخلف، وأفلت عود الثقاب، ومسح البصقة عن جبينه بواسطة كمّه.

في الظلام، قال جورج: "هل تعرف ما اختصاص العزيز الدكتور كاولي؟".

مرر تيدي راحة يده فوق جبينه وجسر أنفه، ووجده جافاً. "ذنب الناجين، صدمة الألم".

"لا، لا، لا، لا". انتهت الكلمة في فم جورج بقهقهة حافة. "العنف. عند الرجال تحديداً. إنه يجري دراسة".

"لا، هذا نايهرينغ".

"كاولي". قال جورج. "كل شيء كاولي. يحضر المرضى والمجرمين الأكثر عنفاً من كل أنحاء البلاد. لماذا قاعدة المرضى صغيرة جداً هنا برأيك؟ وهل تظن، هل تظن فعلاً أن أحداً سينظر عن كثب إلى أوراق النقل الخاصة بشخص له تاريخ عنف، وتاريخ مشاكل نفسية؟ هل تظن فعلاً ذلك أيها الحقير؟!".

أشعل تيدي عودي ثقاب إضافيين.

قال نويس: "لن أخرج أبداً الآن. لقد هربت مرة. ولكن ليس مرتين. ليس مرتين".

قال تيدي: "اهدأ. اهدأ. كيف وصلوا إليك؟".

"لقد عرفوا. ألا تفهم؟ كل ما كنت تصمم له. كل خطتك. إنها لعبة. مسرحية مكتوبة بعناية. كل هذا" – لوّح بذراعه في الهواء فوقه – "لك".

ابتسم تيدي وقال: "افتعلوا إعصاراً فقط لي، هوه؟ حيلة ذكية".

بقي نويس صامتاً.

قال تيدي: "اشرح ذلك".

"لا أستطيع".

"لا أظن ذلك. فلنرتح من الخوف. اتفقنا؟".

قال نويس، وهو يحدّق إليه عبر القضبان: "هل أمضيت الكثير من الوقت بمفردك؟".

"ماذا؟".

"بمفردك. هل كنت لوحدك مرة واحدة منذ أن بدأ كل ذلك؟".

قال تيدي: "طوال الوقت".

رفع جورج حاجبه. "بمفردك *تماماً؟*".

"حسناً، مع شريكي".

"ومن شريكك؟".

رفع تيدي إبهامه إلى الخلف خارج الزنـــزانة. "اسمه تشاك. إنه...".

قـــال نـــويس: "دعـــني أحزر. لم تعمل معه أبداً من قبل، أليس كذلك؟".

أحـــس تـــيدي أن الزنـــزانة تطوّقه. أصبحت العظام في ذراعيه بـــاردة. عجز للحظة عن الكلام، كما لو أن دماغه نسي كيف يتصل بلسانه.

ثم قال: "إنه مارشال أميركي من سياتل...".

"*لم تعمل معه أبداً من قبل*، أليس كذلك؟".

قال تيدي: "هذا غير مهم. أعرف الرجال. أعرف هذا الرجل. أنا أثق به".

"استناداً إلى ماذا؟".

لا يـــوجد جـــواب بسيط على ذلك. كيف يعرف أي كان أين ينشأ الاعتقاد القوي؟ في لحظة، لا يكون الاعتقاد القوي موجوداً، وفي اللحظـــة التالـــية يـــصبح موجوداً. لقد عرف تيدي رجالاً في الحرب

ائتمـــنهم على حياته في أرض المعركة لكنه لم يأتمنهم أبداً على أمواله. وعـــرف رجـــالاً ائتمنهم على أمواله وزوجته، لكنه لم يسمح لهم أبداً بمراقبته في أرض المعركة، أو الدخول معه عبر باب.

كـــان باســـتطاعة تشاك رفض مرافقته، وكان باستطاعته البقاء لـــوحده في مبنى نوم الرجال، والاستراحة حتى تهدأ العاصفة، وانتظار وصول المركب. لقد انتهت مهمتهما، تم العثور على راشايل سولاندو. لا يملـــك تشاك سبباً، ولا أي اهتمام، لمجاراة تيدي في بحثه عن لايديز، في سعيه لإثبات أن آشكليف هي سخرية لقسم أبقراط. لكنه موجود هنا، بالرغم من كل شيء.

كـــرر تيدي: "أنا أثق به، هذه هي الطريقة الوحيدة التي أستطيع فيها التعبير عن رأيي".

نظر إليه نويس بحزن عبر القضبان الحديدية. "لقد ربحوا".

هـــزّ تـــيدي أعواد الثقاب، وأفلتها على الأرض. فتح علبة أعواد الـــثقاب مجدداً، وعثر فيها على عود أخير. سمع نويس، الذي لا يزال واقفاً عند القضبان، يشمّ الهواء.

"أرجوك". همس له، وعرف تيدي أنه يبكي. "أرجوك".

"ماذا؟".

"لا تتركني أموت هنا".

"لن تموت هنا".

"سيأخذونني إلى المنارة. أنت تعرف ذلك".

"المنارة؟".

"سيقطعون دماغي".

أشعل تيدي عود الثقاب، ورأى في اللهب المفاجئ أن نويس أمسك بالقضبان، وانهمرت الدموع من عينيه المنتفختين على وجهه المنتفخ.

"لن...".

"اذهـــب إلى هـــناك. حاول رؤية ذلك المكان. وإذا عدتَ حياً، أخبرني ماذا يفعلون هناك. اذهب لترى بنفسك".

"سأذهب، جورج. سأفعل ذلك. سأخرجك من هنا".

أخفض نويس رأسه، وضغط برأسه الأصلع على القضبان، وبكى بصمت، وتذكر تيدي أنه في آخر مرة التقيا خلالها في غرفة الزوار، قال جورج: "إذا أجبرت يوماً على العودة إلى ذلك المكان، فسأقتل نفسي"، وقال تيدي: "لن يحصل ذلك".

إنها كذبة على ما يبدو.

لأن نويس موجود هنا. مضروب، محطم، مليء بالخوف.

"جورج، انظر إليّ".

رفع نويس رأسه.

"سأخرجك من هنا. اصمد. لا تفعل أي شيء لا يمكنك العودة منه. هل تسمعني؟ اصمد. سأعود إليك".

ابتـــسم جـــورج نويس عبر دموعه، وهزّ رأسه ببطء شديد. "لا يمكـــنك قتل لايديز وكشف الحقيقة في الوقت نفسه. عليك الاختيار. أنت تفهم هذا، أليس كذلك؟".

"أين هو؟".

"قل لي إنك تفهم".

"أفهم ذلك. أين هو؟".

"عليك الاختيار".

"لن أقتل أحداً جورج! لن أفعل".

عند النظر عبر القضبان إلى جورج، شعر أن هذه هي الحقيقة. إذا كان هذا هو المطلوب لإنقاذ هذا الرجل المسكين، هذه الضحية المرعبة،

سيدفن تيدي ثأره. من دون تنفيذه. سيؤجله لوقت آخر. وتمنى أن تفهم دولوريس.

كرر: "لن أقتل أحداً".

"كاذب".

"لا".

"إنها ميتة. انسَ أمرها".

كبت ابتسامته، ومسح وجهه بين القضبان، ونظر إلى تيدي بعينيه الناعمتين المتورمتين.

شعر تيدي بها في داخله، وضغط على قاعدة حنجرته. استطاع رؤيتها تجلس في ضباب يوليو الباكر، في ذلك الضوء البرتقالي الداكن الذي يخيم فوق المدينة في ليالي الصيف، مباشرة بعد غروب الشمس، ناظراً إلى الأعلى، فيما اقترب من الحافة، وعاد الأولاد إلى لعبة الكرة في وسط الشارع، وتطاير الغسيل فوقهم، وراقبته يقترب، فيما ذقنها متكئ على متن يدها والسيجارة مرفوعة قرب أذنها، وقد أحضر لها الأزهار ذات مرة، وكانت هي، ببساطة، حبه، امرأته، تراقبه يقترب كما لو أنها تتذكره مع تلك المشية، وتلك الأزهار، وتلك اللحظة، وأراد سؤالها عما يعنيه تحطم قلب من السعادة، أو الإحساس بالرضى الكامل لمجرد رؤية شخص ما، بطريقة يعجز عنها الطعام أو الدم أو الهواء، أو الإحساس كأنك ولدت للحظة واحدة فقط، وهذه هي حاله، مهما كان السبب.

قال له نويس: "انسَ أمرها".

قال تيدي: "لا أستطيع". وخرجت الكلمات من فمه بصوت عالٍ واستطاع الإحساس بالصراخ يدور وسط صدره.

تراجع نويس إلى الخلف قدر المستطاع، وأبقى قبضة يده على القضبان، وأمال رأسه بحيث اتكأت أذنه على كتفه.

"إذاً، لن تغادر أبداً هذه الجزيرة".

لم يقل تيدي أي شيء.

تنهد نويس، كما لو أن ما قاله جعله يشعر بالضجر لدرجة النوم علـــى قدميه. "تم نقله من الجناح ج. إذا لم يكن في الجناح أ، ثمة مكان واحد فقط يمكن أن يوجد فيه".

انتظر حتى استوعب تيدي الأمر.

قال تيدي: "المنارة!".

أومأ نويس برأسه، وانطفأ عود الثقاب الأخير.

لدقيقة كاملة، وقف تيدي هناك، محدقاً إلى الظلمة، ثم سمع صوت نوابض السرير مجدداً فيما استلقى نويس على السرير.

استدار للذهاب.

"هاي".

توقف، وهو يدير ظهره للقضبان، وانتظر.

"فليساعدك الله".

16

استدار ليمشي في رواق الزنـــزانات، فوجد آل في انتظاره. كان يقف وسط رواق الغرانيت، وينظر إلى تيدي بكسل وقال تيدي: "هل وجدت رجلك؟".

جـــاء آل للوقـــوف قربه. "طبعاً. إنه حقير هارب، لكن هنا، لا يمكنك الهروب كثيراً بعد الخروج من غرفتك".

مشيا في طابق الزنـــزانات، وبقيا وسط الرواق، واستطاع تيدي سماع نويس يسأل إذا كان سيبقى هنا لوحده. تساءل لكم من الوقت كـــان آل يراقبه. فكّر مجدداً في الأيام الثلاثة التي أمضاها هنا، وحاول العـــثور على لحظة واحدة كان فيها لوحده تماماً. حتى خلال استعمال الحمـــام، كـــان يستخدم حمامات الموظفين، مع رجل في الحمام الذي قربه، أو مع رجل واقف مباشرة أمام الباب.

لكن، لا، لقد خرج وتشاك مرات عدة في الجزيرة لوحدهما.

هو وتشاك.

مـــاذا يعرف بالضبط عن تشاك؟ تصوّر وجهه للحظة، واستطاع رؤيته في المركب وهو ينظر إلى المحيط...

رجل رائع، يتم استلطافه فوراً، ويتصرف بارتياح مع الأشخاص. إنه من نوع الرجال الذين ترغب في الوجود معهم. من سياتل. تم نقله حديثاً. لاعب بوكر ممتاز. يكره والده وهو الشيء الوحيد الذي يبدو غير متطابق معه. ثمة شيء آخر أيضاً، شيء مدفون في دماغ تيدي، شيء... ما هو؟

غـــريب. هـــذه هي الكلمة. لكن، لا، لا يوجد شيء غريب في تـــشاك. إنـــه إنسان لطيف. لطيف جداً مثل الإوزة، مثلما كان يقول والد تيدي. لا، ما من شيء غريب أبداً في الرجل. لكن ألا يوجد أي شـــيء؟ ألم تمـــرّ لحظة واحدة كان فيها تشاك غريباً في تصرفاته؟ نعم، تيدي واثق من حصول هذه اللحظة. لكنه لا يستطيع تذكر التفاصيل. ليس الآن. ليس هنا.

علـــى كل حال، كانت الفكرة كلها سخيفة. إنه يثق بتشاك. في النهاية، فتش تشاك في مكتب كاولي.

هل رأيته يفعل ذلك؟

تشاك، في الوقت الحاضر، يخاطر بمهنته للوصول إلى ملف لايديز.

كيف تعرف؟

وصـــلا إلى الـــباب وقـــال آل: "اذهب إلى السلالم، واتبع هذه الدرجات إلى الأعلى. ستجد السقف بسهولة".

"شكراً".

انتظـــر تيدي، من دون أن يفتح الباب، إذ أراد أن يرى لِكم من الوقت سيبقى آل يراقبه.

إلا أن آل أومـــأ برأسه، وعاد إلى طابق الزانـــزات وشعر تيدي بالتـــبرئة. طبعاً، لا يراقبونه. حسب علم آل، تيدي مجرد حارس آخر. نويس مصاب فقط بالرهاب. لكن الرهاب مبرر. ومن لا يكون هكذا مكان نويس؟

استمر آل في المشي، وبرم تيدي مقبض الباب، وفتحه، ولم يكن هناك أي حراس ينتظرون عند منبسط الدرج. إنه لوحده. لوحده تماماً. من دون مراقبة. وترك الباب يغلق وراءه، ثم استدار لنـــزول السلالم، ورأى تـــشاك يقف عند المنعطف، حيث صادفا بايكر وفنجيس. أشعل

سيجارته، ومجّها بقوة، ونظر إلى تيدي وهو ينـــزل الدرج، ثم استدار، وبدأ يتحرك بسرعة.

"ظننتُ أننا سنلتقي في القاعة".

قـــال تـــشاك، فيما وصل إليه تيدي: "إنهما هنا". واستدارا نحو القاعة الكبيرة.

"من؟".

"آمر السجن وكاولي. تابع سيرك. علينا الهروب".

"هل رأياك؟".

"لا أعـــرف. كـــنت أخرج من غرفة السجلات فوق طابقين. رأيتهما في الطرف الآخر من القاعة. استدار رأس كاولي، ودخلت فوراً عبر باب المخرج في السلالم".

"إذاً، لم ينتبها إليك على الأرجح".

كـــان تـــشاك يركض فعلياً. "حارس يرتدي المعطف الواقي من المطـــر، ويـــضع قـــبعة كبيرة، ويخرج من غرفة السجلات في الطابق الإداري؟ أوه، أنا واثق أننا بخير".

طقطقت الأضواء فوقهما في سلسلة متتالية، بدت أشبه بأصوات العظـــام المتكـــسرة تحت الماء. هدرت الشحنات الكهربائية في الهواء، وتـــبعها انفجار مدوٍ من الصراخ والنحيب. بدا وكأن المبنى كله ينفجر حـــولهما للحظات، ثم عاد للسكون مجدداً. قرعت أجراس الإنذار عبر الجدران والأرضيات الحجرية.

قال تشاك واستدار نحو السلالم: "لقد عادت الكهرباء. كم هذا جميل".

نـــــزلا الـــسلالم، فيما كان أربعة حراس يصعدون، ووقفا على جانب الدرج للسماح لهما بالمرور.

كـــان الحـــارس الجـــالس أمام الطاولة الجانبية لا يزال موجوداً، يتحدث عبر الهاتف، وينظر إلى الأعلى بعينين شاردتين قليلاً، ثم صفت عيـــناه وقال: "انتظر لحظة". ثم استدار نحوهما، فيما وصلا إلى الدرجة الأخيرة وقال: "هاي أنتما الاثنان انتظرا دقيقة".

ثمة مجموعة من الحشود في القاعة الكبيرة - حراس وعمال واثنان من المرضـــى المكبّلين، مليئان بالوحل - ومرّ تيدي وتشاك أمامهم، ثم مرّا أمام رجل يقف قرب طاولة القهوة ويلوّح بكوبه بكسل، باتجاه صدر تشاك.

وقال الحارس: "هاي! أنتما الاثنان! هاي!".

لم يتوقفا أبداً، ورأى تيدي وجوهاً تنظر حولهما، ولم يعد يسمع إلا صوت الحارس، متسائلاً من يكون ليناديهما.

ثانية أخرى أو ثانيتان، ثم تتجه كل الأنظار إليهما هو وتشاك.

"قلت لكما توقفا".

ضرب تيدي الباب بيده.

لم يفتح.

"هاي!".

لاحـــظ المقبض النحاسي، وهو على شكل ثمرة أناناس، كما في منـــزل كاولي، وأمسك به ووجده مليئاً برذاذ المطر.

"أريد التحدث معكما!".

بـــرم تيدي المقبض، وفتح الباب، وشاهد حارسين يصعدان على الـــدرج. استدار تيدي في مكانه، وترك الباب مفتوحاً، فيما مرّ تشاك عـــبر الـــباب، وأومـــأ له الحارس الذي على يساره إيماءة الشكر. مرّ وشريكه عبر الباب، وأفلت تيدي الباب، ونـــزلا الدرج.

شـــاهدا إلى يـــسارهما، مجموعة من الرجال الذين يرتدون الثياب نفـــسها، يقفـــون ويدخنون السجائر ويشربون القهوة، وكان بعضهم

متكـــئين على الجدار، يمزحون مع بعضهم، وينفخون الدخان بقوة في الهواء. عبر تيدي وتشاك المسافة الفاصلة بينهم، من دون أن ينظرا أبداً إلى الخلـــف، وانتظرا سماع صوت الباب يفتح وراءهما مع سلسلة من النداءات المتتالية.

قال تشاك: "هل عثرت على لايديز؟".

"لا. لكنني عثرت على نويس".

"ماذا؟".

"لقد سمعتني".

أومـــآ برأســـيهما للمجموعة حين وصلا أمامهما. ابتسامات وتلـــويحات وتوقف تيدي للحظة أمام أحد الرجال، ثم تابعا المشي بمحاذاة الجدار، وبدا كأن الجدار امتد لمسافة ربع ميل تقريباً، وتابعا المـــشي، فـــيما صـــدح الصراخ في الهواء، وتابعا المشي وهما يريان البـــنادق الناتـــئة مـــن فجوات الجدران، على مسافة خمسين قدماً فوقهما.

وصـــلا إلى نهاية الجدار، واستدارا إلى اليسار، ووصلا إلى حقل أخـــضر ســـبخ، ولاحظا أنه تم استبدال أجزاء من السور هنا، وكانت مجموعات من الرجال يملأون الفجوات الفارغة بإسمنت سائل، ولاحظا أن الرجال منتشرون في كل مكان، وعرفا أنه لا مجال أبداً للهروب من هنا.

اســـتدارا، وعادا للمشي قرب الجدار، ودخلا عبر الفجوة، وقد أدرك تـــيدي أن السبيل الوحيد للهروب هو المضي قدماً. ستنتبه إليهم العديد من العيون إذا سارا في أي اتجاه آخر، بعيداً عن الحراس.

"سننجح في الهروب، أليس كذلك سيدي؟".

"تقدم مباشرة".

نـــزع تيدي قبعته، ولحق به تشاك، ثم خلعا معطفيهما، ومشيا في بقع الماء الناجمة عن المطر. كان الحارس نفسه في انتظارهما، وقال تيدي لتشاك: "لا تبطئ أبداً خطواتك".

"اتفقنا".

حـــاول تيدي قراءة وجه الرجل. كان من دون تعابير وتساءل ما إذا كان ذلك ناجماً عن الضجر أو لأنه يحضّر نفسه للقتال.

لوّح له تيدي، فيما مرّ أمامه، وقال الحارس: "أحضروا الشاحنات الآن".

اســـتمرا في المـــشي، واســـتدار تيدي ومشى إلى الخلف وقال: "شاحنات؟".

"نعـــم، لإعادتكمـــا أيها الرجلان. عليكما الانتظار، إذ غادرت شاحنة قبل خمس دقائق. يفترض أن تعود في أي لحظة".

"لا. نحن بحاجة إلى ممارسة التمارين".

للحظة، لمع شيء في وجه الحارس. قد يكون الأمر مجرد تخيل من تيدي، أو عرف الحارس ربما وجود مشكلة ما، حين شمها.

"انتـــبه الآن". أدار تـــيدي ظهره، ومشى وتشاك نحو الأشجار وأحـــس أن الحارس يراقبهما، وأحس أن الحصن بكامله يراقبهما. قد يكـــون كـــاولي وآمـــر السجن على الدرجات الأمامية الآن، أو على السقف، يراقبان.

وصلا إلى الأشجار، ولم يصرخ أحد، ولم يطلق أحد طلقة إنذار، ثم تغلغلا أكثر واختفيا في كومة الجذوع السميكة والأوراق المبعثرة.

قال تشاك: "الله، الله، الله".

جلـــس تـــيدي علـــى صخرة، وأحس بالعرق يملأ جسمه، يبلل قميصه وسرواله الأبيض، وشعر أنه على وشك الاختناق. لا يزال قلبه

يخفق بقوة كبيرة، وأحس بالحكاك في عينيه، وبوخز في كتفيه وعنقه، وعرف أن هذا أعظم شعور في العالم، باستثناء الحب.

لأنهما هربا.

نظر إلى تشاك، وثبت عينيه عليه إلى أن انفجرا في الضحك.

قال تشاك: "استدرت حول ذلك المنعطف، ورأيت أن السور لا يزال في مكانه. اللعنة، تيدي، ظننتُ أن الأمر انتهى".

استلقى تيدي على الصخرة، وأحسّ بحرية لم يشعر فيها إلا حين كان ولداً. راقب السماء وقد بدأت تظهر وراء الغيوم الملبدة، وأحسّ بالهواء على بشرته. استطاع شمّ رائحة الأوراق الرطبة والتربة الرطبة واللحاء الرطب وسمع صوتاً آخر، رذاذ المطر. أراد إغماض عينيه والاستيقاظ، وهو في الجهة الأخرى من المرفأ، في بوسطن، في سريره.

كاد يغفو، وذكّره ذلك كم كان متعباً، فانتصب وأخرج سيجارة من جيب قميصه، واستعار قدّاحة تشاك. انحنى إلى الأمام على ركبتيه وقال: "علينا الافتراض، من هذه النقطة، أنهم سيكتشفون أننا كنا في الخارج. هذا إذا كانوا لم يكتشفوا ذلك أصلاً".

أومأ تشاك برأسه. "سيخضع بايكر حتماً للاستجواب".

"أظن أن الحارس الذي كان عند السلالم أراد اللحاق بنا".

"أو أنه أراد منا فقط أن نوقع على سجل الخروج".

"في كلتا الحالتين، سيتم تذكرنا".

صدح صوت منارة بوسطن عبر المرفأ، وهو صوت سمعه تيدي كل ليلة في طفولته في هال. إنه الصوت الأكثر وحدة الذي عرفه. يجعلك ترغب في التشبث بشيء ما، بشخص، بوسادة، بنفسك.

قال تشاك: "نويس".

"نعم".

"هل هو فعلاً هنا؟".

"بلحمه ودمه".

قال تشاك: "بالله عليك تيدي، كيف؟".

وأخبره تيدي عن نويس، عن الضرب الذي تعرض له، عن حقده تجاه تيدي، عن خوفه، وأطرافه المرتجفة، وبكائه. أخبر تشاك كل شيء باستثناء ما أوحاه له نويس عن تشاك. أصغى تشاك إليه، وأومأ برأسه بين الحين والآخر، وراقب تيدي، مثلما يراقب الولد مسؤول المخيم حول النار، فيما يروي الأول قصة آخر الليل.

وما الحقيقة، بدأ تيدي يتساءل، إذا لم تكن هذه؟

حين انتهى، قال تشاك: "هل صدقته؟".

"أصدق أنه هنا. لا شك في ذلك".

"إنه ربما يعاني من انهيار عصبي. أقصد أنه مريض نفسي. يملك التاريخ. قد يكون كل ذلك مشروعاً. ينهار في السجن ويقولون: *هاي هذا الرجل كان ذات مرة مريضاً في آشكليف. فلنعده إلى هناك*".

قال تيدي: "ممكن. لكن في آخر مرة رأيته فيها، بدا لي عاقلاً تماماً".

"متى كان ذلك؟".

"قبل شهر".

"يمكن أن يتغير الكثير خلال شهر".

"صحيح".

قال تشاك: "وماذا عن المنارة؟ هل تصدق أنه توجد مجموعة من العلماء المجانين هناك، يزرعون الهوائيات في جمجمة لايديز، فيما نتحدث نحن هنا؟".

"لا أظن أنهم يقومون بعمل سليم".

قال تشاك: "أوافقك الرأي، لكن كل هذا شبيه بالغينيول الكبير، أليس كذلك؟".

قطّب تيدي وجهه. "لا أعرف ما يعنيه ذلك".

قـــال تشاك: "مرعب. في القصة الخرافية، بو - غا - بو - غا - بو - غا نوعاً ما".

قال تيدي: "أفهم ذلك. ما كانت الكلمة التي لفظتها؟".

قال تشاك: "الغينيول الكبير. إنها كلمة فرنسية. سامحني".

راقب تيدي تشاك، وهو يحاول الابتسام على طريقته، وربما يفكّر في طريقة لتغيير الموضوع.

قـــال تـــيدي: "درســـت الكثير من الفرنسية خلال وجودك في بورتلاند؟".

"سياتل".

"صحيح". وضع تيدي راحة يده على صدره. "سامحني".

قال تشاك: "أنا أحب المسرح. اتفقنا؟ إنها كلمة مسرحية".

"هل تعلم؟ أعرف رجلاً عمل في مكتب سياتل".

"حقاً؟". فتش تشاك في جيوبه وكان شارد الذهن.

"نعم. ربما أنت تعرفه أيضاً".

قـــال تشاك: "ربما. هل تريد أن ترى على ماذا حصلت من ملف لايديز؟".

"كان اسمه جو... جو...". شبك تيدي أصابعه ونظر إلى تشاك. "هيا ساعدني. الكلمة على رأس لساني. جو، أووم، جو...".

قـــال تشاك: "هناك الكثير من الذين اسمهم جو". وهو يفتش في جيبه الخلفي.

"ظننت أنه مكتب صغير".

"ها قد وجدها". خرجت يد تشاك من جيبه الخلفي وكانت يده فارغة.

استطاع تيدي رؤية الورقة المطوية التي انزلقت من قبضته وبقيت عالقة في الجيب.

"جو فيرفيلد". قال تيدي وضحك على الطريقة التي خرجت فيها يد تشاك من جيبه. بطريقة غريبة. "هل تعرفه؟".

بحث تشاك في جيبه مجدداً. "لا".

"أنا واثق من أنه تم نقله إلى هنا".

هزّ تشاك كتفه. "لا يعني لي هذا الاسم شيئاً".

"أوه، ربما كان في بورتلاند. يختلط عليّ الأمر أحياناً".

"نعم، لاحظت ذلك".

سحب تشاك الورقة من جيبه وتذكره تيدي يوم وصلا إلى الجزيرة وكان يسلم المسدس إلى الحارس بحركة بطيئة، وواجه مشكلة في إخراج المسدس من قرابه. ليس هذا أمراً مألوفاً بالنسبة إلى مارشال أميركي. في الواقع، يتم طرده من الوظيفة في حال تم اكتشاف ذلك.

أمسك تشاك بالورقة. "إنها استمارة دخوله. لايديز. لم أعثر إلا على هذه الورقة وعلى سجلاته الطبية. لا تقارير عن حوادث، لا ملاحظات، لا صور. هذا غريب".

قال تيدي: "غريب. طبعاً".

بقيت يد تشاك ممدودة، وقطعة الورق متدلية من أصابعه.

قال تشاك: "خذها".

قال تيدي: "لا. اتركها معك".

"ألا تريد رؤيتها؟".

قال تيدي: "سأراها لاحقاً".

نظر إلى شريكه. وترك الصمت يسود بينهما.

"ماذا؟". قال تشاك أخيراً. "لا أعرف من ذلك جو اللعين؟ لذلك تنظر إليّ الآن بغرابة؟".

"أنا لا أنظر إليك بغرابة، تشاك. مثلما قلت لك، يختلط عليّ الأمر أحياناً بين بورتلاند وسياتل".

"صحيح. إذاً...".

قال تيدي: "فلنتابع المشي".

وقف تيدي. بقي تشاك جالساً لبضع ثوان، ينظر إلى قطعة الورق المتدلية من يده. نظر إلى الأشجار حولهما. نظر إلى تيدي. نظر نحو الشاطئ.

صدح صوت المنارة مجدداً.

وقف تشاك، وأعاد قطعة الورق إلى جيبه الخلفي.

قال: "حسناً". قال: "في كل الأحوال، قرر أنت الطريق".

بدأ تيدي المشي شرقاً نحو الغابة.

قال تشاك: "إلى أين تذهب؟ آشكليف في الجهة الأخرى".

نظر تيدي إليه. "لست ذاهباً إلى آشكليف".

بدا تشاك منزعجاً، لا بل خائفاً ربما. "إلى أين تذهب إذاً، تيدي؟".

ابتسم تيدي.

"إلى المنارة، تشاك".

قال تشاك: "أين نحن؟".

"هنا".

خرجا من الغابات وبدلاً من أن يجدا نفسيهما أمام السور المحيط بالمنارة، أصبحا، نوعاً ما، إلى شمالها. تحولت الغابة إلى نهر صغير بفعل

العاصفة، وأجبرا على اتباع مسار مستقيم حددته مجموعة من الأشجار المتساقطة أو المنحنية. عرف تيدي أنهما انحرفا عن مسارهما قليلاً، لكن، بعد الحكم على حساباته الأخيرة، يبدو أنهما أصبحا بعيدين جداً بقدر المقبرة.

استطاع رؤية المنارة تماماً. برز ثلثها العلوي بوضوح من وراء تلة طويلة مع سلسلة من الأشجار ومجموعة خضراء وبنية من النباتات. مباشرة وراء الحقل الذي وقفا فيه، كان هناك مستنقع طويل، ووراء ذلك، ثمة مجموعة من الصخور السوداء التي شكّلت حاجزاً طبيعياً للمنحدر، وعرف تيدي أن الطريقة الوحيدة الباقية أمامهما هي العودة عبر الغابة والعثور على المكان الذي أخذا فيه المنعطف غير الصحيح، من دون الحاجة إلى العودة مجدداً إلى نقطة الانطلاق الأساسية.

قال ذلك لتشاك.

استخدم تشاك عصا لضرب ساقي سرواله بعنف للتخلص من الأشواك. "أو يمكننا الدوران والتوجه من الشرق. هل تذكر ما حصل مع ماكفرسون الليلة الماضية؟ استخدم السائق ما يشبه الطريق. لا بد أنها المقبرة الموجودة فوق الهضبة هناك. هل نجرّب ذلك الطريق؟".

"إنها أفضل من الطريق التي جئنا منه للتو".

"أوه، لم تحب ذلك". مرر تشاك راحة يده فوق الجهة الخلفية لعنقه. "أنا أحب البعوض. في الواقع، أظن أن هناك بقعة أو بقعتين على وجهي لا تريدان الاختفاء".

إنه أول حديث بينهما منذ أكثر من ساعة، وأحسّ تيدي أنهما يحاولان تجاوز فقاعة التوتر التي نشأت بينهما.

لكن اللحظة انتهت حين بقي تيدي صامتاً لوقت طويل جداً وتحرك تشاك بمحاذاة الحقل، متوجهاً، نوعاً ما، نحو الغرب الشمالي، علماً أن الجزيرة كانت تدفعهما طوال الوقت باتجاه شواطئها.

راقب تيدي ظهر تشاك فيما مشيا، وتسلقا، ومشيا. إنه شريكه. هذا ما قاله لنويس. قال له إنه يثق به. ولكن لماذا؟ لأنه مجبر على ذلك. لأنه لا يمكن التوقع من أي رجل أن ينجز هذه المهمة بمفرده.

إذا اختفى، إذا لم يعد أبداً من هذه الجزيرة، يبقى السيناتور هورلي صديقاً جيداً. لا شك في ذلك. سيتم تدوين الاستعلامات. سيتم سماعها. لكن في المناخ السياسي الحالي، هل سيكون صوت ديمقراطي غير معروف، نسبياً من ولاية نيوإنجلند الصغيرة، قوياً كفاية؟

اهتم المارشالات بأنفسهم. سيتم حتماً إرسال رجال. لكن السؤال هو متى. هل سيصلون إلى هناك قبل أن تقوم آشكليف وأطباؤها بإيذاء تيدي بطريقة، لا يمكن إصلاحها، وتحويله إلى نويس جديد؟ أو إلى أسوأ، إلى رجل مجنون تماماً؟

أمل تيدي في ذلك، لأنه كلما وجد نفسه ينظر إلى ظهر تشاك، ازداد يقينه في أنه لوحده في هذه المهمة. لوحده تماماً.

قال تشاك: "المزيد من الصخور".

كانا على قمة جبل ضيقة ناتئة مباشرة فوق البحر الممتد إلى يمينهما مع سهل منبسط إلى يسارهما، فيما الرياح تعصف، وأصبحت السماء حمراء بنية مع مذاق مالح في الهواء.

كانت كومات الصخور متباعدة في السهل المنبسط. تسع كومات منها في ثلاثة صفوف، محمية من كل الجوانب بمنحدرات تطوق السهل مثل وعاء.

قال تيدي: "ماذا؟ هل نتجاهل الموضوع؟".

رفع تشاك يده إلى السماء. "ستغيب الشمس بعد ساعتين تقريباً. لسنا أمام المنارة، في حال لاحظت ذلك. ولسنا حتى في المقبرة. ولسنا

واثقـين حـتى من أننا نستطيع الوصول إلى هناك من هنا. وأنت تريد نـزول كل هذه المسافة للنظر إلى الصخور!".

"هاي، إذا كان هذا رمزاً...".

"ومـا الأهمـية في هذه المرحلة؟ لدينا إثبات على أن لايديز هنا، رأيـت نـويس، كل ما علينا فعله هو العودة مع هذه المعلومات وهذا الدليل. ونكون أنجزنا مهمتك".

كان محقاً. عرف تيدي ذلك.

لكنه محق، لو كانا لا يزالان يعملان في الجانب نفسه.

هما لا يعملان، وهذا رمز لا يريد منه تشاك أن يراه...

قـال تـيدي: "عشر دقائق للنـزول إلى الأسفل، وعشر دقائق للصعود مجدداً".

جلـس تيدي بتعب كبير على سطح الصخرة الداكنة، وأخرج سيجارة من جيبه. "جيد. لكنني سأعفي نفسي من هذه المهمة".

"مثلما تريد".

طـوّق تـشاك يديـه حول السيجارة، فيما أشعلها. "هذه هي الخطة".

راقب تيدي الدخان يتمايل عبر أصابعه الملتوية ويتجه نحو البحر.

قال تيدي: "أراك".

كان تشاك يدير له ظهره. "حاول ألا تكسر عنقك".

نـزل تيدي المنحدر في سبع دقائق، أي أقل بثلاث دقائق من تقديره الأساسي، لأن الأرض كانت رخوة ورملية وانـزلق فيها مرات عدة. تمنى لو أنه شرب المزيد من القهوة هذا الصباح لأن معدته كانت تكركـر من فراغها، فيما أفضت قلة السكر في دمه، مع قلة النوم، إلى توليد أزيز في رأسه، وظهور بقع طافية أمام عينيه.

أحصى الصخور في كل كومة، ودوّنها في دفتره بالترافق مع نظائرها الأبجدية قربها:

13(M)-21(U)-25(Y)-18(R)-1(A)-5(E)-8(H)-15(O)-9(I)

أغلق الدفتر ووضعه في جيبه الأمامي، وبدأ يتسلق مجدداً المنحدر الرملي، وشقّ طريقه عبر الجزء الأكثر انحداراً، مقتلعاً كمشات من عشب البحر معه كلما انزلق. احتاج إلى خمس وعشرين دقيقة للصعود مجدداً وقد أصبحت السماء برونزية داكنة، وعرف أن تشاك كان محقاً، مهما كان رأيه فيه. إنهما يخسران النهار بسرعة، وكانت هذه مضيعة للوقت، أياً كان الرمز.

لن يستطيعا الوصول الآن ربما إلى المنارة، وإذا وصلا، ماذا بعدها؟ إذا كان تشاك يعمل معهم، سيكون ذهاب تيدي معه إلى المنارة أشبه بالعصفور الذي يطير نحو مرآة.

رأى تيدي أعلى الهضبة والقسم الناتئ من القنّة والسماء البرونزية المقوّسة فوقه، وقال لنفسه، لا بد أن الأمر كذلك، دولوريس. قد يكون هذا أفضل ما أستطيع تقديمه في الوقت الحاضر. سيحيا لايديز. ستستمر آشكليف. لكننا سنرضي أنفسنا بالمعرفة أننا بدأنا عملية، عملية يمكن أن تفضي في النهاية إلى انهيار كل شيء.

عثر على شقّ في أعلى الهضبة، على فتحة ضيقة تلتقي بالقنّة مع تآكل كبير بحيث خطرت لتيدي فكرة الوقوف في الشق، وجعل ظهره على الجدار الرملي، ووضع كلتا يديه على الصخرة المسطحة فوقه، ودفع نفسه إلى الأعلى كفاية بحيث يستطيع بسط صدره على القنّة، وسحب ساقيه مباشرة خلفه.

استلقى على جانبه، ونظر إلى البحر. كان أزرق جداً في هذا الوقت من اليوم، ونابضاً جداً بحيث تلاشى بعد الظهر حوله. استلقى

هـــناك، وأحسّ بالنسمات على وجهه وبالبحر المنبسط إلى الأبد تحت الـــسماء المظلمـــة، وشعر أنه صغير جداً، بشري عاجز، لكنه لم يكن شـــعوراً موهناً. إنه على العكس شعور فخر. أن يكون جزءاً من هذا. بقعة، نعم. لكن جزءاً منه، واحداً معه، يتنفس.

نظر إلى الحجر الداكن المسطح، وضغط بوجنته عليه، وانتبه حينها إلى أن تشاك ليس معه.

17

استلقت جثة تشاك في أسفل المنحدر، وغمرتها المياه.

انـــــزلق تيدي فوق حافة القنّة، وفتش في الصخور السوداء بكعب حذائه إلى أن أصبح واثقاً تماماً من أنها تستطيع تحمل وزنه. أخرج نَفَساً لم يكـــن يعلـــم حتى أنه يحبسه في صدره، وجعل مرفقيه تنـــزلقان عن حافة القـــنّة، وأحـــسّ بقدمـــيه تغوصان في الصخور، وتحسس تغيراً في شكل الـــصخور وانحنى كاحله اليمين إلى اليسار، وانـــزلق على وجه المنحدر، وألقى بثقل أعلى جسمه عليه، وأصبحت الصخور تحت قدميه.

برم جسمه، وأخفض نفسه إلى أن أصبح مسحوقاً مثل السلطعون على الصخور، وبدأ النـــزول. ما من طريقة لفعل ذلك بسرعة. بعض الـــصخور ناتـــئة بقوة في المنحدر، وثابتة جداً مثل المسامير في خوذة المعـــركة. ثمة صخور أخرى غير مثبتة بأي شيء باستثناء الصخور التي تحتها، ولا يمكنك معرفتها إلا بعد وضع وزنك على إحداها.

بعـــد عـــشر دقائق تقريباً، رأى واحدة من سجائر لاكي الخاصة بتـــشاك، نـــصف مدخنة، وقد أصبحت الجمرة سوداء ومستدقة مثل طرف قلم الرصاص.

ما الذي سبب السقوط؟ صحيح أن الهواء هبّ، لكنه لم يكن قوياً كفاية لرمي رجل عن منبسط.

فكّـــر تـــيدي في تشاك، هناك، لوحده، يدخن سيجارته في آخر دقـــيقة من حياته، وفكّر في كل الأشخاص الآخرين الذين كان يهتم

بأمـــرهم وماتوا حين كان يخدم في الجندية. دولوريس، طبعاً، ووالده، في مكـــان ما في قعر هذا البحر نفسه. أمه، حين كان عمره ستة عشر عامـــاً. تـــوتي فيسيلي، الذي تعرض لطلق ناري بين أسنانه في صقلية، وابتسم بغرابة لتيدي، كما لو أنه ابتلع شيئاً فاجأه مذاقه، ثم تدفق الدم عـــبر زاويتي فمه. مارتن فيلان، جايسون هيل، ذلك القنّاص البولندي من بيتسبورغ، ما كان اسمه؟ يارداك، هذا هو، يارداك غيليبيوفسكي. الولد الأشقر الذي جعلهم يضحكون في بلجيكا. تعرض لطلق ناري في الساق، وبدا كأنه لم يحدث أي شيء إلى أن استمر النـــزف إلى ما لا نهايـــة. وفرانكي غوردون، طبعاً، الذي تركه في الكوكونات غروف تلك الليلة. بعد عامين، رمى تيدي سيجارة على خوذة فرانكي، وقال لـــه إنه أحمق لعين وقال فرانكي: "أنت تشتم أفضل من أي رجل آخر عـــرفته...". وداس على لغم. ما زال تيدي يحتفظ بشظية في ربلة ساقه اليسرى.

والآن تشاك.

هل سيعرف تيدي يوماً إذا كان يجدر به الوثوق به؟ إذا كان يجدر به الشك فيه؟ تشاك، الذي جعله يضحك وجعل المهمة الشاقة في الأيام الثلاثة الماضية أسهل بكثير. تشاك، الذي قال هذا الصباح إنهمـــا ســـيتناولان عجـــة البـــيض للفطور وشرائح اللحم الرفيعة للغداء.

نظـــر تيدي مجدداً إلى أعلى القنّة. حسب تقديره، أصبح الآن في منتـــصف الطريق وباتت السماء زرقاء داكنة مثل البحر وتزداد دكنتها كل ثانية.

ما الذي جعل تشاك يقع من فوق؟

لا شيء طبيعي.

إلا إذا أوقـــع شيئاً ما. إلا إذا لحق بشيء ما إلى الأسفل. إلا إذا، كما هي حال تيدي الآن، حاول شق طريقه إلى أسفل الجرف وأمسك بصخور غير ثابتة ربما.

توقف تيدي لالتقاط أنفاسه، وتصبب العرق من وجهه. رفع يداً بحـــذر عن الجرف ومسحها بسرواله، إلى أن جفت تماماً. أعادها إلى حيث كانت، ثم فعل الشيء نفسه باليد الأخرى، وحين أعاد تلك اليد إلى صخرة ناتئة، رأى الورقة قربها.

كانـــت مقحمة بين صخرة، وبين كومة بنية من الجذور وتتطاير قلـــيلاً في هـــواء البحر. رفع تيدي يده عن الصخرة السوداء وأمسك بالورقة بين أصابعه و لم تكن هناك حاجة إلى فتح الورقة لمعرفة محتواها.

إنها استمارة دخول لايديز.

وضع الورقة في جيبه الخلفي، وتذكر كيف استقرت من دون ثبات في جيب تشاك الخلفي، وعرف الآن سبب نـــزول تشاك إلى هنا.

من أجل هذه الورقة.

من أجل تيدي.

آخـــر عشرين قدماً من الجرف كانت مؤلفة من صخور ضخمة، بـــيوض سوداء عملاقة، مغطاة بالطحالب، واستدار تيدي حين وصل إلـــيها، اســـتدار بحيث أصبحت ذراعاه خلفه، ودعم بكعب يديه كل وزنه، وشق طريقه عبر هذه الصخور ورأى جرذاناً مختبئة في صدوعها.

حـــين وصل إلى آخر الصخور، أصبح على الشاطئ، وبحث عن جـــثة تشاك ثم مشى إليها وأدرك أنها ليست جثة على الإطلاق. مجرد صخرة أخرى، أصبحت بيضاء بفعل الشمس، مغطاة بحبال سميكة من الطحالب البحرية.

شكراً... نوعاً ما. تشاك ليس ميتاً. تشاك ليس هذه الصخرة الطويلة الضيقة المغطاة بالطحالب البحرية.

طوّق تيدي فمه بيديه ونادى اسم تشاك بأعلى ما يمكن عبر الجرف. نادى ونادى واستطاع سماع الصدى ينتقل في البحر ويرتدّ على الصخور وينتقل مع النسمات، وانتظر لرؤية رأس تشاك يظهر فوق القنّة.

كان يستعد ربما للنزول للبحث عن تيدي. قد يكون هناك الآن، يستعد.

صرخ تيدي اسمه إلى أن تجرّحت حنجرته به.

ثم توقف وانتظر سماع تشاك يناديه. أصبحت الدنيا مظلمة جداً لرؤية ما هو موجود في أعلى ذلك الجرف. سمع تيدي صوت الهواء. سمع الجرذان في صدوع الصخور. سمع صوت نورس، صوت المحيط. وبعد دقائق قليلة، سمع صوت منارة بوسطن مجدداً.

تكيّف نظره مع الظلمة ورأى عيوناً تراقبه. عشرات العيون. استقرت الجرذان على الصخور الضخمة وحدقت إليه، من دون خوف. هذا شاطئها ليلاً، وليس شاطئه.

إلا أن تيدي كان خائفاً من الماء. وليس من الجرذان. اللعنة على تلك الكائنات الصغيرة الحقيرة. يستطيع قتلها بالرصاص. ليرى كم سيبقى منها بعد، أن ينفجر عدد من أصدقائها.

إلا أنه لا يملك مسدساً، وقد تضاعف عدد الجرذان، فيما كان يراقبها. تحركت ذيول طويلة جيئة وذهاباً فوق الحجارة. شعر تيدي بالماء يرتطم بكاحليه وشعر بكل تلك العيون على جسمه، وسواء بدافع الخوف أو غير الخوف، بدأ يشعر بوخز في عموده الفقري، وبإحساس حكاك في كاحليه.

بدأ يمشي ببطء على الشاطئ ورأى أن هناك المئات منها، تستقر على الصخور تحت ضوء القمر مثلما تفعل عجول البحر تحت الشمس. راقبها وهي تقفز عن الصخور إلى الرمل، حيث كان يقف قبل لحظات قليلة فقط، وبرم رأسه ونظر إلى ما بقي من الشاطئ الممتد أمامه.

ليس كثيراً. ثمة جرف آخر ناتئ في المياه لمسافة ثلاثين ياردة تقريباً، وقد قطع الشاطئ فعلياً إلى جزءين، وإلى يمينه، بعيداً في المحيط، استطاع تيدي رؤية جزيرة لم يعرف حتى إنها موجودة هناك. استقرت تحت ضوء القمر مثل لوح صابون بني، وبدت قبضتها في البحر ثابتة تماماً. كان على تلك الأجراف في اليوم الأول مع ماكفرسون. لا توجد جزيرة هناك. إنه واثق من ذلك.

من أين أتت إذاً؟ هذه الجزيرة؟

استطاع سماعها الآن، بعضها تتشاجر مع بعضها، لكن معظمها الآخر تنقر بأظافرها على الصخور وتصرخ على بعضها بعضاً، وأحس تيدي بالحكاك الذي في كاحليه ينتشر إلى ركبتيه وداخل فخذيه.

نظر إلى الخلف، نحو الشاطئ والرمل الذي اختفى تحت الجرذان.

نظر إلى الأعلى إلى الجرف، شاكراً القمر، الذي كان بدراً تقريباً، والنجوم، التي كانت ساطعة ولامتناهية. ورأى لوناً لا يبدو منطقياً أكثر من الجزيرة التي لم تكن موجودة قبل يومين.

إنه لون برتقالي. في منتصف الجرف الأكبر. برتقالي. في جرف أسود. عند الغسق.

حدّق تيدي إليه وراقبه وهو يومض، بحيث يختفي ثم يتوهج، ويختفي ويتوهج. مثل النبض، فعلاً.

مثل اللهبة.

أدرك أنه كهف. أو على الأقل صدع كبير الحجم. وثمة شخص فيه هناك. تشاك. لا بد من ذلك. لقد طارد ربما الورقة نزولاً في القنة. وتعرض ربما للأذى وانتهى في شق طريقه عبر الجرف بدلاً من النزول إلى الأسفل.

نزع تيدي قبعته واقترب من أقرب صخرة ضخمة. قامت نصف دزينة من أزواج العيون بمراقبته ولوّح لها تيدي بالقبعة فجفلت وبرمت أجسامها المقرفة على الصخرة الضخمة، وتقدم تيدي إلى هناك بسرعة وركل بعض الجرذان الموجودة على الصخرة التالية فتنحت له جانباً، ثم ركض فوق الصخور، وقفز من واحدة إلى أخرى، مع عدد أقل من الجرذان كل مرة، إلى أن لم يعد هناك أي جرذ في انتظاره فوق الصخور السوداء القليلة الأخيرة، ثم راح يتسلق وجه الجرف، فيما لا تزال يداه تنزفان من النزول.

إلا أن التسلق كان سهلاً. كان الجرف أعلى وأعرض كثيراً من الجرف الأول، وإنما مع تدرجات ملحوظة والمزيد من النتوءات فيه.

احتاج إلى ساعة ونصف الساعة تحت ضوء القمر، وتسلق، فيما النجوم تراقبه تماماً مثلما فعلت الجرذان، وفقد دولوريس في أثناء التسلق، فلم يستطع تصورها، و لم يستطع رؤية وجهها أو يديها أو شفتيها العريضتين. شعر أنها خرجت منه بطريقة لم يشهدها قبلاً منذ أن ماتت، وعرف أن السبب هو كل الجهد الجسدي وقلة النوم وقلة الطعام، لكنها اختفت. اختفت، فيما تسلق هو الجرف تحت ضوء القمر.

إلا أنه استطاع سماعها. بالرغم من أنه لم يستطع تصورها، استطاع سماعها في دماغه وكانت تقول له، هيا، تيدي، تابع. يمكنك العيش مجدداً.

هل هذا كل ما في الأمر؟ بعد سنتين من المشي تحت الماء، من التحديق إلى مسدسه الموضوع على الطاولة في غرفة الجلوس، فيما هو جالس في العتمة يستمع إلى تومي دورسي وديوك إلنغتون، من التأكد أنه لا يستطيع المضي قدماً، ولو خطوة واحدة في هذه الحياة اللعينة، من الاشتياق لها بقوة لدرجة أنه جعل ذات مرة إحدى أسنانه القاطعة تسحق أسنانه بدافع الحاجة إليها. بعد كل ذلك، هل يمكن أن تكون فعلاً هذه هي اللحظة التي يتخلى فيها عنها؟

لم أكن أحلم بك، دولوريس. أعرف ذلك. لكن في هذه اللحظة، أشعر وكأنني فعلت.

ويفترض ذلك، تيدي. يفترض ذلك. دعني أذهب.

حقاً؟

نعم صغيري.

سأحاول. اتفقنا؟

اتفقنا.

استطاع تيدي رؤية الضوء البرتقالي ي ض فوقه. استطاع الإحساس بالحرارة، ولو بالكاد، ولكنه غير مخطئ في ذلك. وضع يده على النتوء الصخري الذي فوقه، ورأى الانعكاس البرتقالي على معصمه فدفع نفسه إلى الأمام على مرفقيه ورأى الضوء منعكساً على الجدران المتصدعة. وقف. كان سقف الكهف أعلى بإنش واحد فقط من رأسه، ورأى أن الفتحة منحنية إلى اليمين فلحق بها ووجد أن الضوء منبعث من كومة من الأخشاب في فجوة صغيرة، محفورة في أرض الكهف ووقفت المرأة عند الجهة الأخرى من النار ووضعت يديها وراء ظهرها وقالت له: "من أنت؟".

"تيدي دانيالز".

كـــشفت المرأة عن شعر طويل وارتدت القميص الوردي الفاتح الخاص بالمرضى وسروالاً مربوطاً عند الخصر وانتعلت خفاً.

قالت: "هذا هو اسمك. ولكن ماذا تفعل؟".

"أنا شرطي".

أمالت رأسها، وقد بدأ الشيب يظهر في شعرها. "أنت المارشال".

أومأ تيدي برأسه. "هلا أزحت يديك من وراء ظهرك؟".

قالت: "لماذا؟".

"لأنني أريد أن أعرف ماذا تحملين".

"لماذا؟".

"لأنني أريد أن أعرف إذا كنت تستطيعين إيذائي".

ابتسمت عندها ابتسامة صغيرة. "أفترض أن هذا عادل".

"أنا مسرور لك".

رفعـــت يـــديها من وراء ظهرها، وكانت تحمل مبضعاً جراحياً طويلاً ورقيقاً. "سأستمر في حمله، إذا كنت لا تمانع".

رفع تيدي يديه. "لا مشكلة عندي".

"هل تعرف من أكون؟".

قال تيدي: "مريضة من آشكليف".

أمالـــت رأســـها مـــرة أخـــرى ولمست ثوبها. "ما الذي دفعني للهروب؟".

"حسناً، حسناً. نقطة جيدة".

"هل كل المارشالات الأميركيين أذكياء هكذا؟".

قال تيدي: "لم أتناول الطعام منذ مدة. أنا الآن أبطأ من المعتاد".

"هل نمت كثيراً؟".

"ما هذا؟".

"منذ وجودك على الجزيرة. هل نمت كثيراً؟".

"ليس جيداً إذا كان هذا يعني أي شيء".

"أوه، يعني". رفعت سروالها إلى الركبتين وجلست على الأرض، وأشارت إليه لفعل الشيء نفسه.

جلس تيدي وحدّق إليها فوق النار.

قال: "أنت راشايل سولاندو. الحقيقية".

هزّت كتفها.

"هل قتلت أولادك؟".

وخزت جذع خشبة بالمبضع. "لم أنجب أبداً أولاداً".

"لا؟".

"لا. لم أتزوج أبداً. ستدرك حين تعرف أنني كنت أكثر من مريضة هنا".

"كيف يمكنك أن تكوني أكثر من مريضة؟".

وخزت جذعاً آخر ودفعته إلى النار وتطايرت الشرارات فوق اللهبة، ثم اختفت قبل أن تصل إلى السقف.

قالت: "كنت من الموظفين. مباشرة بعد انتهاء الحرب".

"هل كنت ممرضة؟".

نظرت إليه من خلال النار. "كنت طبيبة أيها المارشال. أول طبيبة أنثى في مستشفى دراموند في ديلاواير. الأولى بين الموظفين هنا في آشكليف. أنت يا سيدي تنظر إلى رائدة حقيقية".

أو إلى مريضة عقلية مجنونة، قال تيدي لنفسه.

نظر إلى الأعلى ووجد عينيها مسمّرتين عليه، وكانت عيناها لطيفتين ومتعبتين وعارفتين. قالت: "تظن أنني مجنونة".

"لا".

"وماذا سيكون رأيك في امرأة مختبئة في كهف؟".

"فكّرت في أن هناك سبباً لذلك".

ابتسمت بغموض وهزّت رأسها. "لست مجنونة. لست كذلك. وماذا سيقول طبعاً أي شخص مجنون؟ هذه هي العبقرية المطلقة. إذا لم تكن مجنوناً لكن الناس قالوا للعالم إنك مجنون، تصبح كل احتجاجاتك لإثبات العكس مجرد أوهام باطلة. هل تفهم ما أعنيه؟".

قال تيدي: "نوعاً ما".

"انظر إلى المسألة وفق القياس المنطقي. فلنقل إن القياس المنطقي يبدأ من هذه النقطة. الرجال المجانين ينكرون أنهم مجانين. هل تتبعني؟".

قال تيدي: "طبعاً".

"حسناً. الجزء الثاني: بوب ينكر أنه مجنون. الجزء الثالث: جزء إذاً. إذاً، بوب مجنون". وضعت المبضع على الأرض قرب ركبتها وحركت النار بعود خشبي. "إذا تم اعتبارك مجنوناً، فإن كل الأفعال التي تثبت للآخرين أنك لست كذلك، تصبح في الواقع في إطار أفعال الشخص المجنون. تصبح احتجاجاتك السليمة *إنكاراً*. تصبح مخاوفك المشروعة *رهاباً*. يطلق على غرائزك للصمود اسم *آليات الدفاع*. ليس هذا وضعاً يمكنك الفوز فيه. إنه بالفعل حكم بالإعدام. حين تصل إلى هنا، لا يمكنك الخروج أبداً. لا أحد يترك الجناح ج. لا أحد. حسناً، لقد فعل بعضهم ذلك، أؤكد لك. لكنهم خضعوا للجراحة. في الدماغ. مباشرة عبر العين. إنها ممارسة طبية بربرية، خالية من الضمير، وقلت لهم ذلك. حاربتهم. كتبت الرسائل. وكان في وسعهم إقالتي، هل تعرف؟ كان في وسعهم طردي أو إقالتي، أو نقلي إلى منصب تعليمي أو حتى إجباري على ممارسة الطب خارج البلاد، لكن هذا لم يكن جيداً كفاية. لم يكن في وسعهم تركي، لا يمكنهم ذلك. لا، لا، لا".

أصبحت أكثر وأكثر اضطراباً، فيما تحدثت، وحركت النار بعودها، وتحدثت إلى ركبتيها أكثر مما تحدثت إلى تيدي.

قال تيدي: "هل كنت فعلاً طبيبة؟".

"أوه، نعم. كنت طبيبة". نظرت فوق ركبتيها وعودها. "في الواقع، ما زلت. لكن، نعم، كنت من بين الموظفين هنا. بدأت أتساءل عن الشحنات الكبيرة من صوديوم أميتال أو الأدوية المهلوسة المرتكزة على الأفيون. بدأت أتساءل - وبصوت عالٍ لسوء الحظ - عن الإجراءات الجراحية التي تبدو اختبارية كثيراً إذا أردنا تلطيف العبارة".

قال تيدي: "ماذا يفعلون هناك؟".

وجهت إليه ابتسامة سخرية منكفئة. "ألا تعرف؟".

"أعرف أنهم يخرقون قانون نورمبرغ".

"يخرقونه؟ لقد انتهكوه كله".

"أعرف أنهم يجرون علاجات جذرية".

"جذرية نعم. علاجات لا. ما من علاج يُجرَى هنا، أيها المارشال. هل تعرف من أين تأتي الأموال الخاصة بهذا المستشفى؟".

أومأ تيدي برأسه. "من مكتب الخدمات الاستراتيجية".

قالت: "من دون أن نذكر مال الرُشى. المال يتدفق بغزارة إلى هنا. اسأل نفسك الآن: كيف يدخل الألم إلى الجسم؟".

"حسب المكان الذي تأذيت فيه".

"لا". هزت رأسها بتعاطف. "لا علاقة له أبداً باللحم. يرسل الدماغ ناقلات عصبية عبر الجهاز العصبي. يتحكم الدماغ بالألم. يتحكم بالخوف، النوم، التعاطف، الجوع، كل ما نربطه بالقلب أو الروح أو الجهاز العصبي يخضع فعلياً لسيطرة الدماغ، كل شيء".

"حسناً...".

سطعت عيناها في نار الموقد. "ماذا لو استطعت السيطرة عليه؟".

"الدماغ؟".

أومأت برأسها. "إعادة ابتكار رجل لا يحتاج إلى النوم، لا يشعر بالألم، أو الحب، أو التعاطف. رجل لا يمكن استجوابه، لأنه تم إخلاء مستوعبات ذاكرته". حرّكت النار ونظرت إليه. "إنهم يبتكرون الأشباح هنا، أيها المارشال. يبتكرون أشباحاً لتخرج إلى العالم وتنجز أفعالاً شبحية".

"لكن هذا النوع من القدرة، هذا النوع من المعرفة هو...".

وافقته الرأي: "يحتاج إلى سنوات عدة. أوه، نعم. إنها عملية ممتدة على عقود طويلة أيها المارشال. لقد بدأوا من مكان مماثل للذي انطلق منه السوفيات. غسل الدماغ، تجارب الحرمان. تماماً، مثلما أجرى النازيون اختباراتهم على اليهود لرؤية تأثير الدرجات المفرطة من الحرّ والبرد وتطبيق هذه النتائج لمساعدة جنود الرايخ. لكن، ألا تفهم أيها المارشال؟ بعد نصف قرن من الآن، سينظر الناس إلى الخلف ويقولون: ضربت الأرض القذرة بسبابتها؛ "هنا بدأت كل القصة. استخدم النازيون اليهود. استخدم السوفيات السجناء في زنزاناتهم. وهنا، في أميركا، اختبرنا المرضى في هذه الجزيرة".

لم يقل تيدي أي شيء. لم تخطر له أي كلمة.

نظرت مجدداً إلى النار. "لا يمكنهم أن يسمحوا لك بالمغادرة. أنت تعرف هذا، أليس كذلك؟".

قال تيدي: "أنا مارشال فدرالي. كيف سيتمكنون من منعي؟".

أدى ذلك إلى رسم ابتسامة على وجهها وإلى تصفيق بيديها. "كنت طبيبة نفسية محترمة من عائلة محترمة. ظننتُ ذات مرة أن هذا

كـــاف. أكره إبلاغك بذلك، لكنه لم يكن كافياً. دعني أسألك أمراً؛ هل عانيت من أي صدمات سابقة في حياتك؟".

"ومن منا لا يملك مثل هذه الصدمات؟".

"آه، نعـــم. لكنـــنا لا نتحدث عن العموميات، أو عن أشخاص آخـــرين. نحن نتحدث عن خصوصيات. أنت. هل لديك نقاط ضعف نفـــسية يمكن استغلالها؟ هل هناك حدث أو أحداث في ماضيك يمكن اعتـــبارها بمثابة عوامل منذرة لفقدانك صوابك؟ هكذا، حين يحكمون علـــيك هنا، وسيفعلون، يقول أصدقاؤك وزملاؤك: *طبعاً. لقد انهار، أخـــيراً، ومن لا يفعل ذلك؟ إنها الحرب التي سببت له ذلك. وخسارة أمه، أو أي كان*. ما رأيك؟".

قال تيدي: "يمكن قول ذلك عن أي شخص".

"حـــسناً، هذه هي النقطة. ألا ترى؟ نعم يمكن قول ذلك عن أي شخص، لكنهم سيقولونه عنك أنت. كيف حال رأسك؟".

"رأسي؟".

قضمت شفتها السفلية وأومأت برأسها مرات عدة. "نعم، الكتلة الـــتي فـــوق رأســـك. كـــيف حالها؟ هل من أحلام غريبة في الآونة الأخيرة؟".

"طبعاً".

"صداع؟".

"أنا عرضة لصداع الشقيقة".

"الله. لا".

"بلى".

"هل تناولت أي أدوية منذ مجيئك إلى هنا، حتى الأسبيرين؟".

"نعم".

"هـل تشعر أنك لست على ما يرام ربما؟ لست على بعضك مئة بالمـئة؟ تقول لنفسك أوه ليست هذه مشكلة كبيرة، وإنما تشعر فقط ببعض الانـزعاج. أو ربما لا ينجز دماغك الروابط بسرعة مثل المعتاد. لكـنك تقول لنفسك إنك لا تنام جيداً. سرير غريب، مكان غريب، عاصفة. تقول هذه الأمور لنفسك. صحيح؟".

أومأ تيدي برأسه.

"وأفترض أنك تناولت الطعام في الكافيتيريا، وشربت القهوة التي قدموها لك. أخبرني على الأقل أنك تدخن سجائرك الخاصة".

اعترف تيدي: "سجائر شريكي".

"لم تأخذ أبداً أي سيجارة من طبيب أو ممرض؟".

تذكر تيدي السجائر التي ربحها في البوكر تلك الليلة ووضعها في جـيب قميصه. تذكر أنه دخن سيجارة من سجائر كاولي يوم وصلا، وكـيف كـان طعمها أطيب من كل السجائر الأخرى التي دخنها في حياته.

استطاعت رؤية الجواب في وجهه.

"تبرز الحاجة إلى ثلاثة أو أربعة أيام كي تصل المخدرات العصبية إلى مستويات قوية في الدم. خلال هذا الوقت، بالكاد تلاحظ تأثيراتها. في بعـض الأحيان، يعاني المرضى من نوبات. لكن يظن خطأ أن هذه الـنوبات هي نوبات صداع الشقيقة، خصوصاً إذا كان المريض يملك تاريخـاً لصداع الشقيقة. على كل حال، تكون هذه النوبات نادرة. في العادة، تكمن التأثيرات الوحيدة الملحوظة في أن المريض...".

"توقفي عن مناداتي بالمريض".

"... يحلـم بـيقظة متزايدة ولفترات أطول من الوقت، وتختلط الأحلام غالباً ببعضها، وتدعم بعضها بعضاً إلى أن تصبح شبيهة برواية

كتـــبها بيكاسو. أما التأثير الآخر الملحوظ فهو إحساس المريض، أوه، ببعض الارتباك. تكون أفكاره أقل وضوحاً. لكنه لا ينام جيداً، مع كل تلـــك الأحـــلام، ولـــذلك يمكن مسامحته على الإحساس قليلاً ببعض الارتباك. ولا، أيها المارشال، لم أكن أناديك بالمريض. ليس بعد. كنت أتحدث في العموميات".

"إذا تفاديت كل الطعام والسجائر، والقهوة، والأدوية، فما مقدار الضرر الذي يمكن أن يكون قد لحق بـــي؟".

أبعدت شعرها عن وجهها وبرمته في عقدة وراء رأسها. "أخشى أن يكون حصل الكثير".

"لنقل إنني لم أتمكن من الخروج من هذه الجزيرة قبل الغد. ولنقل إن المخدرات بدأت تعطي تأثيرها. كيف سأعرف؟".

"الأدلة الأكثر بروزاً هي فم جاف مترافق مع لعاب سائل، شلل ارتجافي. ستلاحظ ارتجافات صغيرة. تبدأ حين يلتقي معصمك بإبهامك وتمتد عادة على طول الإبهام لبعض الوقت قبل أن تصل إلى يديك".

هذا ما يحصل معه.

قال تيدي: "ماذا أيضاً؟".

"حساسية للضوء، صداع في القسم الأيسر من الدماغ، كلمات متلعثمة. ستتأتئ أكثر".

اســـتطاع تـــيدي سماع المحيط في الخارج، والمدّ القادم، المرتطم بالصخور.

قال: "ماذا يحصل في المنارة؟".

هزّت كتفها وانحنت إلى الأمام نحو النار. "جراحة".

"جراحة؟ يمكنهم إنجاز الجراحة في المستشفى؟".

"جراحة دماغ".

قال تيدي: "يمكنهم فعل ذلك هناك أيضاً!".

حـــدّقت إلى اللهب المشتعل. "جراحة استكشافية. ليس من نوع *لنفتح الجمجمة ونصلح ذلك* وإنما من نوع *لنفتح الجمجمة ونرى ماذا يحصل إذا سحبنا هذا*. النوع غير الشرعي، أيها المارشال. النوع الذي جـــرى تعلمـــه مـــن الـــنازيين". ابتسمت له. "هناك يحاولون ابتكار أشباحهم".

"ومن يعرف عن ذلك؟ أقصد في الجزيرة؟".

"بشأن المنارة؟".

"نعم، المنارة".

"الجميع".

"هيا. حتى الممرضون والممرضات".

نظـــرت إلى عـــيني تـــيدي عبر اللهب، وكانت نظرتها ثابتة وصافية.

كررت: "الجميع".

لا يذكر أنه نام، لكن لا بد من ذلك لأنها كانت تهزه.

قالت: "عليك الذهاب. يظنون أنني ميتة. يظنون أنني غرقت. إذا جاؤوا للبحث عنك، سيعثرون عليّ. أنا آسفة. لكن عليك الذهاب".

وقف وفرك وجنتيه مباشرة تحت عينيه.

قالـــت: "ثمة طريق إلى شرق أعلى هذا الجرف. اتبعها وستقودك إلى الغرب. ستصبح وراء قصر القيادة السابق بعد ساعة مشي تقريباً".

قـــال: "هـــل أنت راشايل سولاندو؟ أعرف أن التي التقيت بها كانت مزيفة".

"وكيف تعرف؟".

تذكر تيدي إبهاميه الليلة الفائتة. كان يحدق إليهما حين وضعاه في السرير. وحين استيقظ، وجد أنه تم تنظيفهما. قال لنفسه: إنه طلاء أحذية، ثم تذكر أنه لمس وجهها...

قال: "كان شعرها مصبوغاً. حديثاً".

"عليك الذهاب". برمت كتفه برفق نحو فتحة الكهف.

قال: "إذا احتجتُ إلى العودة".

"لن أكون هنا. أتحرك خلال النهار. أماكن جديدة كل ليلة".

"لكنني قد أعثر عليك وآخذك من هنا".

وجهت إليه ابتسامة حزينة ومشطت الشعر عند صدغيه. "لم تسمع كلمة واحدة مما قلته لك، أليس كذلك؟".

"نعم".

"لن تخرج أبداً من هنا. أنت واحد منا الآن".

ضغطت بأصابعها على كتفه ودفعته نحو فتحة الكهف.

توقف تيدي عند الفتحة ونظر مجدداً إليها. "لديّ صديق. كان معي الليلة، ثم انفصلنا. هل رأيته؟".

وجهت إليه الابتسامة الحزينة نفسها.

قالت: "أيها المارشال، لا تملك أصدقاء".

18

حين وصل إلى الجهة الخلفية لمنـــزل كاولي، بالكاد كان يستطيع المشي.

شـــق طريقه من خلف المنـــزل وبدأ يمشي في الطريق المؤدي إلى الـــباب الرئيس، وهو يشعر أن المسافة تضاعفت أربع مرات منذ هذا الصباح، وخرج رجل من الظلام وأصبح على جانب الطريق قربه ومرر ذراعه تحت ذراع تيدي وقال: "كنا نتساءل متى ستظهر".

إنه آمر السجن.

كانـــت بـــشرته بيضاء مثل الشمع، وناعمة، كما لو أنه جرى صـــقلها، وشـــفافة تقريباً. لاحظ تيدي أن أظافره طويلة وبيضاء مثل بشرته، وأطرافها على وشك الانعقاف ومبرودة تماماً. لكن عينيه كانتا الشيء الأكثر إرباكاً فيه. باللون الأزرق الحريري، مع تساؤل غريب. عينا طفل.

"سررت أخيراً بلقائك حضرة آمر السجن. كيف حالك؟".

قال الرجل: "أوه. بأفضل حالاتي. وأنت؟".

"لم أكن يوماً أفضل حالاً".

ضغط آمر السجن على ذراعه. "سررت لسماع ذلك. هل كنت تقوم بنـــزهة تسلية؟".

"حـــسناً، بعد أن تم العثور الآن على المريضة، فكّرت في أن أقوم بجولة في الجزيرة".

"أنا واثق من أنك استمتعت".

"تماماً".

"رائع. هل صادفتَ السكان الأصليين عندنا؟".

احــتاج تــيدي إلى دقــيقة. كــان رأسه يئزّ باستمرار. بالكاد استطاعت ساقاه حمله.

قال: "أوه الجرذان!".

ربّــت آمــر السجن على ظهره. "نعم، الجرذان! ثمة شيء فخم بطريقة غريبة فيها، أليس كذلك؟".

نظر تيدي إلى عيني الرجل وقال: "إنها جرذان".

"حيوانات مؤذية. نعم، أفهم. لكن طريقة جلوسها على الصخور وتحــديقها إليك إذا رأت أنك على مسافة آمنة منها، وطريقة تحركها برشاقة، داخل الوكر وخارجه قبل أن تطرف حتى عينك...". نظر إلى الأعلــى، إلى النجوم. "حسناً، قد تكون كلمة فخم غير صحيحة نوعاً ما. ماذا عن *مضيئة*؟ إنها كائنات مفيدة على نحو استثنائي".

وصــلا إلى الــبوابة الرئيسة وأبقى آمر السجن قبضته على ذراع تــيدي واســتدار في مكانه، بحيث أصبحا ينظران إلى منــزل كاولي والبحر في الخلف.

قال آمر السجن: "هل استمتعت بآخر هدية؟".

نظــر تيدي إلى الرجل وأحسّ بالمرض في تلك العينين المثاليتين. "عذراً؟".

قال آمر السجن: "الهدية". وحرّكت ذراعه الأرض الممزقة. "العنف. حــين نــــزلت إلى الطابق السفلي في منــزلي ورأيت الشجرة في غرفة الجلــوس، أحسست أن يداً فعلت ذلك. ليس بصورة حرفية، طبعاً. وإنما بصورة مجازية. إنه يحب العنف. أنت تفهم هذا، أليس كـذلك؟".

قال تيدي: "لا. لا أفهم".

تقدم آمر السجن بضع خطوات إلى الأمام واستدار لمواجهة تيدي. "وما الشيء الآخر الذي يوجد منه بهذا القدر؟ إنه فينا. إنه يخرج منا. هذا ما نفعله بصورة طبيعية أكثر مما نتنفس. نسعى للحرب. نحرق الأضاحي. نمزق لحم إخوتنا. نملأ حقولاً كبيرة بموتانا، لماذا؟ لنظهر له أننا تعلمنا منه".

راقب تيدي يد الرجل وهي تربّت على غلاف الكتاب الصغير الذي حمله قرب بطنه.

ابتسم وكانت أسنانه صفراء.

"نعطى الهزات الأرضية، والأعاصير، والعواصف. نعطى جبال تطلق النار على رؤوسنا. محيطات تبتلع السفن. نعطى الطبيعة، والطبيعة هي قاتل مبتسم. نعطى المرض لكي نظن في مماتنا أننا أعطينا الفتحات فقط لكي نشعر أن الحياة تنزف منها. نعطى الشهوة والغضب والجشع وقلوبنا المليئة بالحقد. بحيث نستخدم العنف بشرف. ما من قانون أخلاقي على الإطلاق. هناك فقط هذا السؤال: هل يستطيع عنفي التغلب على عنفك؟".

قال تيدي: "لست واثقاً من أنني...".

"هل يستطيع؟". اقترب آمر السجن أكثر واستطاع تيدي شمّ رائحة نفسه الكريهة.

سأل تيدي: "يستطيع ماذا؟".

"يستطيع عنفي التغلب على عنفك؟".

قال تيدي: "لست عنيفاً".

بصق آمر السجن على الأرض قرب قدميه. "أنت عنيف بقدرهم حين يأتون. أعرف، لأنني عنيف بقدرهم حين يأتون".

ثبّت تيدي قدميه، وأحسّ بالدم يتدفق عبر ذراعيه.

همس آمر السجن: "نعم، نعم. أصبحت وقيودي أصدقاء".

"مـــاذا؟". وجـــد تيدي نفسه يهمس، فيما جسمه ينبض بوخز غريب.

قـــال آمـــر الـــسجن: "إنه بايرون. ستتذكر هذه العبارة، أليس كذلك؟".

ابتـــسم تيدي، فيما تراجع الرجل خطوة إلى الخلف. "لقد خرقوا فعلاً القانون معك، أليس كذلك يا آمر السجن؟".

ابتسامة رقيقة لتطابق ابتسامة تيدي.

"يظن أنه لا بأس في ذلك".

"في ماذا؟".

"فـــيك. في لعبـــتك. يظن أن هذا غير مؤذٍ نسبياً، لكنني لا أظن ذلك".

"لا؟".

"لا". أنـــزل آمر السجن ذراعه وتقدم بضع خطوات إلى الأمام. شـــبك يديـــه وراء ظهره، بحيث أصبح كتابه لجهة ظهره عند قاعدة عمـــوده الفقـــري، ثم استدار وأبعد قدميه عن بعضهما على الطريقة العسكرية وحدّق إلى تيدي: "يقول إنك خرجت للقيام بنـــزهة، لكنني أعرف أفضل. أعرفك، بنيّ".

قال تيدي: "التقينا للتو".

هزّ آمر السجن رأسه. "نحن نعرف بعضنا منذ قرون. أعرفك في الصميم. وأظن أنك حزين. فعلاً". زمّ شفتيه ونظر إلى حذائه. "لا بأس في الحزن. هذا مثير للشفقة عند الرجال، لكن لا مشكلة في ذلك، لأنه لا يؤثر فيّ. لكنني أظن أيضاً أنك خطير".

قال تيدي: "يملك كل رجل الحق في رأيه".

اسودّ وجه آمر السجن. "لا. الرجال حمقى. يأكلون ويشربون ويطردون الغازات ويتناسلون، وهذه الميزة الأخيرة مؤسفة على وجه التحديد، لأن العالم سيكون أفضل كثيراً مع عدد أقل منا فيه. المتخلفون والمجانين وأصحاب الأخلاق المنحطّة، هذا ما ننتجه. هذا ما نفسد الأرض به. في الجنوب الآن، يحاولون إبقاء زنوجهم في الصف. لكنني سأقول لك شيئاً؛ أمضيت وقتاً في الجنوب، وجميعهم زنوج هناك، بنيّ. زنوج بيض، زنوج سود، زنوج نساء. هناك زنوج في كل مكان وليسوا أكثر فائدة من الكلاب التي تمشي على أربع قوائم. على الأقل، ما زال باستطاعة القلب شمّ الرائحة بين الحين والآخر. أنت زنجي، بنيّ. أنت من طينة سيئة. أستطيع شمّ ذلك عندك".

كان صوته خفيفاً بطريقة مفاجئة، وأنثوياً تقريباً.

قال تيدي: "حسناً، لن تضطر إلى القلق بشأني بعد الصباح، أليس كذلك يا آمر السجن؟".

ابتسم آمر السجن. "لا، لن أفعل، بنيّ".

"سأكون بعيداً عنك وعن جزيرتك".

تقدم آمر السجن خطوتين نحوه، واختفت ابتسامته. أحنى رأسه صوب تيدي وحدّق إليه بطريقة طفولية.

"لن تذهب إلى أي مكان، بنيّ".

"أراهن على العكس".

"راهن على كل ما تشاء". انحنى آمر السجن وشمّ الهواء إلى يسار وجه تيدي، ثم حرّك رأسه وشمّ الهواء إلى يمينه.

قال تيدي: "هل تشمّ شيئاً ما؟".

"همـــم همـمـــم". تراجع آمر السجن إلى الخلف. "أشم شيئاً مثل الخوف، بنيّ".

قال تيدي: "إذاً، عليك الاستحمام ربما، لغسل تلك القذارة عنك".

لم يـــتحدث أي منهما للحظات، ثم قال آمر السجن: تذكر تلك الـــسلاسل أيها الزنجي. إنها صديقتك. واعلم أنني أتطلع كثيراً لرقصتنا الأخيرة. آه، يا للمجزرة التي سنحققها!".

واستدار ومشى في الطريق المؤدي إلى منـــزله.

كان مبنى نوم الرجال مهجوراً. ما من روح داخل المكان. ذهب تـــيدي إلى غرفته وعلّق معطفه في الخزانة وبحث عن دليل لعودة تشاك إلى هنا، ولكنه لم يجد أي شيء.

فكّر في الجلوس على السرير، لكنه عرف أنه إذا فعل، سينام ولن يستيقظ ربما قبل الصباح، ولذلك توجه إلى الحمام وغسل وجهه بالماء البارد، ومشط قصته القصيرة بمشط رطب. شعر بالألم في عظامه وبدا دمـــه كثيفاً مثل اللبن المملّت، وكانت عيناه غارقتين وحمراوين، فيما بـــشرته رمادية. غسل وجهه بالمزيد من الماء البارد ثم جففه وتوجه إلى الخارج نحو المجمّع الرئيس.

لا أحد.

بدأ الهواء يسخن، ويصبح رطباً ودبقاً، وبدأت الصراصير والزيزان تطلـــق أصواتها. تجول تيدي في المكان، على أمل أن يكون تشاك وصل قـــبله نـــوعاً ما، ويفعل ربما الشيء نفسه، يتجول في المكان إلى حين الارتطام بتيدي.

ثمـــة حارس على البوابة، واستطاع تيدي رؤية الأنوار في الغرف، لكن باستثناء ذلك، كان المكان فارغاً. شق طريقه إلى المستشفى وصعد

الـــسلالم وفتح الباب، لكنه وجد أنه مقفل. سمع صليل مفاصل ونظر فـــرأى أن الحـــارس فـــتح البوابة وخرج لينضم إلى صديقه في الجهة الأخـــرى، وحـــين أغلقت البوابة مجدداً، استطاع تيدي سماع حذائه يكشط على أرض الباطون، فيما تراجع بعيداً عن الباب.

جلس على الدرج لدقيقة. هذا كثير نسبة إلى نظرية نويس. الآن تـــيدي، ومن دون أي شك، لوحده تماماً. إنه محبوس، نعم. وإنما غير مراقب، حسبما يعلم.

تـــوجه إلى الجهـــة الخلفية للمستشفى وصدره ممتلئ، حين رأى ممرضاً يجلس على المنبسط الخلفي يدخن سيجارة.

اقتـــرب تـــيدي، ونظر إليه الولد، الذي كان ولداً أسود نحيلاً. سحب تيدي سيجارة من جيبه وقال: "لديك قدّاحة؟".

"طبعاً".

انحـــنى تيدي إلى الأمام، فيما أشعل له الولد السيجارة، وابتسم له ابتسامة الشكر ثم تراجع إلى الخلف، وتذكر ما قالته له المرأة عن تدخين سجائرهم، وجعل الدخان ينبعث ببطء من فمه من دون أن يستنشقه.

قال: "كيف حالك الليلة؟".

"بخير. وأنت سيدي؟".

"أنا بخير. أين الجميع؟".

مـــدّ الـــولد إبهامـــه خلفه. "هناك. ثمة اجتماع كبير. لا أعرف عماذا".

"كل الأطباء والممرضات؟".

أومأ الولد برأسه. "بعض المرضى أيضاً. معظم الحرّاس. أنا علقت هـــنا مع هذا الباب، لأن القفل لا يعمل جيداً. وإلا لكنت هناك أيضاً. نعم الجميع هناك".

مـــجّ تيدي سيجارته مرة جديدة، وأمل ألا يلاحظ الولد ذلك. تـــساءل إذا كـــان يجدر به شق طريقه عبر السلالم، على أمل أن يظنه الولد حارساً آخر، واحداً من الجناح ج ربما.

ثم رأى عـــبر الـــنافذة، الـــتي خلف الولد، أن القاعة تمتلئ، وأن الأشخاص يتوجهون إلى الباب الأمامي.

شكر الولد على القدّاحة وتوجه إلى الأمام، والتقى بمجموعة من الأشخاص يجتمعون هناك، يتحدثون ويشعلون السجائر. رأى الممرضة ماريـــنو تقول شيئاً لتراي واشنطن، ووضعت يدها على كتفه، وحين فعلت، أرجع تراي رأسه إلى الخلف وضحك.

بـــدأ تـــيدي المـــشي نحوهما حين ناداه كاولي من الأعلى: "أيها المارشال!".

اســـتدار تـــيدي ونـــزل كاولي عن السلالم وجاء صوبه، ولمس مرفق تيدي، وبدأ يمشي نحو الجدار.

قال كاولي: "أين كنت؟".

"أتجول. أنظر إلى جزيرتكم".

"حقاً؟".

"حقاً".

"هل وجدت شيئاً ممتعاً؟".

"جرذاناً!".

"حسناً، طبعاً، هناك الكثير منها".

قال تيدي: "كيف حال تصليح السقف؟".

تـــنهد كاولي. "ثمة أوعية في كل أرجاء منـــزلي لاستيعاب الماء المتـــساقط. تم الانـــتهاء من العلّية. وكذلك من الأرضية في غرفة نوم الضيوف. ستفقد زوجتي صوابها. كان فستان زفافها في تلك العلية".

قال تيدي: "أين زوجتك؟".

قال كاولي: "في بوسطن. لدينا شقة هناك. احتاجت هي والأولاد إلى إجـــازة من هذا المكان فأخذوا إجازة لمدة أسبوع. تفقد أعصابك أحياناً".

"مـــضى على وجودي هنا ثلاثة أيام حضرة الطبيب وبدأت أفقد أعصابـــي".

أومأ كاولي برأسه مع ابتسامة لطيفة. "لكنك ستذهب؟".

"أذهب؟".

"إلى المنــــــزل أيها المارشال. الآن بعد أن تم العثور على راشايل. يصل المركب إلى هنا عادة قرابة الحادية عشرة ظهراً. يفترض أن تصل إلى بوسطن عند الظهر، حسبما أتوقع".

"لن يكون ذلك جميلاً".

"بلى، أليس كذلك؟". مرر كاولي يداً فوق رأسه. "أريد أن أقول لك أيها المارشال، ولا أقصد الإهانة...".

"أوه، ها قد عدنا مجدداً".

رفـــع كاولي يده. "لا. لا. لا آراء شخصية في ما يتعلق بحالتك العاطفـــية. لا، كـــنت علـــى وشـــك القول: إن حضورك هنا سبب الاضـــطراب للعديـــد من المرضى. تعرف، وجود الشرطي في المكان. جعل ذلك العديد منهم يشعرون بالتوتر".

"آسف بشأن ذلك".

"ليست هذه غلطتك. إنها ما تمثله، وليس أنت شخصياً".

"أوه، حسناً، هذا يجعل كل شيء على ما يرام إذاً".

اتكأ كاولي على الجدار، ووضع قدماً عليه، وبدا متعباً بقدر تيدي في ثوبه الأبيض المجعد وربطة عنقه الرخوة.

"ثمـــة إشاعة في الجناح ج سرت بعد ظهر اليوم تقول: إن رجلاً غير معروف يرتدي ثياب ممرض كان في الطابق الرئيس".

"حقاً؟".

نظر إليه كاولي. "حقاً".

"كيف حصل ذلك؟".

أمسك كاولي بربطة عنقه وأفلتها بأصابعه. "يقال إن غريباً يملك، على ما يبدو، خبرة في إخضاع الرجال الخطيرين".

"لا تقل لي ذلك".

"أوه، بلى، بلى".

"ماذا فعل ذلك الغريب؟".

"حسناً". مدد كاولي كتفيه إلى الخلف وخلع ثوبه الأبيض، ولفه فوق ذراعه. "أنا مسرور لأنك مهتم".

"هاي، لا شيء أفضل من الإشاعة الصغيرة".

"أوافقـــك الرأي. يقال إن الغريب – ولا أستطيع توكيد ذلك – أجرى محادثة طويلة مع شخص مصاب بانفصام الشخصية اسمه جورج نويس".

قال تيدي: "هممم".

"حقاً".

"إذاً، هذا...".

قال كاولي: "نويس".

كـــرر تيدي: "نويس. نعم، ذلك الرجل، هو مريض وهم، أليس كذلك؟".

قال كاولي: "إلى أقصى الحدود. إنه يدور في مكانه ويخبر قصصاً ويجعل الجميع مضطربين...".

"ها قد استخدمت الكلمة مجدداً".

"أنـــا آسف. حسناً، نعم، إنه يجعل الأشخاص في مزاج سيئ. في الواقع، قبل أسبوعين جعل الأشخاص مضطربين جداً لدرجة أن مريضاً ضربه".

"تخيل ذلك".

هزّ كاولي كتفه. "يحصل هذا".

سأل تيدي: "إذاً، أي نوع من القصص؟ أي نوع من الأخبار؟".

لـــوّح كـــاولي في الهواء. "الأوهام الرهابية العادية. إن العالم كله يسعى وراءه وما شابه". نظر إلى تيدي، فيما أشعل سيجارة، وأشرقت عيناه مع اللهبة. "إذاً، ستغادر".

"أظن ذلك".

"في أول مركب".

وجه إليه تيدي ابتسامة جامدة. "شرط أن يوقظنا أحد".

ردّ له كاولي الابتسامة. "أظن أننا نستطيع تدبر ذلك".

"رائع".

قال كاولي: "رائع. هل تريد سيجارة؟".

رفع تيدي يده أمام العلبة. "لا، شكراً".

"هل تحاول الإقلاع؟".

"أحاول التخفيف".

"هـــذا شيء جيد ربما. كنت أقرأ في الصحف كيف يرتبط التبغ بمجموعة من الأمور المريعة".

"حقاً؟".

أومأ برأسه قائلاً: "السرطان واحد منها حسبما سمعت".

"هناك الكثير من الطرائق للموت هذه الأيام".

"صحيح. لكن هناك المزيد والمزيد من الطرائق للشفاء".

"هل تظن ذلك؟".

"لما كنت زاولت هذه المهنة". نفخ كاولي الدخان فوق رأسه.

قال تيدي: "هل جاءكم يوماً إلى هنا مريض اسمه آندرو لايديز؟".

أخفض كاولي ذقنه نحو صدره قائلاً: "لا يعني لي الاسم شيئاً".

"لا؟".

هزّ كاولي كتفه. "وهل يفترض ذلك؟".

هزّ تيدي رأسه. "كان رجلاً أعرفه. إنه...".

"كيف؟".

"ماذا كيف؟".

"كيف تعرفه؟".

قال تيدي: "في الحرب".

"أوه".

"على كل حال، سمعت أنه أصيب بالجنون قليلاً، وتم إرساله إلى هنا".

مجّ كاولي سيجارته ببطء وقال: "سمعت خطأً".

"هذا ما يبدو".

قال كاولي: "يحصل ذلك. ظننت أنني سمعتك تقول: نحن قبل لحظة".

"ماذا؟".

قال كاولي: "نحن. استخدمت صيغة الجمع".

وضع تيدي يده على صدره. "بالإشارة إلى نفسي؟".

أومأ كاولي برأسه. "ظننت أنك قلت *شرط أن يوقظنا أحد*".

"حسناً، صحيح. هل رأيته بالمناسبة؟".

رفع له كاولي حاجبه.

قال تيدي: "هيا. هل هو هنا؟".

ضحك كاولي ونظر إليه.

قال تيدي: "ماذا؟".

هزّ كاولي كتفه. "أنا فقط مرتبك".

"مرتبك من ماذا؟".

"منك أيها المارشال. هل هذه نكتة غريبة منك؟".

قال تيدي: "أي نكتة. أريد أن أعرف فقط إذا كان هنا".

"من؟". سأل كاولي وظهر اليأس في صوته.

"تشاك".

"تشاك؟". قال كاولي ببطء.

قال تيدي: "شريكي. تشاك".

ابتعد كاولي عن الجدار، والسيجارة بين أصابعه وقال: "ليس لديك شريك أيها المارشال. جئت إلى هنا لوحدك".

19

قال تيدي: "انتظر دقيقة...".

وجد كاولي، الذي بات أقرب الآن، يحدق إليه.

أغلق تيدي فمه، وأحسّ بليل الصيف يتغلغل في جفنيه.

قال كاولي: "أخبرني مجدداً. عن شريكك".

كانت نظرة كاولي الفضولية أغرب شيء رآه تيدي. نظرة ثاقبة وذكية وخالية تماماً من التعابير. إنها نظرة الرجل المستقيم الذي يدعي أنه لا يعرف من أين أتت الضربة.

وكان تيدي بمثابة أولي أمام ستان. وهو مهرّج يرتدي برميلاً خشبياً بمثابة سروال مع حمالات رخوة. آخر شخصية في المسرحية.

"أيها المارشال؟". تقدم كاولي خطوة صغيرة إضافية إلى الأمام، مثل الرجل الذي يطارد فراشة.

إذا عارض تيدي، إذا أصرّ على معرفة أين هو تشاك، إذا ناقش حتى فكرة وجود تشاك، يكون أصبح لعبة بين أيديهم.

التقت عينا تيدي بعيني كاولي ورأى الضحكة فيهما.

قال تيدي: "الرجال المجانين ينكرون أنهم مجانين".

خطوة أخرى. "عفواً؟".

"بوب ينكر أنه مجنون".

شبك كاولي ذراعيه فوق صدره.

قال تيدي: "إذاً، بوب مجنون".

تراجع كاولي إلى الخلف وارتسمت الآن الابتسامة على وجهه.

ارتسمت ابتسامة أيضاً على وجه تيدي.

وقفا هناك على هذا النحو لبعض الوقت، وتحرك نسيم الليل بين الأشجار فوق الجدار.

"أنت تعرف". قال كاولي وهو يحرك العشب بقدميه، ورأسه إلى الأسفل: "أسست شيئاً مهماً هنا. لكن الأشياء المهمة يساء فهمها أيضاً في زمنها. يرغب الجميع في حل سريع. لقد تعبنا من الخوف، تعبنا من الحزن، تعبنا من الشعور بالإرهاق، تعبنا من الإحساس بالتعب. نريد أن تعود الأيام القديمة، من دون أن نتذكرها حتى، ونريد في المقابل التقدم في المستقبل بسرعة فائقة. الصبر يصبح من أول أضرار التقدم. ليس هذا خبراً جديداً. ليس خبراً على الإطلاق. لطالما كانت الأمور كذلك". رفع كاولي رأسه. "بقدر ما أملك عدداً كبيراً من الأصدقاء أصحاب النفوذ، أملك أيضاً عدداً من الأعداء أصحاب النفوذ. إنهم أشخاص يريدون تحطيم ما أسسته من سيطرتي. لا أسمح بذلك من دون معركة. هل تفهم؟".

قال تيدي: "أوه أفهم، دكتور".

"جيد". فتح كاولي ذراعيه. "ماذا عن شريكك؟".

قال تيدي: "أي شريك؟".

كان تراي واشنطن في الغرفة حين عاد تيدي، مستلقياً على السرير يقرأ عدداً قديماً من مجلة *الحياة*.

نظر تيدي إلى سرير تشاك. تم ترتيب السرير، ووضع الشرشف مع البطانية بشكل مرتب بحيث لا تعرف أبداً أن شخصاً نام هنا قبل ليلتين.

أعـــيدت سترة تيدي وقميصه وربطة عنقه وسرواله من المصبغة وجرى تعليقها في الخزانة تحت كيس بلاستيكي، فخلع ملابس الممرض وارتدى ملابسه النظيفة، فيما قلّب تراي الصفحات اللامعة للمجلة.

"كيف حالك الليلة أيها المارشال؟".

"بخير".

"هذا جيد، هذا جيد".

لاحـــظ أن تراي لم ينظر إليه، وإنما أبقى عينيه على المجلة، وقلّب الصفحات نفسها مراراً وتكراراً.

نقـــل تـــيدي محتويات جيوبه، ووضع استمارة دخول لايديز في الجيب الداخلي لمعطفه مع دفتره الصغير. جلس على سرير تشاك قبالة تراي وربط ربطة عنقه، وربط حذاءه، ثم جلس هناك بهدوء.

قلّب تراي صفحة أخرى من المجلة. "سيكون الطقس حاراً غداً".

"حقاً؟".

"سيكون حارًّا جداً. لا يحب المرضى الحرّ".

"لا؟".

هـــزّ رأســـه، وقلب صفحة أخرى. "لا، سيدي. يجعلهم جميعاً يـــشعرون بالحكاك والمزاجية. سيكتمل البدر ليلة غد أيضاً. وهذا يجعل الأمور أسوأ بكثير. كل ما نحتاج إليه".

"لماذا؟".

"ماذا أيها المارشال؟".

"البدر المكتمل. هل تظن أنه يجعل الناس مجانين؟".

"أعرف ذلك". وجد طيّة في إحدى الصفحات واستخدم سبابته لتسويتها.

"كيف؟".

"حسناً، فكّر في الأمر. يؤثر القمر في المدّ، أليس كذلك؟".

"طبعاً".

"يملك نوعاً من التأثير المغنطيسي في الماء".

"أوافقك على ذلك".

قال تراي: "الدماغ البشري يتألف بنسبة 50 بالمئة من الماء".

"لا تمزح؟".

"لا أمزح. تصور أن السيد القمر يستطيع التحكم في كل المحيط، فتصور ما يمكن أن يفعله بالرأس".

"كم مضى على وجودك هنا، سيد واشنطن؟".

انتهى من تسوية الطية في الصفحة، ثم قلب الصفحة. "أوه، زمن طويل. منذ أن تركت الجيش في العام 46".

"كنت في الجيش؟".

"نعم. ذهبت إلى هناك لحمل مسدس فأعطوني شراباً مسكراً. حاربت الألمان بالطبخ السيئ، سيدي".

قال تيدي: "هذا هراء".

"كان هذا هراء سيدي، نعم. أخذونا إلى الحرب التي كان يفترض أن تنتهي عام 44".

"لن تحصل على جواب مني".

"لقد ذهبت إلى أماكن شتى، أليس كذلك؟".

"نعم، صحيح. رأيت العالم".

"ما رأيك في ذلك؟".

"لغات مختلفة، لكن الحقارة هي نفسها".

"نعم، هذه هي الحقيقة، صحيح؟".

"هل تعرف ماذا قال لي آمر السجن الليلة، سيد واشنطن؟".

"ماذا أيها المارشال؟".

"زنجي".

رفع تراي عينيه عن المجلة. "ماذا؟".

أومأ تيدي برأسه. "قال إن هناك العديد من الأشخاص الحقيرين في هـــذا العالم. من طينة الوحل، إنهم زنوج، متخلفون. قال إنني مجرد زنجي بالنسبة إليه".

"لم يعجبك ذلك، صحيح؟". قهقه تراي، واختفى الصوت ما إن غادر فمه. "لكنك لا تعرف ماذا يعني أن تكون زنجياً".

"أنا أعي ذلك، تراي. لكن هذا الرجل مديرك".

"لـــيس مديـــري. أنا أعمل للمستشفى في نهاية المطاف. الشرير الأبيض! إنه في جانب السجن".

"يبقى مديرك".

"لا، لـــيس كذلك". اتكأ تيدي على مرفقه. "هل تسمع؟ أقصد، هل اتضحت المسألة بيننا حول هذه النقطة أيها المارشال؟".

هزّ تيدي كتفه.

أنـــــزل تراي ساقيه عن السرير وجلس. "هل تحاول أن تجعلني مجنوناً سيدي؟".

هزّ تيدي رأسه.

"إذاً، لمـــاذا لا توافقني الرأي حين أخبرك أنني لا أعمل لدى ذلك الشرير الأبيض؟".

هـــزّ تيدي بكتفه مرة أخرى. "باختصار، إذا جاء إليك وأصدر الأوامر ستقفز لتنفيذها!".

"ماذا؟".

"تقفز. مثل الأرنب".

مـــرر تـــراي يـــده بمحاذاة فكه، وتأمل تيدي مع ابتسامة عدم تصديق.

قال تيدي: "لم أقصد الإهانة".

"أوه، لا، لا".

"لاحظـــت فقـــط أن الأشخاص في هذه الجزيرة يملكون طريقة لابتكار حقيقتهم الخاصة. يتصورون أنهم إذا قالوها مرات عدة، تصبح عندها صحيحة".

"أنا لا أعمل لهذا الرجل".

أشار تيدي إليه. "نعم، هذه حقيقة الجزيرة التي أعرفها وأحبها".

بدا تراي مستعداً لضربه.

قـــال تـــيدي: "انظـــر، عقدوا اجتماعاً الليلة. وبعد ذلك، جاء الدكـــتور كاولي وأخبرني أنه لم يكن لديّ شريك أبداً. وإذا سألتك، ســـتقول لي الـــشيء نفسه. ستنكر أنك جلست مع الرجل، ولعبت البوكـــر مـــع الـــرجل، وضحكت مع الرجل. ستنكر أنه قال لك إن الـــركض أســـرع كان الطريقة الواجب اعتمادها مع عمتك العجوز. ستنكر أنه نام هنا في هذا السرير. أليس كذلك سيد واشنطن؟".

نظر تراي إلى الأرض. "لا أعرف عما تتكلم أيها المارشال".

"أوه، أعرف أعرف. لم يكن لديّ شريك أبداً. هذه هي الحقيقة الآن. تم تقريرها. لم يكن لديّ شريك أبداً، وهو ليس في مكان ما، في هذه الجزيرة مصاباً بأذى، أو ميتاً، أو محبوساً في الجناح ج أو في المنارة. لم يكـــن لـــديّ شـــريك أبداً. تريد أن تكرر ذلك ورائي كي نكون واضحين؟ لم يكن لديّ أبداً شريك، هيا، جرّب".

نظر تراي إلى الأعلى. "لم يكن لديك أبداً شريك".

قال تيدي: "وأنت لا تعمل لصالح آمر السجن".

شـــبك تراي يديه فوق ركبتيه. نظر إلى تيدي ولاحظ تيدي أنه يستشيط غضباً. أصبحت عيناه رطبتين، وارتجف اللحم حول ذقنه.

همس: "عليك الخروج من هنا".

"أدرك ذلك".

"لا". هزّ تراي رأسه مرات عدة. "لا تملك فكرة عما يجري فعلاً هـــنا. انسَ ما سمعته. انسَ ما تظن أنك تعرفه. سينالون منك. ولا مجال للعودة عما سيفعلونه لك. لا مجال أبداً للعودة".

قال تيدي: "أخبرني". لكن تراي كان يهزّ رأسه مجدداً. "أخبرني ماذا يجري هنا".

"لا أستطيع فعل ذلك. لا أستطيع. انظر إليّ". ارتفع حاجبا تراي واتسعت عيناه. "أنا. لا أستطيع. فعل. ذلك. أنت لوحدك. ولن أكون في الانتظار على أي مركب".

قهقـــه تـــيدي. "لا أستطيع حتى الخروج من هذا المجمع، فكيف بالأحرى من هذه الجزيرة. وحتى لو استطعت، فإن شريكي...".

همس تراي: "انسَ أمر شريكك. لقد رحل. هل فهمت؟ لن يعود أبـــداً أيهـــا الرجل. عليك فهم ذلك. عليك الانتباه إلى نفسك، وإلى نفسك فقط".

قال تيدي: "تراي. أنا محبوس!".

وقف تراي وذهب إلى النافذة، ونظر إلى الخارج، إلى الظلمة، أو إلى انعكاسه الخاص، و لم يعرف تيدي بالضبط.

"لا يمكنك العودة أبداً. لا يمكنك أن تخبر أحداً أنني قلت لك أي شيء".

انتظر تيدي.

نظر تراي إليه فوق كتفه. "هل اتفقنا؟".

قال تيدي: "اتفقنا".

"سيكون المركب هنا غداً في تمام العاشرة. يغادر إلى بوسطن في تمام الحادية عشرة. إذا أراد رجل الاختباء في ذلك المركب، قد يستطيع فعل ذلك عبر المرفأ. وإلا، سيضطر الرجل إلى الانتظار يومين أو ثلاثة أيام إضافية لتأتي سفينة صيد، اسمها بيتسي *روس*، بحيث تقترب فعلاً من الشاطئ الجنوبي، وتنزل بعض الأغراض". نظر مجدداً إلى تيدي. "أغراض لا يفترض بالرجال امتلاكها على هذه الجزيرة. إلا أن السفينة لا تقترب كثيراً. لا، سيدي. لذا، يتوجب على الرجل السباحة للوصول إليها".

قال تيدي: "لا أستطيع البقاء ثلاثة أيام إضافية لعينة على هذه الجزيرة. أنا لا أعرف الأرض. لكن لا شك في أن آمر السجن ورجاله يعرفونها جيداً. سيعثرون عليّ".

لم يقل تراي أي شيء لبعض الوقت.

قال في النهاية: "إذاً، عليك الهروب في المركب".

"المركب. لكن كيف أخرج من المجمّع؟".

قال تراي: "اللعنة! قد لا تصدق ذلك، لكنه يوم حظك. لقد أفسدت العاصفة كل شيء، وخصوصاً الأنظمة الكهربائية. لقد أصلحنا الآن معظم الأسلاك في الجدار. معظمها".

قال تيدي: "ما الأقسام التي لم تصلحوها بعد؟".

"الزاوية الجنوبية الغربية، الأسلاك معطلة هناك، تماماً حيث يلتقي الجداران في زاوية من تسعين درجة. أما بقية الأسلاك فتشويك مثل الدجاجة، ولذلك لا تحاول التمدد للإمساك بها. هل سمعتني؟".

"سمعتك".

أومـــأ تـــراي برأسه لانعكاسه. "أقترح عليك أن تسرع. الوقت ينفد".

وقف تيدي وقال: "تشاك".

صرخ تراي: "لا يوجد تشاك، حسناً؟ لم يكن موجوداً أبداً. عد إلى العـــالم، وتحدث عن تشاك مثلما تريد. لكن هنا، لم يوجد الرجل أبداً".

خطـــر لتيدي، فيما كان أمام الزاوية الجنوبية الغربية للجدار، أن تـــراي يكـــذب ربما. إذا وضع تيدي يداً على تلك الأسلاك، وأحكم قبـــضته، وكانـــت مـــزودة بالتيار الكهربائي، سيعثرون على جثته في الـــصباح أمـــام الجدار، متفحمة مثل شريحة لحم الشهر الماضي. حلت المشكلة. يصبح تراي الموظف العام، مع ساعة ذهبية جميلة ربما.

فتش حوله إلى أن عثر على قضيب طويل، ثم استدار نحو قسم من السلك إلى يمين الزاوية. قفز أمام الحائط، ووضع قدماً عليه، ووثب إلى الأعلـــى. مـــرر القـــضيب فوق السلك، واشتعل السلك في لهبة قوية واحترق القضيب. عاد تيدي إلى الأرض ونظر إلى القضيب الخشبـــي في يده. انطفأت اللهبة، لكن الخشب احترق.

جـــرّب مجدداً، هذه المرة في السلك الموجود إلى الجهة اليمنى من الزاوية؛ لا شيء.

جلـــس على الأرض مجدداً، أخذ نفساً، ثم قفز فوق يسار الجدار، وضرب السلك مجدداً، ومجدداً، لا شيء.

ثمـــة عمود معدني فوق، حيث يلتقي بالجدار، واحتاج تيدي إلى الـــركض ثلاث مرات نحو الجدار قبل أن يحكم قبضته. أحكم قبضته جـــيداً وتـــسلق إلى أعلى الجدار، وارتطمت كتفاه بالسلك وارتطمت

ركبتاه بالسلك، وارتطمت ذراعاه بالسلك، وفي كل مرة، كان يظن أنه مات.

لكنه لم يمت. وحين وصل إلى الأعلى، لم يعد عليه فعل الكثير سوى خفض نفسه، والنزول إلى الجهة الأخرى.

وقف بين الأوراق ونظر إلى آشكليف.

لقد جاء إلى هنا لكشف الحقيقة، ولم يجدها. جاء إلى هنا من أجل لايديز، ولم يجده أيضاً. وفي أثناء ذلك، أضاع تشاك.

سيكون لديه الوقت للندم على كل ذلك حين يعود إلى بوسطن. الوقت للشعور بالذنب والعار. الوقت للتفكير في خياراته والتشاور مع السيناتور هورلي، والعودة مع خطة للهجوم. سيعود، بسرعة، لا مجال أبداً للشك في ذلك. وسيكون ربما مدعوماً بمساعدين ومفتشين فدراليين. وسيكون لديهم مركبهم الخاص. سيكون حينها غاضباً. سيكون محقاً في غضبه.

لكنه الآن يشعر بالارتياح، لأنه ما زال حياً، وفي الجهة الأخرى من الجدار.

إنه مرتاح، وخائف.

* * *

احتاج إلى ساعة ونصف الساعة للعودة إلى الكهف، لكن المرأة غادرت. انطفأت نارها وتحولت إلى رماد، وجلس تيدي قربها بالرغم من أن الهواء في الخارج كان دافئاً على غير عادة، ويصبح أكثر رطوبة مع تقدم الساعات.

انتظرها تيدي، على أمل أن تكون خرجت لإحضار بعض الأخشاب، لكنه عرف، في قلبه، أنها لن تعود. تظن ربما أنه تم إلقاء القبض عليه، وهو في هذه الساعة يخبر آمر السجن وكاولي عن مكان

اختـــبائها. ربما - بالرغم من أن هذا كثير للأمل به، لكن تيدي سمح لنفـــسه بهذا الأمل - عثر عليها تشاك وذهبا معاً لموقع، تظن أنه أكثر أماناً.

حـــين انطفـــأت النار كلياً، خلع تيدي سترته ولفها فوق صدره وكتفيه ووضع رأسه على الجدار. وكما في الليلة السابقة، كان إبهاماه آخر ما رآه قبل أن ينام.

بدأا يرتجفان.

اليوم الرابع

البحار السيئ

20

كانــوا في مطــبخ، والمعاطف على علاّقات، وأخذ والد تيدي معطفه القديم المنقط وأدخل فيه ذراعيه، ثم ساعد دولوريس على ارتداء معطفها وقال لتيدي: "هل تعرف ماذا أحب لذكرى الميلاد؟".

"لا، أبــي".

"مزمار قربة".

وفهم تيدي أن ذلك يعني قضبان غولف وكيس غولف.

قال: "تماماً مثل آيك".

"بالضبط". قال والده وأعطى تشاك معطفه.

ارتــدى تشاك معطفه. كان معطفاً جميلاً، من الكاشمير. اختفت ندبة تشاك، لكنه ما زال يملك تلك اليدين الدقيقتين ومدّهما أمام تيدي، وحرّك أصابعه.

قال تيدي: "هل ذهبت مع تلك المرأة الطبيبة؟".

هزّ تيدي رأسه. "أنا مثقف أكثر من ذلك. ذهبت إلى حلبة السباق".

"ربحت؟".

"خسرت كثيراً".

"آسف".

قال تشاك: "قبّل زوجتك قبلة الوداع. على الوجنة".

انحــنى تــيدي أمام أمه وكان توتي فيسيلي يبتسم له بفم دموي، وقبّل وجنة دولوريس وقال: "صغيرتي، لماذا أنت مبللة كلك؟".

"أنا جافة مثل العظام". قالت لوالد تيدي.

قال والد تيدي: "لو كنت بنصف عمري، لتزوجتك أيتها الفتاة".

كانـــوا جمـــيعاً مبللين، حتى أمه، وحتى تشاك. تساقط الماء من معاطفهم على الأرض.

أعطاه تشاك ثلاثة جذوع وقال له: "للنار".

"شكراً". أخذ تيدي الجذوع ثم نسي أين يجدر به وضعها.

فركت دولوريس معدتها وقالت: "أرانب لعينة. ما فائدتها؟".

دخل لايديز وراشايل سولاندو إلى الغرفة. لا يرتديان معطفين. لا يـــرتديان أي شيء على الإطلاق، ومرّر لايديز قنينة من الشراب فوق رأس والــــدة تيدي ثم أخذ دولوريس بين ذراعيه، وشعر تيدي بالغيرة، دخل لايديز ودولوريس إلى غرفة النوم، واستطاع تيدي سماعهما هناك علــــى السرير، يخلعان ملابسهما، يتنفسان بقوة، وبدا كل شيء رائعاً ومثالياً.

كــــان آمـــر السجن ورجاله على قمة الجبل فوقه. لقد أشرقت الشمس. صرخت طيور النورس.

نظر تيدي إلى ساعته: الثامنة صباحاً.

قال آمر السجن: "لا تجازفوا أبداً. هذا الرجل مدرّب على القتال، مجــــرّب في القتال، ومتمرّس في القتال. يملك القلب الأرجواني ووسام الشجاعة بامتياز. قتل رجلين في صقلية بيديه العاريتين".

عرف تيدي أن هذه المعلومات موجودة في ملفه الشخصي. لكن كيف وصل إلى ملفه الشخصي؟

"إنه بارع في استعمال السكين، وبارع جداً في القتال اليدوي. لا تقتــــربوا مــــن هذا الرجل. إذا أتيحت لكم الفرصة، ضعوه أرضاً مثل كلب بساقين".

وجــد تيدي نفسه يبتسم رغماً عن وضعه. كم مرة واجه رجال آمر السجن مقارنات الكلب بساقين؟

نـــزل الحرّاس إلى جانب وجه الجرف الأصغر بواسطة الحبال، وترك تيدي بعيداً عن الحافة وراقبهم وهم يشقون طريقهم إلى الأسفل نحو الشاطئ. بعد دقائق قليلة، تسلقوا الجرف مجدداً وسمع تيدي أحدهم يقول: "ليس في الأسفل، سيدي".

أصغى إليهم لبعض الوقت، فيما فتشوا قرب قنّة الجبل والطريق، ثم ابــتعدوا وانتظــر تيدي ساعة كاملة قبل أن يغادر الكهف، منتظراً للــتأكد من أن أحداً لم يعد أدراجه، وأعطى حفلة البحث وقتاً كافياً بحيث لا يرتطم بهم.

كانــت الساعة تشير إلى التاسعة وعشرين دقيقة حين وصل إلى الطريق ومشى باتجاه الغرب، محاولاً الحفاظ على وتيرة سريعة، وإنما مع الإصغاء إلى الرجال المتحركين أمامه أو خلفه.

كــان تراي محقاً في توقعاته للطقس. فالطقس حار مثل الجحيم، ونــزع تيدي سترته وطواها فوق ذراعه. أرخى ربطة عنقه ما يكفي لــسحبها فــوق رأســه ووضعها في جيبه. كان فمه جافاً مثل ملح الصخور، وأحس بالحكاك في عينيه من العرق.

رأى تشاك مجدداً في حلمه، وهو يرتدي معطفه، وآلمته الصورة أكثر مــن صورة لايديز مع دولوريس. إلى حين ظهور راشايل ولايديز، كان الجمــيع في ذلــك الحلم أمواتاً. باستثناء تشاك. لكنه أحضر معطفه، من مجمــوعة العلاّقــات نفسها، ولحق بهم خارج الباب. كره تيدي ما يمثله ذلك. إذا عثروا على تشاك في قنّة الجبل، فإنهم يجرّونه بعيداً ربما، فيما يشق تــيدي طريقه خارج الحقل. وأياً كان الشخص الذي عُثِر عليه، لا بد أن يكون بارعاً جداً في مهنته، لأن تشاك لم يطلق حتى صرخة واحدة.

مــــا مقــــدار القوة اللازم لجعل مارشالين أميركيين يختفيان وليس لجعل مارشال واحد فقط؟

قوة هائلة.

وإذا كانت الخطة تقضي بجعل تيدي مجنوناً، لا يمكن تطبيق الخطة نفسها على تشاك. لن يصدق أحد أن مارشالين أميركيين فقدا عقلهما في الأيــــام الأربعــــة نفــــسها. لا بد إذاً، أن يتعرض تشاك لحادث. في الإعــــصار ربما. في الواقع، إذا كانوا أذكياء فعلاً، ويبدو أنهم كذلك، ســــيتم تــــصوير موت تشاك على أنه الحادث الذي دفع تيدي لمرحلة اللاعودة.

ثمة تناسق لا يمكن إنكاره في الفكرة.

لكــــن، إذا لم يهــــرب تيدي من هذه الجزيرة، لن يقبل المكتب المــــيداني القصة أبداً، مهما كانت منطقية، من دون إرسال مارشالات آخرين إلى هناك للتحقق بأنفسهم.

وماذا سيجدون؟

نظــــر تيدي إلى الارتعاشات في معصميه وإبهاميه. أصبحت أسوأ حالاً. ولم يكن دماغه صافياً بعد نوم ليلي. شعر بالارتباك والبلادة. إذا كانــــت المخدرات قد أعطت مفعولها في الوقت الذي يصل فيه رجال المكــــتب المــــيداني إلى هــــنا، ســــيجدون ربما تيدي يتسكع في ثوب الاســــتحمام، ويخرج البراز حيث يجلس. وستتم المصادقة على الحقيقة التي ابتكرتها آشكليف.

سمع المركب يطلق صفارته فرفع جسمه في الوقت المناسب، ليرى أن المركب أنهى برمته في المرفأ وبدأ يتراجع إلى الخلف باتجاه الرصيف. أســــرع في خطاه، وبعد عشر دقائق استطاع رؤية الجهة الخلفية لقصر كاولي عبر الغابة.

انحرف عن الطريق ودخل في الغابة، وسمع الرجال يفرغون المركب، مع تكديس الصناديق فوق بعضها على الرصيف، وصليل السلاسل المعدنية والخطى السريعة على الألواح الخشبية. وصل إلى الصف الأخير من الأشجار ورأى عدة عمال على الرصيف، فيما اثنان من ملاّحة المركب يتكآن على الجزء الخلفي من المركب. رأى حراساً، الكثير من الحراس، وهم يحملون البنادق على أوراكهم، وأجسادهم باتجاه الغابة، فيما عيونهم تتفحص الأشجار والأرض المؤدية إلى آشكليف.

حين انتهى العمال من إفراغ الحمولة، أعادوا معهم العربات الصغيرة إلى الرصيف، لكن الحرّاس بقوا، وعرف تيدي أن مهمتهم الوحيدة هذا الصباح هي التأكد من عدم وصوله إلى ذلك المركب اللعين.

مشى في الغابة وخرج منها للوصول أمام منزل كاولي. استطاع سماع الرجال في الطابق العلوي من المنزل، ورأى أحدهم على السقف، يدير ظهره لتيدي. وجد تيدي السيارة في المرآب، في الجهة الغربية من المنزل. إنها سيارة بويك رودماستر موديل 47، بنية، مع فرش من الجلد الأبيض. مصقولة ولامعة في اليوم الذي تلا العاصفة. سيارة جميلة.

فتح تيدي باب السائق واستطاع شمّ رائحة الجلد، كما لو أن عمره يوم واحد فقط. فتح الصندوق الأمامي وعثر على عدة علب من أعواد الثقاب فأخذها كلها.

سحب ربطة عنقه من جيبه، ووجد حجراً صغيراً على الأرض، فربط الطرف الضيق من ربطة العنق حول هذا الحجر. رفع لوحة السيارة وفتح غطاء خزان الوقود، ثم أدخل ربطة العنق مع الحجر في

الخزان إلى أن بقي فقط القسم الأمامي من ربطة العنق المطبع بالأزهار، كما لو أنها متدلية من عنق رجل.

تذكر تيدي كيف أعطته دولوريس ربطة العنق هذه، ومررتها أمام عينيه وهي جالسة في حضنه.

همس في نفسه: "أنا آسف حبيبتي. أحبها لأنك قدمتها إلي. لكن الحقيقة هي أنها ربطة عنق لعينة بشعة!".

ابتسم إلى السماء، كما لو أنه يعتذر منها واستخدم عود ثقاب واحداً لإشعال العلبة كلها، ثم استخدم العلبة لإشعال ربطة العنق.

وركض بعدها مثل المجنون.

كان في منتصف الغابة حين سمع صوت انفجار السيارة. سمع الرجال يصرخون، وحين نظر إلى الخلف، استطاع عبر الأشجار رؤية اللهب يتطاير في الأعلى، على شكل كرات، ثم حصلت سلسلة من الانفجارات الصغيرة، مثل المفرقعات النارية، عندما انفجرت النوافذ.

وصل إلى طرف الغابة وخلع معطفه، ووضعه تحت بضع صخور. رأى الحراس ورجال المركب يركضون نحو منزل كاولي، وعرف أنه إذا أراد فعل ذلك، عليه فعله الآن، من دون أي وقت للتفكير في فكرة ثانية، وهذا أمر جيد، لأنه لو فكر في ما سيفعله، لما فعله أبداً.

خرج من الغابة وركض بمحاذاة الشاطئ، وقبل أن يصل إلى الرصيف ويصبح مكشوفاً أمام أي شخص عائد إلى المركب، انعطف إلى اليسار وركض في الماء.

الله، الماء بارد مثل الثلج! أمل تيدي في أن تكون حرارة النهار قد ساعدت على تسخين المياه قليلاً، لكن البرد مزّق جسمه مثل التيار الكهربائي، وأخرج الهواء من صدره. إلا أن تيدي استمر في التقدم إلى الأمام، محاولاً عدم التفكير في ما يوجد في الماء معه؛ سمك إنقليس،

وقـــناديل بحر، وسلاطعين، وأسماك قرش أيضاً. بدا ذلك سخيفاً لكن تـــيدي عرف أن أسماك القرش تهاجم الإنسان في عمق ثلاث أقدام في المـــاء تقريباً، وهو الآن في هذا العمق، لأن الماء بلغ خصره وبدأ يرتفع أكثـــر فأكثـــر، وسمـــع تيدي أصوات صراخ آتية من منـــزل كاولي، وتجاهل الخفقان القوي لقلبه وغاص تحت الماء.

رأى الفـــتاة في أحلامـــه، تطفو مباشرة تحته، وعيناها مفتوحتان ومستسلمتان.

هـــزّ رأسه واختفت واستطاع رؤية قعر السفينة أمامه، عبارة عن لـــوح أسود سميك يتراقص في الماء الأخضر، فسبح نحوه وأمسك به. تحـــرك بمحاذاتـــه وصولاً إلى الأمام، ووصل إلى الجهة الأخرى، وأجبر نفـــسه على الخروج من الماء ببطء، رافعاً فقط رأسه. أحسّ بالشمس علـــى وجهه، فيما زفر الهواء ثم استنشق الأوكسيجين وحاول تجاهل منظـــر ســـاقيه المتدليتين تحته في الأعماق، مع كائنات تسبح حولهما، متسائلة عن طبيعتهما، مقتربة منهما لشمّهما...

كـــان السلم حيث يذكره. مباشرة أمامه، ووضع يده على الحلقة الثالـــثة وتشبث بها. استطاع سماع الرجال يعودون الآن إلى الرصيف، وسمع أصوات أقدامهم على الألواح الخشبية، ثم سمع آمر السجن يقول:

"فتشوا هذا المركب".

"سيدي، لقد غبنا فقط...".

"لقد تركتم مكانكم، وتريدون الآن المناقشة؟".

"لا، سيدي. عذراً، سيدي".

انهـــار السلم في يده، فيما وضع عدة رجال وزنهم على المركب، وسمعهم تيدي يفتشون المركب، وسمع أصوات أبواب تفتح، وأصوات أثاث يتحرك.

انــزلق شيء بين فخذيه مثل يد، وصكّ تيدي أسنانه وأحكم قبضة يده على السلم وأجبر عقله على عدم التفكير في أي شيء، لأنه لا يريد أن يتخيل المشهد. أياً كان الشيء الذي يتحرك، أطلق تيدي تنهيدة.

"ســيارتي. لقد فجّر سيارتي اللعينة!". قال كاولي وهو يستشيط غضباً، وبدا منقطع الأنفاس.

قال آمر السجن: "لقد تخطى كل الحدود، حضرة الطبيب".

"اتفقنا أنني أنا من يتخذ القرار".

"إذا خرج هذا الرجل من الجزيرة...".

"لن يخرج أبداً من الجزيرة".

"أنــا واثق من أنك لم تفكر أبداً في أن يحول سيارتك إلى نيران مشتعلة أيضاً. علينا وقف هذه العملية الآن وتخفيف خسارتنا".

"لقد عملت بكدّ كبير لأستسلم الآن".

ارتفــع صــوت آمر السجن. "إذا خرج هذا الرجل من الجزيرة، سيقضي علينا".

ارتفــع صوت كاولي للتطابق مع صوت آمر السجن. "لن يخرج أبداً من هذه الجزيرة اللعينة".

لم يــتحدث أي مــنهما لدقيقة كاملة. استطاع تيدي سماعهما يتحركان على الرصيف.

"جــيد، حــضرة الطبــيب. لكن المركب يبقى هنا. لن يغادر الرصيف قبل العثور على ذلك الرجل".

بقي تيدي معلقاً هناك، وقد بدأ البرد يتغلغل في قدميه ويحرقهما.

قال كاولي: "يريدون جواباً على ذلك في بوسطن".

أغلق تيدي فمه قبل أن تبدأ أسنانه بالاصطكاك.

"إذاً، أعطهم أجوبة. لكن هذا المركب سيبقى هنا".

دغدغ شيء ما الجهة الخلفية لساق تيدي اليسرى.

"حسناً، يا آمر السجن".

دغدغة أخرى في ساقه، فركل تيدي ساقه إلى الخلف وسمع صوت الماء المتطاير في الهواء مثل طلقة نارية.

خطوات في الجزء الخلفي من السفينة.

"ليس هنا، سيدي. لقد فتشنا في كل مكان".

قال آمر السجن: "إلى أين ذهب إذاً؟ هل من فكرة؟".

"اللعنة".

"نعم، حضرة الطبيب؟".

"لقد توجه إلى المنارة".

"خطرت لي تلك الفكرة أيضاً".

"سأعالج المسألة".

"خذ معك بعض الرجال".

"قلت إنني سأعالج المسألة. لدينا رجال هناك".

"ليس ما يكفي".

"قلت إنني سأعالج المسألة".

سمع تيدي حذاء كاولي يشق طريق العودة إلى الرصيف، وأصبح الصوت أكثر نعومة عند الوصول إلى الرمل.

قال آمر السجن لرجاله: "المنارة أو غير المنارة. لن يذهب هذا المركب إلى أي مكان. خذوا مفاتيح المحرك من القبطان وأحضروها لي".

سبح معظم المسافة المؤدية إلى هناك.

ابتعد عن المركب وسبح نحو الشاطئ إلى أن أصبح قريباً كفاية من القعر الرملي لاستخدامه، فزحف عليه، لمسافة طويلة كفاية، بحيث

بات قادراً على رفع رأسه من الماء والنظر إلى الخلف. لقد اجتاز مئات الياردات واستطاع رؤية الحرّاس يشكلون حلقة حول الرصيف.

انــزلق مجدداً تحت الماء وتابع الزحف، عاجزاً عن التحرك بطريقة حرة بسبب الجلبة التي قد يحدثها ذلك، وبعد لحظة، وصل إلى منعطف في الشاطئ فاجتازه ومشى على الرمل، وجلس تحت الشمس وارتجف مـــن البرد. مشى على طول الشاطئ تقريباً، قبل أن يركض في مجموعة مـــن الـــشجيرات التي دفعته مجدداً إلى الماء، وربط حذائيه ببعضهما، وعلقهما حول عنقه وقام بجولة سباحة أخرى، وتصوّر عظام والده في مكـــان مـــا من قعر هذا المحيط نفسه، وتصوّر أسماك القرش وزعانفها وذيولها الكبيرة، وأسماك البركودة الضخمة مع أسنانها البيضاء، وعرف أنـــه يعيش هذه المغامرة، لأنه مضطر إلى ذلك وقد خدّره الماء و لم يعد لديـــه أي خيار سوى فعل ذلك، وقد يعيد الكرّة مجدداً بعد أيام قليلة حـــين تـــصل ســـفينة *بيتسي روس* إلى القسم الجنوبـــي من الجزيرة، وعرف أن الطريقة الوحيدة للتغلب على الخوف هي مواجهته، إذ تعلم ذلـــك في الحرب، لكن بالرغم من ذلك، حتى لو نجح الآن، لن ينـــزل أبـــداً، أبـــداً إلى المحيط مجدداً. أحس أن المحيط يراقبه ويلامسه، أحس بعمره، بقدمه قِدَم التاريخ المدون، وبافتخاره بمحتوياته.

رأى المـــنارة قـــرابة الساعة الواحدة. لم يكن واثقاً من ذلك لأن ســـاعته كانـــت في سترة بذلته، إلا أن الشمس كانت تقريباً في الموقع الـــصحيح. وصـــل إلى الشاطئ مباشرة تحت الجرف العالي واتكأ على صـــخرة وعـــرّض كـــل جسمه للشمس إلى أن توقف عن الارتجاف وأصبحت بشرته أقل زرقة.

إذا كـــان تـــشاك هناك في الأعلى، مهما كانت حالته، سيعيده تيدي. ميتاً أو حياً، لن يتركه لوحده.

ستموت.

إنه صوت دولوريس، وعرف أنها محقة. إذا توجب عليه الانتظار يومين لوصول سفينة بيتسي *روس*، وليس لديه سوى تشاك سليم ويقظ برفقته، لن ينجحا أبداً. سيتم العثور عليهما...

ابتسم تيدي.

... مثل كلاب بساقين.

قال لدولوريس لا أستطيع تركه. لا أستطيع فعل ذلك. إذا لم أستطع العثور عليه، هذا أمر مختلف، لكنه شريكي.

لقد التقيت به للتو.

يبقى شريكي. إذا كان موجوداً هنا، إذا تعرضوا له بالأذى، إذا حجزوه رغماً عن إرادته، عليّ إخراجه.

حتى لو متّ؟

حتى لو متّ.

إذاً، أتمنى ألا يكون موجوداً هنا.

نزل عن الصخرة وتبع مسار الرمل والأصداف المحتشدة حول الطحالب البحرية، وخطر له أن ما اعتبره كاولي لديه نزعة إلى الانتحار، ليست بالضبط كذلك. إنها بالأحرى رغبة في الموت. طوال سنوات عدة، لم يستطع التفكير في سبب جيد للعيش. لكنه لم يستطع التفكير أيضاً في سبب منطقي لقتل نفسه. حتى في لياليه الأكثر صعوبة، بدا هذا الخيار مرَضياً، محرجاً، مقرفاً.

لكن...

أصبح الحارس فجأة يقف هناك، متفاجئاً بظهور تيدي تماماً، مثلما كان تيدي متفاجئاً بظهوره، ولا يزال سحاب الحارس مفتوحاً، وبندقيته معلقة وراء ظهره. بدأ الحارس يغلق سحابه في البداية، ثم بدّل

رأيـــه، لكـــن تـــيدي كان قد وضع حينها قبضة يده على تفاحة آدم الحـــارس. أمسك بحنجرته، وانحنى تيدي القرفصاء وضرب بساقه ظهر الحـــارس فانقلب الحارس على ظهره، واستقام تيدي وركله مباشرة في الأذن اليمنى، فبرمت عينا الحارس في رأسه، وانفتح فمه.

انحـــنى تـــيدي قـــربه، وأنـــزل رباط البندقية عن كتفه وسحب البندقية من تحته. استطاع سماع الرجل يتنفس. لم يقتله إذاً. وهو يملك الآن سلاحاً.

اســـتخدم السلاح لمواجهة الحارس التالي، ذلك الذي يقف أمام السور. نـــزع سلاحه، وكان ولداً، صغيراً، فعلاً، وقال الحارس: "هل ستقتلني؟".

"الله، طبعاً لا". قال تيدي، وضغط بكعب البندقية على صدغ الولد.

كان هناك مبنى داخل السور، تحقق تيدي منه في البداية، فعثر فيه علـــى بعـــض الأسرّة والمجلات السخيفة، وإبريق قهوة قديمة، وبذلتين للحرّاس معلقتين في علاّقة على الباب.

تابع طريقه ووصل إلى المنارة، واستخدم البندقية لفتح الباب، ولم يجـــد أي شيء في الطابق الأول باستثناء غرفة إسمنتية فارغة، خالية من كل شيء باستثناء العفن على الجدران، وفيها سلم حلزوني مصنوع من الحجارة نفسها المستخدمة في الجدران.

صـــعد السلالم ووصل إلى غرفة ثانية، فارغة مثل الغرفة الأولى، وعـــرف أنه لا بد من وجود طابق سفلي هنا، شيء كبير، متصل ربما بباقـــي المستـــشفى عبر تلك الممرات، لأنه لغاية الآن، ليس هذا شيئاً سوى منارة.

سمع صوت كشط فوقه وعاد إلى السلالم، وصعد إلى طابق آخر، ووصل إلى باب حديدي ضخم. ضغط عليه برأس البندقية وفتحه.

سمع صوت الكشط مجدداً، واستطاع شمّ رائحة السجائر، وسماع صوت المحيط، والإحساس بالهواء خارجاً، وعرف أنه إذا كان آمر السجن ذكياً كفاية لوضع الحراس على الجهة الأخرى، من هذا الباب، سيكون تيدي ميتاً ما إن يفتح الباب.

اهرب، صغيري.

لا أستطيع.

ولَم لا؟

لأن كل شيء أوصلني إلى ذلك.

ماذا؟

كل شيء.

لا أفهم كيف...

أنت، أنا، لايديز، تشاك، نويس، ذلك الولد المسكين. كل شيء أوصلني إلى هذا. إما أن يتوقف الآن، أو أتوقف أنا الآن.

إنهما يداه، يدا تشاك، ألم تلاحظ؟

لا. ماذا؟

يداه، تيدي، لا تتطابقان معه.

عرف تيدي ما الذي تقصده. عرف أن هناك شيئاً مهماً بخصوص يدي تشاك، ولكنه ليس مهماً، لدرجة أنه يستطيع تبديد المزيد من الوقت في السلالم وهو يفكر في الأمر.

عليّ الدخول الآن عبر هذا الباب، حبيبتي.

حسناً، توخَّ الحذر.

جـــثم تـــيدي إلى يـــسار الباب. وضع كعب البندقية إلى الجهة اليسرى من قفصه الصدري، ووضع يده اليمنى على الباب للتوازن، ثم ركل الباب بقدمه اليسرى وفتح الباب كله وانخفض على ركبته ووضع البندقية على كتفه ثم سددها.

نحو كاولي.

كـــان جالـــساً وراء طاولة، ظهره إلى نافذة مربعة صغيرة، فيما المحيط الأزرق والفضي وراءه، ورائحته ملأت الغرفة، فيما بعثر النسيم شعره على جانبـــي رأسه.

لم يـــبدُ كاولي مذهولاً. لم يبدُ خائفاً. نقر بسيجارته على طرف المنفضة الموضوعة أمامه، وقال لتيدي:

"صغيري، لماذا أنت مبلل كلك؟".

21

كانت الجدران وراء كاولي مغطاة بشراشف وردية، والزاويا مثبتة بأشـــرطة لاصقة مجعدة. على الطاولة أمامه، كانت هناك عدة ملفات، وجهاز إرسال لاسلكي، ودفتر تيدي، واستمارة دخول لايديز، وسترة تـــيدي. على كرسي موضوع في الزاوية، كانت هناك مسجلة، تعمل حالياً، مع مذياع صغير فوقه متجه نحو الغرفة. مباشرة أمام كاولي، ثمة دفتر أسود له غلاف جلدي. خربش فيه شيئاً وقال: "اجلس".

"ماذا قلت؟".

"قلت اجلس".

"قبل ذلك؟".

"تعرف بالضبط ماذا قلت".

أنــــــزل تيدي البندقية عن كتفه لكنه، أبقاها مصوّبة نحو كاولي ودخل الغرفة.

عاد كاولي إلى الخربشة. "إنها فارغة".

"ماذا؟".

"البندقـــية. لا يوجد رصاص فيها. بعد كل خبرتك في الأسلحة النارية، كيف لم تلاحظ ذلك؟".

فتح تيدي البندقية وتحقق من محتواها. إنها فارغة. وللتأكد أكثر، صـــوّبها نحو الجدار إلى يساره وضغط على الزناد، لكن لم يخرج شيء سوى صوت طقطقة الزناد.

قال كاولي: "ضعها في الزاوية".

وضـــع تـــيدي البندقية على الأرض وسحب الكرسي بعيداً عن الطاولة لكنه، لم يجلس عليها.

"ماذا يوجد تحت الشراشف؟".

"سنصل إلى ذلك. اجلس. خفف حمولتك. خذ". تمدد كاولي نحو الأرض، وعاد مع منشفة سميكة ومررها إلى تيدي عبر الطاولة. "جفف نفسك قليلاً. ستصاب بالزكام".

جفف تيدي شعره ثم خلع قميصه. رماها في الزاوية وجفف أعلى جسمه. حين انتهى، أخذ سترته عن الطاولة.

"هل تمانع؟".

نظر كاولي إلى الأعلى. "لا، لا. اهتم بنفسك".

ارتدى تيدي السترة وجلس على الكرسي.

كـــتب كاولي المزيد من الكلمات، وخربش بالقلم على الورقة. "كم تأذى الحراس؟".

قال تيدي: "ليس كثيراً".

أومـــأ كـــاولي برأسه ووضع قلمه فوق الدفتر، وأمسك بالجهاز اللاســـلكي وحاول تشغيله. رفع سماعة الهاتف عن قاعدتها وتحدث عبر الهاتـــف. "نعم، إنه هنا. دع الدكتور شيهان يلقي نظرة على رجالك قبل أن ترسله إلى الأعلى".

أقفل سماعة الهاتف.

قال تيدي: "الدكتور شيهان المحيّر".

حرك كاولي حاجبيه صعوداً ونـــزولاً.

"دعني أحزر. لقد وصل في المركب هذا الصباح".

هزّ كاولي رأسه. "كان في الجزيرة طوال الوقت".

قال تيدي: "مختبئاً عن الأنظار".

رفع كاولي يديه وهزّ كتفه قليلاً. "إنه طبيب نفسي لامع، شاب، وواعد. كانت هذه خطتنا، هو وأنا".

أحسّ تيدي بعقدة في عنقه مباشرة تحت أذنه اليسرى. "وكيف حال الخطة معكما لغاية الآن؟".

رفع كاولي صفحة من دفتره، وألقى نظرة على الصفحة التي تحتها، ثم أفلتها من أصابعه. "ليس تماماً. كانت آمالي أكبر".

نظر إلى تيدي، واستطاع تيدي أن يرى في وجهه ما رآه في السلالم في صباح اليوم الثاني، وفي لقاء الموظفين مباشرة قبل العاصفة، ولا يتطابق ذلك مع بقية خصائص الرجل، لا يتطابق مع الجزيرة، مع هذه المنارة، مع هذه اللعبة الفظيعة التي يلعبونها.

شفقة!

لو لم يكن تيدي يعرف تماماً، لأقسم إنها الشفقة بعينها.

أبعد تيدي نظره عن وجه كاولي، ونظر حوله في الغرفة الصغيرة، إلى تلك الشراشف على الجدران. "إذاً، هذه هي".

قال كاولي: "هذه هي. هذه هي المنارة. السجن العظيم. الحقيقة العظيمة التي كنت تسعى وراءها. إنها كل ما أملت به وأكثر؟".

"لم أشاهد الطابق الأرضي".

"لا يوجد طابق أرضي. إنها منارة".

نظر تيدي إلى دفتره الموضوع على الطاولة بينهما.

قال كاولي: "دفترك، نعم. وجدناه في سترتك في الغابة قرب منزلي. أنت فجرت سيارتي".

هزّ تيدي كتفه. "عذراً".

"أحببت تلك السيارة".

"أحسست بذلك، نعم".

"وقفــت في صـــالة العرض في ربيع العام 47، وأذكر أنني قلت لنفسي حين اخترتها: حسناً، جون، هذه السيارة ممتازة. لن تضطر إلى شـــراء سيارة أخرى قبل خمسة عشر عاماً على الأقل". تنهد. "لذلك أحببت تلك السيارة".

رفع تيدي يديه. "أعتذر مجدداً".

هـــزّ كاولي رأسه. "هل ظننت لثانية واحدة أننا كنا سنسمح لك بالصعود على ذلك المركب؟ حتى لو فجرت الجزيرة بكاملها، ماذا كان سيحصل برأيك؟".

هزّ تيدي كتفه.

قـــال كاولي: "أنت رجل واحد وكانت المهمة الوحيدة *للجميع* هذا الصباح إبقاءك بعيداً عن المركب. لا أفهم منطقك هنا".

قال تيدي: "كانت تلك الطريقة الوحيدة للهروب. توجّب عليّ التجربة".

حـــدّق إلـــيه كـــاولي بارتباك ثم تمتم: "الله! كنت أحب تلك السيارة". ونظر إلى حضنه.

قال تيدي: "هل لديك ماء؟".

فكّر كاولي في الطلب للحظة، ثم برم كرسيه للكشف عن إبريق وكوبين على عتبة النافذة وراءه. سكب لكل منهما كوباً وأعطى تيدي كوبه عبر الطاولة.

شرب تيدي الكوب كله في جرعة واحدة طويلة.

قـــال كـــاولي: "فم جاف، أليس كذلك؟ استقر في لسانك مثل الحكـــاك الذي لا يمكن حكه مهما شربت". مرّر الإبريق فوق الطاولة

وراقب تيدي وهو يعيد ملء كوبه. "ارتعاشات في يديك. ستصبح سيئة جداً. كيف حال صداعك؟".

فيما قال ذلك، أحسّ تيدي بقضيب حار من الألم وراء عينه اليسرى امتدّ إلى صدغه ثم انتقل شمالاً إلى فروة رأسه، وجنوباً إلى فكه.

قال: "لا بأس".

"سيصبح أسوأ".

شرب تيدي المزيد من الماء. "أنا أكيد. أخبرتني المرأة الطبيبة بذلك".

تراجع كاولي، مع ابتسامة، ونقر بقلمه على دفتره. "ومن هذه الآن؟".

قال تيدي: "لم أعرف اسمها، لكنها كانت تعمل معك".

"أوه. وماذا أخبرتك بالضبط؟".

"أخبرتني أن المخدرات العصبية تحتاج إلى أربعة أيام لتتراكم إلى مستويات فعالة في الدورة الدموية. توقعت الفم الجاف والصداع والارتجاف".

"امرأة ذكية".

"نعم".

"ليس هذا من المخدرات العصبية".

"لا؟".

"لا".

"مماذا إذاً؟".

قال كاولي: "من الانقطاع".

"الانقطاع عماذا؟".

ابتـــسامة أخرى ثم أصبحت نظرة كاولي بعيدة، وفتح دفتر تيدي على الصفحة الأخيرة التي كتب عليها، ودفع الدفتر نحوه فوق الطاولة.

"هذا خط يدك، صحيح؟".

ألقى تيدي نظرة عليه. "نعم".

"الرمز الأخير؟".

"حسناً، إنه رمز".

"لكنك لم تفككه".

"لم أملـــك الفرصـــة. أصبحت الأمور معقدة قليلاً إذا لاحظت ذلك".

"طـــبعاً، طـــبعاً". نقر كاولي على الصفحة. "هل تريد تفكيكه الآن؟".

نظر تيدي إلى الأرقام والأحرف التسعة:

13(M)-21(U)-25(Y)-18(R)-1(A)-5(E)-8(H)-15(O)-9(I)

أحسّ بالقضيب الساخن يثقب الجهة الخلفية لعينه.

"لا أشعر فعلاً أنني في أفضل حالاتي الآن".

قال كاولي: "لكنه بسيط، تسعة أحرف".

"فلنمنح رأسي فرصة للتوقف عن الخفقان".

"جيد".

قال تيدي: "انقطاع عماذا؟ ماذا أعطيتني؟".

طقطق كاولي أصابعه وتراجع إلى الخلف، على كرسيه مع تثاؤب طويل. "كلوربرومازين. يكشف عن تأثيرات جانبية. أخشى أن هناك العديـــد منها. لست مولعاً كثيراً به. كنت أودّ إعطاءك إيميبرامين قبل التسلسل الأخير للحوادث، لكنني لا أظن أن هذا سيحصل الآن". انحنى

إلى الأمـــام. "في العادة، لست مولعاً كثيراً بالأدوية، لكن في حالتك، أرى حاجة ماسة إليها".

"إيميبرامين؟".

"يطلق عليه بعض الأشخاص اسم توفرانيل".

ابتسم تيدي. "والكلوربرو...".

"... مـــازين". أومـــأ كاولي برأسه. "كلوربرومازين. هذا ما تتـــناوله الآن. مـــا تنقطع عنه. الدواء نفسه الذي نعطيك إيّاه منذ عامين".

قال تيدي: "منذ متى؟".

"منذ عامين".

قهقه تيدي. "انظر. أعرف أنكم أقوياء أيها الرجال. لكنك لست مضطراً إلى الإفراط في خيالك".

"لا أتخيل أي شيء".

"أنت تعطيني المخدّر منذ عامين؟".

"أُفضِّل كلمة دواء".

"وماذا، هل لديك رجل يعمل في مكتب المارشالات الأميركيين؟ ومهمة الرجل تقضي بإعطائي الدواء كل صباح. أو ربما، انتظر، عمل في كـــشك الصحف، حيث أشتري فنجان القهوة وأنا في طريقي إلى العمـــل. يكون ذلك أفضل. هكذا، طوال عامين، كان لديك أحد في بوسطن يعطيني المخدرات".

قال كاولي بهدوء: "ليس في بوسطن. هنا".

"هنا؟".

أومـــأ برأسه. "هنا. أنت موجود هنا منذ عامين. أنت مريض في هذا المستشفى".

استطاع تيدي سماع صوت المدّ يرتفع الآن، بغضب، ليرتطم بقاعدة الجرف. شبك يديه ببعضهما لوقف الارتعاشات وحاول تجاهل الخفقان وراء عينه، الذي أصبح أكثر قوة وكثافة.

قال تيدي: "أنا مارشال أميركي".

قال كاولي: "كنت مارشالاً أميركياً".

قال تيدي: "ما زلت. أنا مارشال فدرالي مع حكومة الولايات المتحدة. تركت بوسطن صباح يوم الاثنين، في الثاني والعشرين من شهر سبتمبر 1954".

قال كاولي: "حقاً؟! أخبرني كيف وصلت إلى المركب؟ هل قدت السيارة؟ أين ركنتها؟".

"أخذت القطار".

"لا يصل القطار إلى ذلك المكان".

"انتقلت إلى باص".

"لماذا لم تقد السيارة بنفسك؟".

"السيارة في كاراج التصليح".

"أوه. ويوم الأحد، ماذا تذكر من يوم الأحد؟ هل تستطيع إخباري بما فعلته؟ هل يمكنك أن تخبرني صراحة عن أي شيء حصل في اليوم الذي سبق استيقاظك في حمام المركب؟".

يستطيع تيدي فعل ذلك. حسناً، يفترض به أن يستطيع، لكن الألم اللعين في رأسه يحفر في الجهة الخلفية لعينه، وفي مجاري الجيوب الأنفية.

حسناً، تذكر، أخبره ماذا فعلت يوم الأحد. عدت إلى المنزل من العمل. ذهبت إلى شقتك في باتونوود. لا، لا. ليس باتونوود. احترقت باتونوود تماماً حين أضرم لايديز النار فيها. لا، لا. أين تعيش؟

يـــا الله! أستطيع رؤية المكان. حسناً، حسناً. المكان في... المكان في... كاسلمونت. هذا هو. جادة كاسلمونت. قرب الماء.

حـــسناً، حـــسناً، اســـترخِ. عدت إلى المنـــزل في كاسلمونت وتـــناولت العشاء وشربت بعض الحليب وذهبت إلى السرير. صحيح؟ صحيح.

قـــال كاولي: "ما رأيك في هذا؟ هل أتيحت لك فرصة النظر إلى هذا؟".

دفع استمارة دخول لايديز فوق الطاولة.

"لا".

"لا؟". صفر. "جئت إلى هنا من أجلها. إذا أعدت هذه الورقة إلى السيناتور هورلي – وهي دليل على مريض سابع وستين نـــزعم أنه غير موجود – يمكنك أن تقضي على هذا المكان".

"صحيح".

"نعم، صحيح. و لم تستطع إيجاد الوقت، في الأربع وعشرين ساعة الأخيرة، لإلقاء نظرة عليها؟".

"مرة جديدة، كانت الأمور...".

"معقدة. نعم، أفهم. حسناً، أنظر إليها الآن".

ألقـــى تـــيدي نظرة عليها، ورأى اسم لايديز، وعمره، وتاريخ دخوله المستشفى. في قسم التعليقات، قرأ:

"المـــريض ذكـــي جداً وواهم جداً. معروف بحبه للعنف. مضطرب كثيراً. لا يظهر أي ندم على جريمته، لأن إنكاره كبير بحيث، يقول إنـــه لـــم تحـــصل أي جريمة. ابتكر المريض سلسلة من الروايات الخيالـــية والمعقدة جداً التي تحول، في هذا الوقت، دون مواجهته لحقيقة أفعاله".

التوقيع في الأسفل يظهر اسم الدكتور شيهان.

قال تيدي: "يبدو هذا صحيحاً تقريباً".

"صحيح تقريباً؟".

أومأ تيدي برأسه.

"بخصوص من؟".

"لايديز".

وقف كاولي. توجه إلى الجدار وأنـــزل أحد الشراشف.

ثمة أربعة أسماء مكتوبة هناك بأحرف كبيرة طولها ستة إنشات:

إدوارد دانيالز – آندرو لايديز.

راشايل سولاندو – دولوريس شانال.

انتظر تيدي، لكن، بدا أن كاولي كان ينتظر هو أيضاً، ولم يتفوه أي منهما بكلمة لدقيقة كاملة.

في النهاية، قال تيدي: "لديك وجهة نظر حسبما أظن".

"انظر إلى الأسماء".

"انظر إليها".

"اسمك، اسم المريض السابع والستين، اسم المريض المفقود، واسم زوجتك".

"أوه. لست أعمى".

قال كاولي: "هذه قاعدة الأربعة خاصتك".

"كـــيف ذلـــك؟". فرك تيدي صدغه بقوة، محاولاً تدليك الألم هناك.

"حسناً، أنت عبقري في الرموز. أنت أخبرني".

"أخبرك ماذا؟".

"ما المشترك بين الاسمين إدوارد دانيالز وآندرو لايديز؟".

نظـــر تيدي إلى اسمه وإلى اسم لايديز للحظة. "يتألف كلاهما من ثلاثة عشر حرفاً في اللاتينية".

قال كاولي: "نعم، صحيح. نعم، صحيح. هل من شيء آخر؟".

حدّق تيدي وحدّق. "لا".

"أوه، هـــيا". نــــزع كـــاولي ثوبه الأبيض ووضعه على متن الكرسي.

حاول تيدي التركيز، وقد تعب أصلاً من هذه اللعبة.

"خذ وقتك".

حدّق تيدي إلى الأحرف إلى أن أصبحت مشوشة أمام عينيه.

قال كاولي: "أي شيء؟".

"لا. لا أرى أي شيء. فقط ثلاثة عشر حرفاً في اللاتينية".

مرر كاولي إصبعه تحت أحرف الاسمين. "هيا".

هزّ تيدي رأسه وشعر بالغثيان. قفزت الأحرف.

"ركّز".

"أنا أركز".

قال كاولي: "ما القاسم المشترك أيضاً بين هذه الأحرف؟".

"لا... هناك ثلاثة عشر حرفاً لاتينياً في كل منها. ثلاثة عشر".

"ماذا أيضاً؟".

حـــدّق تـــيدي إلى الأحرف إلى أن أصبحت ضبابية أمامه. "لا شيء".

"لا شيء؟".

قـــال تيدي: "لا شيء. ماذا تريدني أن أقول؟ لا أستطيع أن أقول لك ما لا أعرفه. لا أستطيع...".

صرخ كاولي: "إنها الأحرف نفسها".

انحنى تيدي إلى الأمام، وحاول منع الأحرف من الرقص أمام عينيه. "ماذا؟!".

"إنها الأحرف نفسها".

"لا".

"إنها الأحرف نفسها بترتيب مختلف في الاسمين".

قال تيدي مجدداً: "لا".

"لا؟". قطّب كاولي جبينه وحرّك يده فوق السطر. "إنها الأحرف نفسها بالضبط. انظر إليها. إدوارد دانيالز. آندرو لايديز. الأحرف نفسها. أنت موهوب في الرموز، واشتهرت بكونك مفككاً للرموز خلال الحرب، أليس ذلك صحيحاً؟ قل لي إنك لا ترى الأحرف الثلاثة عشر نفسها حين تنظر إلى هذين الاسمين".

"لا!". فرك تيدي عينيه بكعب يديه، محاولاً جعلهما أكثر صفاء أو طرد الضوء منهما.

"لا، أي أن الاسمين لا يتألفان من الأحرف نفسها، أم لا، أي أنك لا تريدها أن تكون الأحرف نفسها؟".

"لا يمكن أن تكون كذلك".

"بلى. افتح عينيك. انظر إليها".

فتح تيدي عينيه لكنه استمر في هزّ رأسه وتراقصت الأحرف من جانب إلى آخر أمام عينيه.

نقر كاولي على السطر التالي بكعب يده. "جرب هذه إذاً. دولوريس شانال وراشايل سولاندو. الاسمان يتألفان من ثلاثة عشر حرفاً. هلا أخبرتني ما القاسم المشترك بينهما؟".

عرف تيدي ما الذي يراه، لكنه عرف أيضاً أن هذا غير ممكن.

"لا؟ ألا تستوعب هذه أيضاً؟".

"لا يمكن".

قـــال كاولي: "بلى. الأحرف نفسها مجدداً. الأحرف نفسها في اسمـــين مختلفين. لقد جئت إلى هنا من أجل الحقيقة؟ هذه هي حقيقتك آندرو".

قال تيدي: "تيدي".

حدّق إليه كاولي، وامتلأ وجهه مجدداً بأكاذيب الشفقة.

قـــال كاولي: "اسمك آندرو لايديز. المريض السابع والستون في مستشفى آشكليف. إنه أنت، آندرو".

22

"هراء!".

صرخ تيدي عالياً وصدحت الصرخة في رأسه.

كـــرر كـــاولي: "اسمـــك آندرو لايديز. حكمت عليك المحكمة بالقدوم إلى هنا، قبل اثنين وعشرين شهراً".

رفع تيدي يده احتجاجاً على ذلك. "هذه حقارة كبيرة منكم".

"انظر إلى الدليل. من فضلك، آندرو. أنت...".

"لا تنادِني هكذا".

"... جـــئت إلى هـــنا قبل عامين، لأنك ارتكبت جريمة مروّعة. جريمة لا يستطيع المجتمع أن يغفرها، لكنني أستطيع. انظر إليّ آندرو".

ارتفعت عينا تيدي عن اليد التي مدّها كاولي، وصولاً إلى الذراع والصدر ومن ثم إلى وجه كاولي، وباتت عينا الرجل تعكسان الآن تلك الشفقة الزائفة، تلك اللياقة الكاذبة.

"اسمي إدوارد دانيالز".

"لا". هزّ كاولي رأسه بهزيمة متعبة. "اسمك آندرو لايديز. ارتكبت عملاً فظيعاً، ولا يمكنك مسامحة نفسك، مهما فعلت، ولذلك انتحلت شخـــصية أخـــرى. ابتكرت رواية معقدة أنت بطلها، آندرو. أقنعت نفسك أنك لا تزال مارشالاً أميركياً وأنك هنا في قضية. وكشفت عن مؤامـــرة، ما يعني أن أي شيء نقوله لك على العكس يصبح في خيالك أننا نتآمر ضدك. ويمكننا ربما التغاضي عن ذلك، والسماح لك بالعيش

في عالمك الخيالي. أودّ ذلك. لو كنت غير مؤذٍ، لفضلت ذلك حتماً. لكنك عنيف، عنيف جداً. وبسبب تدريبك العسكري، أنت ممتاز في العنف. أنت المريض الأكثر خطورة الموجود لدينا هنا. لا يمكننا احتواؤك. تم تقرير ذلك، انظر إليّ".

نظر تيدي إلى الأعلى، ورأى كاولي يتمدد فوق الطاولة وعيناه تتوسلان.

"تم التقرير أنه إذا لم نعِدْك إلى رشدك - الآن، والآن، الآن - سيتم اتخاذ إجراءات دائمة بحقك لضمان عدم إيذائك لأي كان مجدداً. هل تفهم ما أقوله لك؟".

للحظة - وليس حتى للحظة كاملة، بل لعُشر اللحظة - كاد تيدي يصدقه.

ثم ابتسم تيدي.

"ليس هذا عملاً لطيفاً من قبلك أيها الطبيب. ومن الشرطي السيئ شيهان؟". نظر إلى الخلف نحو الباب. "أتصور أنه مطلوب للعدالة".

قال كاولي: "انظر إليّ. انظر إلى عينيّ".

فعل تيدي ذلك. كانت العينان حمراوين وتسبحان من قلة النوم. وأكثر، ماذا؟ حدق تيدي إلى عيني كاولي، وتمعّن في تلك العينين. ثم استوعب الأمر، لو كان لا يعرفه بصورة أفضل لأقسم إن كاولي يعاني من قلب محطّم.

قال كاولي: "اسمع. أنا كل ما لديك. أنا كل ما كان لديك. أنا أستمع إلى أوهامك منذ عامين. أعرف كل تفصيل، كل تجعيد، الرموز، المريض المفقود، العاصفة، المرأة في الكهف، التجارب الشريرة في المنارة. أعرف عن نويس والخيالي السيناتور هورلي. أعرف أنك تحلم

بدولـــوريس طوال الوقت، وأن بطنها يرشح وهي مبللة بالماء. أعرف عن الجذوع".

قال تيدي: "أنت حقير".

"وكيف أعرف؟".

نظر تيدي إلى الدليل في أصابعه المرتجفة وقال:

"أتناول طعامكم، وأشرب قهوتكم، وأدخن سجائركم. والأكثر مـــن ذلـــك، تـــناولت ثلاث حبات أسبيرين منك صباح اليوم الذي وصـــلت. ثم قمـــت بتخديـــري تلك الليلة. كنت جالساً هناك حين استيقظت. لم أعد كما كنت قبلاً. هنا بدأت كل القصة. تلك الليلة، بعد نوبة صداع الشقيقة. ماذا أعطيتني؟".

تـــراجع كاولي إلى الخلف. كشّر كما لو أنه ابتلع حمضاً، ثم نظر خارج النافذة.

همس: "الوقت ينفد مني".

"ماذا؟".

قال بهدوء: "الوقت. تم منحي أربعة أيام. بدأ الوقت ينفد".

"دعني أذهب إذاً. سأعود إلى بوسطن، وأتقدم بشكوى في مكتب المارشالات، ولكن لا تقلق، مع كل أصدقائك الأقوياء، أنا واثق من أن الشكوى لن تصل إلى أي مكان".

قال كاولي: "لا، آندرو. لم يعد لديّ أصدقاء تقريباً. أنا أقاتل في معركة هنا منذ ثمانية أعوام تقريباً، والميزان بات لصالح الطرف الآخر. سأخـــسر. أخسر منصبـــي، أخسر أموالي. أقسمت أمام لجنة المراقبين أنني سأجري أكبر تجربة عرفها الطب النفسي، وستنقذك. ستعيدك إلى رشـــدك. لكن ماذا لو كنت مخطئاً؟". اتسعت عيناه ووضع يده على ذقـــنه، كما لو أنه يحاول إعادة فكه إلى مكانه. أنـــزل يده، ونظر عبر

الطاولة إلى تيدي. "ألا تفهم، آندرو؟ إذا أخفقت، أخفق أنا. إذا أخفقت أنا، ينتهي كل شيء".

قال تيدي: "أوه، هذا مؤسف جداً".

في الخارج، صرخت بعض طيور النورس. استطاع تيدي شمّ رائحة الملح والشمس والرمل الرطب.

قال كاولي: "فلنجرب الأمر بطريقة أخرى. هل تظن أنها مصادفة أن تملك راشايل سولاندو – وهي بالمناسبة شخصية وهمية من ابتكار خيالك – الأحرف نفسها الموجودة في اسم زوجتك الميتة، والتاريخ نفسه في قتل أولادها؟".

وقف تيدي وأدى الارتعاش إلى تحرك ذراعيه من الكتفين نزولاً. "لم تقتل زوجتي أولادها. لم ننجب الأولاد أبداً".

"لم تنجبا الأولاد أبداً؟". مشى كاولي نحو الجدار.

"لم ننجب الأولاد أبداً أيها الأحمق الحقير".

"أوه، حسناً". أنزل كاولي شرشفاً آخر عن الحائط.

على الحائط ثمة رسم بياني لمسرح جريمة، وصور فوتوغرافية لبحيرة، وصور لثلاثة أولاد موتى. وبعدها الأسماء مكتوبة بأحرف كبيرة:

إدوارد لايديز.

دانيال لايديز.

راشايل لايديز.

أخفض تيدي عينيه وحدّق إلى يديه؛ قفزت يداه كما لو أنهما غير متصلتين به. لو استطاع الدوس عليهما، لفعل.

"أولادك، آندرو. هل ستتمكن من الإنكار أنهم عاشوا؟ قل لي؟".

أشار إليه تيدي بيده المرتجفة عبر الغرفة. "إنهم أولاد راشايل سولاندو. إنه الرسم البياني لمسرح الجريمة في منزل راشايل سولاندو قرب البحيرة".

"هذا منزلك. ذهبت إلى هناك، لأن الأطباء اقترحوه عليك لزوجتك. هل تذكر؟ بعد أن أضرمت النار *خطأً* في شقتكم القديمة؟ قالوا لك أن تخرجها من المدينة وتوفر لها مكاناً ريفياً. علّها تتحسن".

"لم تكن مريضة".

"كانت مجنونة، آندرو".

"توقف بربك عن مناداتي هكذا. لم تكن مجنونة".

"كانت زوجتك مكتئبة سريرياً. تم تشخيصها أنها تعاني من اكتئاب هوسي. كانت...".

قال تيدي: "لم تكن".

"كانت انتحارية. أذت الأولاد. رفضتَ رؤية ذلك. ظننتَ أنها ضعيفة. قلتَ لنفسك إن الرشد هو خيار، وكل ما عليها فعله هو تذكر *مسؤولياتها،* تجاهك، تجاه الأولاد. شربتَ الشراب، وأصبح إدمانك على الشرب أسوأ. انعزلتَ في قوقعتك الخاصة. تجاهلتَ كل الإشارات. تجاهلتَ ما قاله لك الأساتذة، وكاهن الرعية، وعائلتها".

"لم تكن زوجتي مجنونة!".

"ولماذا؟ لأنك كنت *محرجاً*".

"لم تكن زوجتي...".

"السبب الوحيد الذي دفعها لرؤية طبيب نفسي هو أنها حاولت الانتحار ذات مرة وانتهت في المستشفى. لم تستطع حتى السيطرة على ذلك. وقالوا لك إنها تشكل خطراً على نفسها. قالوا لك...".

"لم نذهب أبداً إلى أي طبيب نفسي!".

"... إنها خطر على الأولاد. تم تحذيرك مراراً وتكراراً".

"لم نـــنجب أبـــداً الأولاد. تحدثـــنا عن الأمر، لكنها لم تستطع الحمل".

يا الله. شعر برأسه وكأن أحداً يضرب الزجاج بشوبك.

قـــال كـــاولي: "تعالَ إلى هنا. فعلاً. اقترب وانظر إلى الأسماء في صور مسرح الجريمة. ستهتم بمعرفة...".

"يمكنك الكذب في ذلك. يمكنك أن تبتكر أسماءك الخاصة".

"أنت تحلم. أنت تحلم طوال الوقت. لا يمكنك التوقف عن الحلم، آندرو. لقد أخبرتني عنها. هل حلمت مؤخراً بالصبيين والفتاة الصغيرة؟ هـــل أخـــذتك الفتاة الصغيرة إلى قبرك؟ أنت *بحار سيئ*، آندرو. هل تعرف ما يعنيه ذلك؟ يعني أنك والد سيئ. لم تسبح لإنقاذهم، آندرو. ولم تـــنقذهم. تـــريد التحدث عن الجذوع؟ هوه! تعالَ إلى هنا وانظر إليها. قل لي إنهم ليسوا الأولاد في أحلامك".

"هراء".

"انظر إذاً. تعالَ إلى هنا وانظر".

"لقـــد خـــدّرتني، وقـــتلت شريكي، وتقول إنه لم يوجد أصلاً. ستحبـــسني هنا لأنني أعرف ماذا تفعل. أعرف عن التجارب. أعرف مـــاذا تعطي لمرضى انفصام الشخصية، واستخدامك الحر للجراحات الفـــصية، وانـــتهاكك الواضح لقانون نورمبرغ. أنا أزعجك حضرة الطبيب".

"حقـــاً؟". اتكـــأ كاولي على الجدار وشبك ذراعيه. "أخبرني من فضلك. لقد جلت في كل مكان خلال الأيام الأربعة الماضية. استطعت الـــنفاذ إلى كـــل زاويـــة في هـــذا المرفق. أين الأطباء النازيون؟ أين الأشرار؟".

توجه مجدداً نحو الطاولة ونظر إلى ملاحظاته للحظة:

"هل ما زلت تصدق أننا نغسل أدمغة المرضى، آندرو؟ نجري بعض التجارب طويلة الأمد - ماذا سميتهم ذات مرة؟ أوه، نعم - لابتكار جنود أشباح! مجرمين!". قهقه عالياً. "أقصد، عليّ القول لك آندرو، إنه حتى في أيام الرهاب القوي، تكون أوهامك الخيالية جميلة".

أشار تيدي إليه بإصبعه المرتجفة. "أنت في مستشفى اختباري وتعتمد وسائل جذرية...".

"نعم، صحيح".

"تستقبلون فقط المرضى الأكثر عنفاً".

"صحيح أيضاً. مع توضيح هام؛ الأكثر عنفاً والأكثر جنوناً".

"وأنت...".

"نحن ماذا؟".

"أنت تجرّب".

"نعم!". صفق كاولي بيديه وانحنى بسرعة إلى الأمام. "برافو".

"بطريقة جراحية".

رفع كاولي إصبعاً. "أوه، لا، آسف. نحن لا نجرّب بالجراحة. يتم استخدامها بمثابة خيار أخير، وهذا الخيار الأخير يستخدم دوماً بالرغم من احتجاجاتي العالية. إلا أنني رجل واحد، ولا أستطيع بين ليلة وضحاها تغيير ممارسات مقبولة عمرها عقود من الزمن".

"أنت تكذب".

تنهد كاولي. "أظهر لي دليلاً واحداً يثبت صحة نظريتك، أظهر دليلاً واحداً فقط".

لم يقل تيدي أي شيء.

"وأمام كل تلك الأدلّة التي قدمتها، رفضتَ أنت الاستجابة".

"هذا لأنه لا يوجد دليل على الإطلاق. إنه مفبرك".

شبك تيدي يديه ببعضهما ورفعهما إلى شفتيه، كما لو أنه يدعو.

قال تيدي: "دعني أخرج من هذه الجزيرة. بصفتي ضابطَ قانون فدرالياً، أطلب منك أن تتركني أرحل".

أغلق كاولي عينيه للحظة. حين فتحهما، كانا أكثر وضوحاً وقساوة. "حسناً، حسناً. أيها المارشال. إليك. سأسهّل الأمر عليك".

رفع حقيبة من الجلد الناعم عن الأرض وفتحها ووضع مسدس تيدي على الطاولة.

"هذا مسدسك، صحيح؟".

حدّق تيدي إليه.

"إنها الأحرف الأولى من اسمك محفورة على المقبض. صحيح؟".

حدّق تيدي إليه.

"نعم أو لا، أيها المارشال؟ هل هذا مسدسك؟".

استطاع رؤية الانبعاج في ماسورة المسدس يوم ألقى فيليب ستاكس النار عليه، وأصاب المسدس عوضاً عنه، وانتهى ستاكس بالموت من رصاصته الخاصة. استطاع رؤية الحرفين أ ود محفورين على المقبض، وكانت تلك هدية من المكتب الميداني بعدما انتهى من إطلاق النار عليه مع بريك في ماين. وهناك، على الجهة التحتية للزناد، كان المعدن مكشوطاً وتالفاً قليلاً حين أوقع المسدس خلال مطاردة بالأقدام في سان لويس في شتاء العام 49.

"هل هذا مسدسك؟".

"نعم".

"خذه أيها المارشال. تأكد من أنه محشو".

نظر تيدي إلى المسدس، ثم نظر إلى كاولي.

"هيا أيها المارشال. خذه".

رفع تيدي المسدس عن الطاولة وأمسكه بيده.

سأل كاولي: "هل هو محشو؟".

"نعم".

"هل أنت أكيد؟".

"أستطيع الإحساس بالوزن".

أومـــأ كاولي برأسه. "إذاً، أطلق النار منه. لأنها الطريقة الوحيدة التي تتيح لك الخروج من هذه الجزيرة".

حـــاول تـــيدي تثبـــيت ذراعه بيده الأخرى، لكن هذه اليد كانت تـــرتجف هي أيضاً. استنشق الهواء مرات عدة متتالية، وزفره ببطء، ونظر عبر ماسورة المسدس، والارتعاشات في جسمه، واستطاع رؤية كاولي في الطـــرف الآخـــر من المسدس، على مسافة قدمين على الأكثر، لكنه كان يتمايل يميناً ويساراً، كما لو أنهما يقفان على قارب وسط الأمواج.

"لديك خمس ثوانٍ أيها المارشال".

رفـــع كـــاولي السماعة عن الجهاز اللاسلكي وأمسك بالمقبض، وراقبه تيدي وهو يضع الهاتف على فمه.

"ثلاث ثوانٍ الآن. اضغط على الزناد وإلا تنهي أيام حياتك على هذه الجزيرة".

اســـتطاع تيدي الإحساس بثقل المسدس. بالرغم من الارتجافات، تبقى لديه فرصة إذا فعلها الآن، إذا قتل كاولي، إذا قتل أيًّا كان ينتظر في الخارج.

قال كاولي: "حضرة آمر السجن، يمكنك إرساله إلى الأعلى".

اتـــضحت رؤيـــة تيدي، وتضاءلت الارتعاشات لتصبح ذبذبات خفيفة، ونظر إلى ماسورة المسدس، فيما أعاد كاولي الهاتف إلى مكانه.

بدت نظرة فضولية على وجه كاولي، كما لو أنه أدرك الآن فقط امتلاك تيدي القدرة للضغط على الزناد.

ورفع كاولي يده.

قال: "حسناً، حسناً".

وأطلق تيدي النار عليه في وسط صدره.

ثم رفع يديه نصف إنش تقريباً، وأطلق النار على وجه كاولي.

الماء.

قطّب كاولي جبينه. ثم طرف بعينيه مرات عدة. أخرج منديلاً من جيبه.

فـــتح الباب وراء تيدي، واستدار على كرسيه وصوّب المسدس على رجل يدخل الغرفة.

"لا تطلـــق". قـــال تشاك. "نسيت أن أرتدي معطفي الواقي من المطر".

23

مسح كاولي وجهه بالمنديل وجلس على كرسيه مجدداً، واستدار تشاك حول الطاولة، ووقف قرب كاولي، وبرم تيدي المسدس في راحة يده وحدّق إليه.

نظـــر عبر الطاولة، فيما جلس تشاك على كرسيه، ولاحظ تيدي أنه يرتدي ثوباً أبيض.

قال تيدي: "ظننتُ أنك ميت".

قال تشاك: "لا".

بات من الصعب فجأة لفظ الكلمات. شعر بالميل إلى التأتأة، تماماً مـــثلما توقعت المرأة الطبيبة. "أنا... أنا... كنت... كنت على وشك الموت لإخراجك من هنا. أنا...". وضع المسدس على الطاولة، وشعر بكــــل القـــوة تختفي من جسمه. وقع على كرسيه، عاجزاً عن المضي قدماً.

قـــال تـــشاك: "أنا آسف فعلاً بشأن ذلك. تناقشنا أنا والدكتور كاولي لأسابيع طويلة قبل أن نطبّق هذه الخطة. لم أشأ أبداً أن أجعلك تـــشعر بالخيانة، أو أسبب لك خوفاً غير مبرر. عليك تصديقي. لكننا كنا واثقين من عدم وجود خيار بديل".

قـــال كاولي: "ثمة ساعة تتكتك في هذه القضية. كان هذا جهدنا الأخير لإعادتك إلى رشدك، آندرو. فكرة جذرية، حتى بالنسبة إلى هذا المكان، لكنني أملت في أن تنجح".

مـــسح تـــيدي العرق، لكنه جعله يتغلغل أكثر فيهما. نظر عبر الضباب إلى تشاك.

قال: "من أنت؟".

مدّ تشاك يده عبر الطاولة. قال: "الدكتور ليستر شيهان".

تـــرك تـــيدي اليد معلقة في الهواء، واضطر شيهان في النهاية إلى سحبها.

"إذاً". قال تيدي وامتص الهواء الرطب عبر منخريه: "تركتني أفكر في طريقة للعثور على شيهان، فيما... أنت شيهان".

أومأ شيهان برأسه.

"ناديـــتني سيدي. أخبرتني النكات. سلّيتني كثيراً. راقبتني طوال الوقت، هل هذا صحيح، ليستر؟".

نظر إليه عبر الطاولة، وحاول شيهان النظر إلى عينيه، لكنه أخفق وأخفـــض نظـــره إلى ربطـــة عنقه ونقرها على صدره. "توجب عليّ مراقبتك للتأكد من أنك بأمان".

قال تيدي: "بأمان! هذا يجعل كل شيء جيداً. أخلاقياً".

أنـــــزل شـــيهان ربطـــة عنقه. "نحن نعرف بعضنا منذ عامين، آندرو".

"ليس هذا اسمي".

"مـــنذ عـــامين. كنت أنا الطبيب النفسي المسؤول عنك. طوال عامين. انظر إليّ. ألا تعرفني؟".

اســـتخدم تيدي ياقة سترته لمسح العرق عن عينيه، وأصبحتا هذه المرة صافيتين، ونظر عبر الطاولة إلى تشاك. تشاك الطيب مع غرابته في استعمال الأسلحة النارية، وتلك اليدان الناعمتان اللتان لا تتطابقان مع وظيفته لأنهما ليستا يدي شرطي. إنهما يدا طبيب.

قـــال تيدي: "كنت صديقي. وثقت بك. أخبرتك عن زوجتي. أخـــبرتك عـــن والدي. تسلقت جرفاً لعيناً للبحث عنك. هل كنت تـــراقبني حيـــنها؟ هل كنت تبقيني بأمان حينها؟ لقد كنت صديقي، تشاك. أوه، أنا آسف. ليستر".

أشـــعل ليستر سيجارة وسرّ تيدي لرؤية يديه ترتجفان أيضاً. ليس كـــثيراً. لـــيس بقـــوة يدي تيدي، وتوقفت الارتعاشات ما إن أشعل السيجارة ووضع عود الثقاب في المنفضة. لكن...

قال تيدي لنفسه، أتمنى أن تكون أصبت به أنت أيضاً. أياً يكن.

"نعم". قال شيهان (وتوجب على تيدي تذكير نفسه بعدم اعتباره تشاك). "نعم، لقد كان اختفائي جزءاً من خيالك. لكن كان يفترض بـــك رؤيـــة اســـتمارة دخول لايديز على الطريق، وليس في الجرف. أوقعـــتها خطـــأ عـــن قنّة الجبل. كنت أسحبها من جيبـــي الخلفي، وطـــارت. لحقـــت بهـــا، لأنني عرفت أنه إذا لم أفعل، ستفعل أنت. وتجمـــدت. مباشـــرة تحت القنّة. بعد عشرين دقيقة، ظهرت أمامي. أقصد، كنت على مسافة قدم واحدة. كدت أتمدد وأمسك بك".

نحـــنح كـــاولي حنجرته. "كدنا ننهي الخطة حين رأيناك تنـــزل الجرف. كان يجدر بنا فعل ذلك ربما".

"إنهاء الخطة". قمع تيدي ضحكة في قبضة يده.

قـــال كـــاولي: "نعـــم. إنهاء الخطة. كان هذا مهرجاناً، آندرو. كانت...".

"اسمي تيدي".

"... مـــسرحية. لقـــد كتبـــتها. ساعدناك على تنقيحها. لكن المـــسرحية لا تـــنجح من دون نهاية، والنهاية كانت دوماً وصولك إلى هذه المنارة".

"جيد". قال تيدي ونظر حوله إلى الجدران.

"أنت تخبرنا هذه القصة منذ عامين تقريباً. كيف جئت إلى هنا للعثور على مريض مفقود، وكيف علمت بأمر تجاربنا الجراحية المستوحاة من النازية، وغسل الدماغ المستوحى من السوفيات. كيف قتلت المريضة راشايل سولاندو أولادها تماماً، مثلما قتلت زوجتك أولادكما. كيف أصبحت قريباً من شريكك، ألا تحب الاسم الذي أطلقته عليه؟ تشاك أول. أقصد، يا الله، قله مرتين بسرعة. إنها نكتة أخرى من نكاتك، آندرو. تم أخذ شريكك وبقيت أنت لوحدك، لكننا قبضنا عليك، خدّرناك، وتم الحكم عليك قبل أن تتمكن من نقل الرواية إلى السيناتور هورلي الخيالي. هل تريد أسماء السيناتورات الحاليين في ولاية هامبشاير، آندرو؟ أملكها هنا".

قال تيدي: "لقد تظاهرت بكل ذلك؟".

"نعم".

ضحك تيدي. ضحك بقوة كما لم يفعل منذ أن ماتت دولوريس. ضحك بقوة وسمع دويّ الضحكة، وانتقل صداها بينهم، وانضمّ إلى الصوت الذي لا يزال يصدر من فمه، والتف حوله وتغلغل عبر اجدران، ووصل إلى المحيط.

"كيف تظاهرت بالإعصار؟". قال وضرب على الطاولة. "أخبرني أيها الطبيب".

قال كاولي: "لا يمكنك التظاهر بإعصار".

قال تيدي: "لا. لا يمكنك". وضرب على الطاولة مجدداً.

نظر كاولي إلى يده، ثم إلى عينيه. "لكنك تستطيع توقعه من وقت إلى آخر، آندرو. خصوصاً وأنت على جزيرة".

هـــزّ تيدي رأسه، وشعر بابتسامة مسمّرة على وجهه، بالرغم من مـــوت حـــرارها، بالـــرغم مـــن مظهرها السخيف والضعيف. "لا تستسلمون أبداً أيها الرجال!".

قال كاولي: "كانت العاصفة ضرورية لخيالك. انتظرنا واحدة".

قال تيدي: "أكاذيب".

"أكاذيـــب؟ اشرح أحرف الكلمات. اشرح كيف أن الأولاد في هـــذه الـــصور - وهم أولاد لم تعرف أبداً إذا كانوا يخصون راشايل ســـولاندو - هـــم الأولاد أنفسهم في حلمك. اشرح، آندرو، كيف عـــرفتُ أن أقول لك حين دخلت عبر هذا الباب: *صغيري، لماذا أنت مبلل كلك؟* هل تظن أنني أقرأ الأفكار؟".

قال تيدي: "لا. أظن أنني كنت مبللاً".

للحظـــة، بـــدا كاولي وكأن رأسه سيطير عن عنقه. أخذ نفساً طـــويلاً، وشبك يديه ببعضهما، وانحنى فوق الطاولة. "كان مسدسك مليئاً بالماء. رموزك؟ إنها تتضح، آندرو. أنت تمزح مع نفسك. انظر إلى الرمـــز المـــدون على دفترك. آخر رمز، انظر إليه، تسعة أحرف، ثلاثة أسطر، انظر إليه".

نظر تيدي إلى الصفحة:

13(M)-21(U)-25(Y)-18(R)-1(A)-5(E)-8(H)-15(O)-9(I)

قال ليستر شيهان: "الوقت ينفد منا. افهم من فضلك، كل شيء يـــتغير. الطـــب النفسي. لقد شهد حربه الخاصة لبعض الوقت، ونحن نخسر".

M-U-Y-R-A-E-H-O-I

قال تيدي وهو شارد الذهن: "حقاً؟ ومن نكون نحن؟".

قال كاولي: "الرجال الذين يعتقدون في أن الطريق إلى العقل ليس عــبر إدخــال قضبان جليد في الدماغ، أو إعطاء جرعات كبيرة من الأدوية الخطرة، وإنما عبر إدراك صريح للذات".

كرر تيدي: "إدراك صريح للذات. آه، هذا جيد".

"ثلاثة أسطر"، قال كاولي. "ثلاثة أحرف في السطر ربما".

قال شيهان: "أصغِ إليّ. إذا أخفقنا هنا، نخسر. ليس فقط معك. في الوقت الحاضر، ميزان القوة هو في أيدي الجراحين، لكن هذا سيتغير بسرعة. سيسيطر الصيادلة، ولن تصبح الأمور أقل بربرية. سيبدو الأمر هكــذا فقط. لكن البربرية نفسها التي تجري الآن ستستمر تحت غطاء مقبول عموماً. هنا، في هذا المكان، يعود الأمر إليك، أنت، آندرو".

"اسمي تيدي. تيدي دانيالز".

ظن تيدي أن السطر الأول هو ربما كلمة you، أي أنت.

"أبقى نايهرينغ على /و في اسمك، آندرو".

رفع تيدي نظره عن الصفحة.

أومأ كاولي برأسه. "كان لدينا أربعة أيام لهذه المسألة. إذا أخفقنا، يتم أخذك للجراحة".

"جراحة لماذا؟".

نظر كاولي إلى شيهان. تأمل شيهان سيجارته.

كرر تيدي: "جراحة لماذا؟".

فــتح كــاولي فمه للتحدث، لكن شيهان قاطعه وكان صوته مرهقاً:

"جراحة فصية للدماغ".

طــرفت عينا تيدي، ثم نظر إلى صفحته ووجد الكلمة الثانية: Are، أي هو.

قال: "تماماً مثل نويس. أفترض أنك ستقول لي إنه ليس هنا أيضاً".

قال كاولي: "إنه هنا. ومعظم القصة التي أخبرتها حوله للدكتور شيهان صحيحة، آندرو. لكنه لم يعد أبداً إلى بوسطن. لم تلتقِ به أبداً في سجن. إنه هنا منذ شهر أغسطس عام 50. وصل إلى مرحلة بحيث تم نقله خارج الجناح ج، وتم وضعه في الجناح أ. لكنك اعتديت عليه حينها".

نظر تيدي إلى الأحرف الثلاثة الأخيرة: "أنا ماذا؟".

"لقد اعتديت عليه. قبل أسبوعين. كدت تقتله".

"ولماذا أفعل ذلك؟".

نظر كاولي إلى شيهان.

قال شيهان: "لأنه أسماك لايديز".

"لا، لم يفعل. رأيته البارحة و...".

"ماذا؟".

"لم يسمّني لايديز. هذا مؤكد".

"لا؟". فتح كاولي دفتره. "لديّ التسجيل الكامل لحديثكما. أحضرت الأشرطة إلى مكتبي، لكن فلنكتفِ الآن بالتسجيل الكتابي لها. أخبرني إذا كان هذا مألوفاً". عدّل نظاراته، وأحنى رأسه نحو الصفحة. "أقرأ هنا: *هذه حقيقتك أنت. لايديز. هذا كل شيء. كنت أنا مصادفة. كنت عابراً*".

هزّ تيدي رأسه. "لم يقل لي إنني لايديز. أنت قرأت العبارة بنبرة خاطئة. كان يقول إن هذه حقيقتك أنت – أي أنا – ولايديز".

قهقه كاولي. "أنت فعلاً خطير".

ابتسم تيدي. "كنت أقول الشيء نفسه عنك".

نظـــر كاولي إلى الكلمات. "ما رأيك في ذلك؛ هل تذكر كيف سألت نويس عما حصل لوجهه؟".

"طبعاً. سألته من هو المسؤول".

"كلماتك بالضبط كانت *من فعل ذلك*؟ صحيح؟".

أومأ تيدي برأسه.

"وأجاب نويس – مجدداً أعيد تكرار ما قلته – *أنت فعلت ذلك*".

قال تيدي: "صحيح، لكن...".

تمعـــن فـــيه كـــاولي كما لو أنه يتمعن في حشرة تحت الزجاج. "ماذا؟".

"كان يتحدث مثل...".

"أنا أصغي إليك".

واجـــه تيدي مشكلة في جعل الكلمات مترابطة ببعضها، والتكلم بصورة منطقية.

"كان يقول" – تحدث ببطء عمداً – "إن إخفاقي في الحؤول دون نقله مجدداً إلى هنا أفضى، بطريقة غير مباشرة، إلى تعرضه للضرب. لم يقل إنني ضربته".

"قال *أنت فعلت ذلك*".

هزّ تيدي كتفه. "صحيح، لكننا نختلف في تفسير معنى ذلك".

بـــرم كاولي الصفحة قائلاً: "ما رأيك في هذا إذاً؟ نويس يتحدث مجدداً؛ *لقد عرفوا. ألا تفهم؟ كل ما كنت تخطط له، كل خطتك، إنها لعبة، مسرحية مكتوبة بعناية، كل هذا لك*".

تراجع تيدي إلى الخلف. "كل هؤلاء المرضى، كل هؤلاء الأشخاص الـــذين يفتـــرض أنني عرفتهم طوال عامين، لم يتفوه أي منهما بكلمة أمامي، فيما كنت أؤدي الحفلة التنكرية خلال الأيام الأربعة الماضية؟".

أغلق كاولي الدفتر. "إنهم معتادون على ذلك. أنت تستخدم تلك البطاقة البلاستيكية منذ عام تقريباً. في البداية، ظننتُ أنه اختبار جيد، فلنجربه عليك لنرى كيف تتفاعل. لكنك مضيت فيه بطريقة لم أحسب لها أي حساب. هيا. افتح محفظتك. أخبرني إذا كانت البطاقة بلاستيكية، أم لا، آندرو".

"دعنا ننتهي من الرمز".

"انتهيت منه تقريباً. بقيت ثلاثة أحرف. هل تريد المساعدة، آندرو؟".

"تيدي".

هزّ كاولي رأسه. "آندرو. آندرو لايديز".

"تيدي".

راقبه كاولي وهو يرتّب الأحرف في الصفحة.

"ماذا تقول؟".

ضحك تيدي.

"أخبرنا".

هزّ تيدي رأسه.

"لا، من فضلك، تشاركه معنا".

قال تيدي: "أنت فعلت ذلك. أنت تركت تلك الرموز. أنت ابتكرت اسم راشايل سولاندو باستعمال اسم زوجتي. هذا كله من صنعك أنت".

تحدث كاولي ببطء. "ماذا يقول الرمز الأخير".

برم تيدي الدفتر ليتمكن من رؤية الأحرف.

You أنت.

Are هو.

Me أنا.

قال تيدي: "هل أنت راضٍ؟".

وقــف كاولي. بدا مرهقاً. كما لو أنه وصل إلى الحافة الأخيرة. تحدث بنبرة يأس لم يسمعها تيدي منه قبلاً.

"أملــنا. أملنا في أن نتمكن من إنقاذك. وضعنا سمعتنا على المحك. والآن سينتشر الخبر أننا سمحنا لمريض بانتحال شخصية وهمية، وكل ما حــصلنا علــيه هو بعض الحرّاس المصابين وسيارة محترقة. ليس لديّ مــشكلة في الإذلال المهــني". حدّق خارج مربع النافذة الصغير. "لقد ضــقت ذرعاً ربما بهذا المكان. أو ضاق هو ذرعاً بــي. لكن، في يوم مــا، أيهــا المارشال، وليس هذا بعيداً جداً، سنداوي التجربة البشرية مباشرة بالتجربة البشرية. هل تفهم ذلك؟".

لم يعطِه تيدي أي شيء. "ليس تماماً".

"أتوقــع ألا تفعل ذلك". أومأ كاولي برأسه، وشبك ذراعيه فوق صدره، وساد الصمت في الغرفة لبضع لحظات باستثناء صوت النسيم، وأمــواج المحــيط. "أنــت جندي عظيم مع تدريب ممتاز على القتال اليدوي. منذ وجودك هنا، ألحقت الأذى بثمانية حرّاس، من دون ذكر الحارســين اليوم، وأربعة مرضى، وخمسة ممرضين. دافعنا أنا والدكتور شيهان عنك بأكبر قوة ممكنة ولأطول فترة ممكنة. لكن معظم الموظفين وكــل الجــسم القضائي يطلبون منا أن نظهر لهم النتائج، وإلا سيتم إعلانك غير مؤهل عقلياً".

ابــتعد عــن حافة النافذة وانحنى فوق الطاولة ونظر إلى تيدي بعينين حزينتين. "هذه فرصتنا الأخيرة، آندرو. إذا لم تقبل من تكون ومــاذا فعلــت، إذا لم تبذل أي جهد للعودة إلى الرشد، لا يمكننا إنقاذك".

مدّ يده إلى تيدي.

"هـــيا". قـــال لتيدي وكان صوته خشناً. "من فضلك. آندرو. ساعدني على إنقاذك".

صـــافح تـــيدي اليد الممدودة إليه. صافحها بقوة. صافح كاولي بقبضة محكمة، وابتسم

قال: "توقف عن مناداتي آندرو".

24

أخذوه إلى الجناح ج مقيداً في أغلال.

حين أصبحوا في الداخل، أنزلوه إلى الطابق الأرضي حيث صرخ به الرجال من زنزاناتهم. وعدوا بإيذائه، وعدوا باغتصابه. أقسم أحدهم أن يمزقه إرباً ويأكل لحمه فتاتاً.

فيما بقي مقيداً بالأغلال، وقف حارسان على جانبيه، فيما دخلت ممرضة إلى الزنزانة وحقنت شيئاً ما في ذراعه.

تملك شعراً وردياً، وفاحت منها رائحة الصابون وشمّ تيدي رائحة نفسها، فيما انحنت فوقه لإعطائه الحقنة، وعرفها.

قال لها: "زعمت أنك راشايل".

قالت: "أمسكا به".

أمسك الحارسان بكتفيه، وجعلا ذراعيه مستقيمتين.

"كنت أنتِ، مع صبغة في شعرك، أنت راشايل".

قالت: "لا تتحرك". وغرزت الإبرة في ذراعه.

نظر إلى عينيها. "أنت ممثلة ممتازة. أقصد، لقد ضحكت عليّ فعلاً، كل تلك الكلمات عن عزيزك، المرحوم جيم. مقنعة جداً، راشايل".

أبعدت عينيها عن عينيه.

"أنا إميلي". قالت وأخرجت الإبرة من ذراعه: "حاول النوم الآن".

قال تيدي: "من فضلك".

توقفت أمام باب الزنـــزانة ونظرت إليه.

قال: "كنت أنت".

لم تـــأتِ الإيمـــاءة من ذقنها. جاءت من عينيها، بخفض خفيف لجفنيها، ثم وجهت إليه ابتسامة ناعمة جداً بحيث أراد تقبيل شعرها.

قالت له: "ليلة سعيدة".

لم يـــشعر أبداً بالحارسين وهما ينـــزعان الأغلال عنه، و لم يسمعهما أبـــداً وهمـــا يغـــادران. اخـــتفت الأصوات الصادرة من الزنـــزانات الأخـــرى، وأصبح الهواء القريب من وجهه أصفر اللون، وأحس كأنه مستلقٍ على ظهره وسط غيمة رطبة، وتحولت يداه وقدماه إلى إسفنجة.

وحلم.

رأى في أحلامه أنه يعيش ودولوريس في منـــزل قرب البحيرة.

لأنهما اضطرا إلى مغادرة المدينة.

لأن المدينة حقيرة وعنيفة.

لأنها أحرقت شقتهما في باتونوود.

حاولت التخلص من الأشباح.

حلم أن حبهما فولاذ، صامد أمام النار أو المطر أو المطارق.

حلم أن دولوريس مجنونة.

وقالت له راشايل ذات ليلة حين كان ثملاً، ولكن، ليس ثملاً كثيراً لدرجة أنه لم يستطع أن يقرأ لها قصة قبل النوم: "بابا؟".

قال: "ماذا حبيبتي؟".

"تبدو لي أمي مضحكة أحياناً".

"كيف مضحكة؟".

"مضحكة فقط".

"هل يجعلك ذلك تضحكين؟".

هزّت رأسها.

"لا؟".

قالت: "لا".

"حسناً، كيف تبدو لك إذاً؟".

"كما لو أنني أجعلها فعلاً حزينة".

غمرها عندئذ وقبّلها قبلة النوم وداعب عنقها بأنفه وقال لها: "إنها لا تجعل أحداً حزيناً. أبداً. لا يمكن".

في ليلة أخرى، جاء إلى السرير وكانت دولوريس تفرك الندوب في معصميها، وتنظر إليه من السرير قائلة: "حين تذهب إلى المكان الآخر، ثمة جزء منك لا يعود".

"أي مكان آخر، حبيبتي؟". وضع ساعته على منضدة النوم.

"وذلك الجزء منك الذي يعود؟". قضمت شفتها وبدت كأنها على وشك ضرب وجهها بكلا معصميها. "لا يفترض به".

ظنّت أن اللحام في الزاوية جاسوس. قالت إنه ابتسم لها، فيما سال الدم من ساطوره، وكانت واثقة من أنه يعرف الروسية.

قالت إنها تشعر أحياناً بذلك الساطور في ثدييها.

قال له تيدي الصغير ذات مرة، فيما كانا في فنواي بارك، يشاهدان مباراة في الكرة: "يمكننا العيش هنا".

"نحن نعيش هنا!".

"أقصد في الملعب".

"وما المشكلة في المكان الذي نعيش فيه؟".

"هـــناك الكثير من الماء". شرب تيدي القليل من قنينته. نظر إلى ابـــنه. كـــان ولداً طويلاً وقوياً، لكنه يبكي بسرعة بالنسبة إلى ولد في عمـــره ويجفل بسهولة. هكذا يكبر الأولاد هذه الأيام، في دلال مفرط ضـــمن اقتـــصاد مزدهر. تمنى تيدي لو أن أمه لا تزال حية لتتمكن من تعليم أحفادها كيف يصمدون أمام المصاعب بقوة. لا يهتم العالم أبداً. لا يكترث أبداً.

يمكـــن أن تأتي هذه الدروس طبعاً من رجل، لكن المرأة هي التي تستطيع غرزها بصورة دائمة.

إلا أن دولـــوريس مـــلأت رؤوســـهم بـــالأحلام، والأوهام، واصطحبتهم كثيراً لمشاهدة الأفلام والسيرك والاحتفالات.

شـــرب تيدي مرة جديدة من قنينته وقال لابنه: "الكثير من الماء. هل من شيء آخر؟".

"لا، سيدي".

قـــال لها: "ما المشكلة؟ ما الذي لا أفعله؟ كيف أستطيع جعلك سعيدة؟".

قالت له: "أنا سعيدة".

"لا، لست سعيدة. قولي لي ما أحتاج إلى فعله. سأفعله".

"أنا بخير".

"تغـــضبين جـــداً. وإذا لم تكوني غاضبة، تكونين سعيدة جداً، فتقفزين على الجدران".

"ماذا تعني؟".

"هذا يخيف الأولاد، يخيفني. لست على ما يرام".

"بلى".

"أنت حزينة طوال الوقت".

قالت: "لا. هذا أنت".

تحـــدث إلى الكاهن وقام الكاهن بزيارة لهما. تحدث إلى أخواتها، وجـــاءت الأخت الكبيرة، دليلة، من فرجينيا لقضاء أسبوع معها ذات مرة، وبدا أن ذلك ساعد قليلاً لبعض الوقت.

تجـــنب كلاهما أي ذكر للأطباء. الأطباء هم للأشخاص المجانين. دولوريس غير مجنونة. إنها فقط متوترة.

متوترة وحزينة.

حلـــم تـــيدي أنها أيقظته ذات ليلة وطلبت منه إحضار مسدسه. قالت إن اللحام في منـــزلهم. في المطبخ في الطابق السفلي. يتحدث عبر الهاتف مع الروسية.

تلك الليلة على الرصيف أمام الكوكونات غروف، منحنياً صوب سيارة الأجرة، ووجهه بعيد إنشات قليلة عن وجهها...

نظر إليها وقال لنفسه:

أعرفك. لقد عرفتك طوال حياتي. كنت في انتظارك. في انتظارك كي تظهري. في انتظارك طوال هذه السنوات.

عرفتك في الرحم.

الأمر بهذه البساطة.

لم يشعر بتوق كبير إلى الحميمية معها قبل أن يسافر، لأنه عرف، في تلـــك اللحظة، أنه سيعود من الحرب. سيعود لأن النجوم لم تجعل متحاذية، بحيث يستطيع اللقاء بالنصف الآخر من روحه.

انحنى صوب السيارة وقال لها ذلك.

وقال: "لا تقلقي. سأعود إلى المنـــزل".

لمست وجهه بإصبعها. "ستفعل ذلك، صحيح؟".

حلم أنه عاد إلى المنـــزل قرب البحيرة.

كان في أوكلاهوما. أمضى أسبوعين وهو يطارد رجلاً من أرصفة جنوب بوسطن إلى تولسا مع عشر محطات توقف تقريباً، وكان تيدي دوماً على مسافة نصف خطوة وراءه إلى أن ارتطم فعلياً بالرجل، فيما كان خارجاً من حمام الرجال في محطة للوقود.

دخل المنـــزل في الحادية عشرة ظهراً، وهو يشعر بالامتنان لأنه يوم مـــن أيـــام الأسبوع المدرسية، والصبيان في المدرسة، واستطاع الإحساس بالطـــريق في عظامـــه مع رغبة قوية في النوم على وسادته. دخل المنـــزل ونـــادى دولـــوريس، فيما سكب لنفسه كأساً من الشراب الاسكتلندي مزدوجة ودخلت هي من الفناء الخلفي وقالت: "لم يكن ذلك كافياً".

اســـتدار مـــع كـــأس المشروب في يده وقال: "ما هو حبيبتي؟".

ولاحـــظ أنهـــا مبللة، كما لو أنها خارجة للتو من تحت الدوش، لكنها كانـــت ترتدي فستاناً أسود قديماً مع نقوش أزهار باهتة. كانت حافية القدمين، وتساقط الماء من شعرها ومن فستانها.

قال: "صغيرتي، لماذا أنت مبللة هكذا؟".

قالـــت: "لم يكن ذلك كافياً". ووضعت القنينة على الرف. "ما زلت مستيقظة".

وعادت للخروج مجدداً.

رآها تيدي تمشي نحو المرج، بخطى طويلة ومتمايلة. وضع كأسه علـــى الـــرف وحمـــل القنينة ولاحظ أنها قنينة الأفيون التي وصفها لها

الطبـــيب بعد إقامتها في المستشفى. إذا توجب على تيدي الذهاب في رحلـــة، كان يقسّم لها عدد الملاعق التي تحتاج إليها في غيابه، ويضيفها إلى قنينة صغيرة في خزانة أدويتها. ثم يأخذ هذه القنينة ويخبئها في العلية.

ثمة جرعات لستة أشهر في هذه القنينة وقد شربتها كلها.

رآها تتعثر على السلالم، وتسقط على ركبتيها، ثم تنهض مجدداً.

لكـــن، كيف نجحت في الوصول إلى القنينة؟ لم تكن هذه خزانة عاديـــة في العلية. لا يستطيع رجل قوي يحمل قطاعات كبيرة أن يخلع ذلك القفل. لا تستطيع فتحها، ويملك تيدي المفتاح الوحيد.

راقـــبها تجلس في الأرجوحة وسط المرج، ونظر إلى القنينة. تذكرها واقفة هنا ليلة غادر، وهو يضيف الملاعق إلى القنينة الخاصة بخزانة الأدوية، تاركـــاً القليل من الشراب لنفسه، ناظراً إلى البحيرة واضعاً القنينة الصغيرة في خـــزانة الأدوية، صاعداً إلى الأعلى لوداع الأولاد، نازلاً إلى الأسفل، فـــيما رنّ الهاتـــف، وتلقى الاتصال من المكتب الميداني، فأمسك بمعطفه وكيس نومه وقبّل دولوريس عند الباب وتوجه إلى سيارته...

... وترك القنينة الكبيرة على رف المطبخ.

خـــرج عبر الباب الشبكي واجتاز المرج وصعد السلالم وراقبته، فـــيما هو آت، وهي مبللة كثيراً، مع ساق متدلية من الأرجوحة، فيما حركّت هذه الأخيرة جيئة وذهاباً بكسل.

قال: "حبيبتي، متى شربت كل ذلك؟".

"هـــذا الـــصباح". مـــدّت له لسانها ثم وجهت له ابتسامة حالمة ونظرت إلى الأعلى، إلى السقف المقوّس. "لكنه ليس كافياً. لم أستطع النوم. أريد فقط النوم. أنا متعبة كثيراً".

رأى الجذوع تطفو على سطح البحيرة وراءها، وعرف أنها ليست جذوعاً، لكنه نظر بعيداً، نظر مجدداً إلى زوجته.

"لماذا أنت متعبة كثيراً؟".

هــزّت كــتفها، وأسدلت يديها قرب جانبيها. "متعبة من كل ذلك. متعبة جداً. أريد فقط العودة إلى المنــزل".

"أنت في المنــزل".

أشارت إلى السقف. قالت: "المنــزل - المنــزل".

نظر تيدي إلى تلك الجذوع مجدداً، وهي تبرم برفق في الماء.

"أين راشايل؟".

"في المدرسة".

"إنها صغيرة جداً للمدرسة حبيبتي!".

"ليست صغيرة للذهاب إلى مدرستي"، قالت زوجته وأظهرت له أسنانها.

وصــرخ تيدي. صرخ بصوت عالٍ جداً بحيث وقعت دولوريس عــن الأرجوحة، وقفز فوقها، وقفز فوق السياج في الجهة الخلفية من المرج، وركض وهو يصرخ لا، يصرخ يا الله، يصرخ أرجوك، يصرخ ليس أطفالي، يصرخ يا الله، يصرخ أوه أوه أوه!

وغــاص في الماء. تعثر وسقط إلى الأمام على وجهه وغاص تحت الماء الذي غمره مثل الزيت، وسبح إلى الأمام والأمام وصعد وسطهم. الجذوع الثلاثة. أطفاله.

كــان وجه إدوارد ودانيال إلى الأسفل، لكن راشايل كانت على ظهــرها، مع عينين مفتوحتين تنظران إلى السماء، وقد انطبع يأس أمها في بؤبؤيها، فبحثت نظرتها في الغيوم.

حملهم الواحد تلو الآخر ووضعهم على الشاطئ. كان رقيقاً معهم. أمــسكهم بقــوة وإنما برفق. أحس بعظامهم، داعب وجناتهم، داعب أكتافهم وأقفاصهم الصدرية وسيقانهم وأقدامهم. قبّلهم مرات عدة.

ركع على ركبتيه وتقيأ إلى أن احترق صدره وتمزقت معدته.

عـــاد وشـــبك أذرعتهم فوق صدورهم، ولاحظ وجود حروق حـــبال على معاصم دانيال وراشايل، وعرف أن إدوارد كان أول من مـــات. لقـــد انتظـــر الاثنان الآخران، وسمعا ذلك، وعرفا أنها ستعود إليهما.

قـــبّل مجدداً كل واحد من أولاده على الوجنتين والجبين ثم أغلق عيني راشايل.

هـــل قاوموا بين ذراعيها حين حملتهم إلى الماء؟ هل صرخوا؟ أو ماتوا بصمت متألمين ومستسلمين؟

رأى زوجته في فستانها البنفسجي ليلة التقى بها ورأى النظرة على وجههـــا، في اللحظة الأولى التي رآها فيها، تلك النظرة التي أغرم بها. فكّـــر في أن الـــسبب هـــو الفستان فقط، وارتباكها لارتداء مثل هذا الفستان الراقي في ناد راق. لكن، لم يكن هذا هو السبب؛ كان رعباً، بالكـــاد مقمـــوعاً ولطالمـــا كان موجوداً. إنه الرعب من الخارج؛ من القطـــارات، مـــن القـــنابل، من السيارات والآلات الثاقبة، والجادات الداكـــنة، والروسيين، والغواصات، والحانات المليئة بالرجال الغاضبين، والمحيطات المليئة بالقروش، والآسيويين الذي يحملون كتباً حمراء في يد، وبنادق في اليد الأخرى.

كانـــت خائفـــة مـــن كـــل ذلك وأكثر، لكنها كانت مرعوبة خـــصوصاً، مما هو داخلها، حشرة من الذكاء غير الطبيعي عاشت في دماغها طوال حياتها، تتلاعب به، تنقر فيه، تفكك الروابط داخله.

تـــرك تيدي أولاده وجلس على أرض المرج لوقت طويل، يراقبها وهـــي تتمايل، والأسوأ من كل ذلك كان مقدار الحب الذي يكنّه لها. لو يستطيع التضحية بعقله لإعادة عقلها، لفعل ذلك. بيع أطرافه؟ جيد.

لقد كانت كل الحب الذي عرفه منذ زمن طويل. لقد كانت ما جعله يصمد في الحرب، في هذا العالم المريع. لقد أحبها أكثر من كل حياته، أكثر من روحه.

لكـــنه خسرها، خسر أولاده، خسر الحياة التي أسساها معاً، لأنه رفض رؤية دولوريس، رؤيتها فعلاً، رؤية أن جنونها ليس غلطتها، ليس شيئاً تستطيع التحكم به، ليس دليلاً على ضعف معنوي أو على فقدان للثبات.

رفض رؤية ذلك، لأنها لو كانت فعلاً حبه الحقيقي، ذاته الأخرى الـــسرمدية، مـــاذا يقـــول ذلـــك عن دماغه، عن رشده، عن ضعفه الأخلاقي؟

هكـــذا، اختـــبأ مـــن الحقيقة، اختبأ منها. تركها لوحدها، حبه الوحيد، وترك عقلها يستنفد نفسه.

راقبها تتمايل. أوه، الله، كم يحبها!

يحبها – وجعله ذلك يشعر بالكثير من الخجل – أكثر من ابنيه.

لكن أكثر من راشايل؟

ربما لا. ربما لا.

رأى راشايل في ذراعي أمها، فيما حملتها أمها إلى الماء. رأى عيني ابنته تتسعان، فيما نـــزلت في البحيرة.

نظـــر إلى زوجته، ولا يزال يرى ابنته، وقال لنفسه: *أنت ساقطة، مجنونة وحشية!*

جلـــس تيدي على أرض المرج وبكى. لا يعرف لكم من الوقت. بكى ورأى دولوريس على الشرفة، فيما أحضر لها الأزهار، ودولوريس تنظـــر إلى الخلف نحوه، فوق كتفها خلال شهر العسل، ودولوريس في فـــستانها البنفـــسجي وهـــي حامل بإدوارد وتنـــزع أحد أهدابها عن

وجنته، فيما تبتعد عنه بعدما قبّلته والتفت بين ذراعيه، وقرصته في يده وضحكت، وابتسمت ابتساماتها الخاصة بصباح الأحد، وحدّقت إليه، فيما تحطم باقي وجهها حول تلك العينين الكبيرتين وبدت خائفة جداً ووحيدة جداً، دوماً، دوماً، مع جزء منها وحيد جداً...

وقف وارتجفت ركبتاه.

جلس قرب زوجته وقالت: "أنت رجلي الطيب".

قال: "لا، لست كذلك".

"بلـــى". أمـــسكت بيده. "أنت تحبني. أعرف ذلك. أعرف أنك لست مثالياً".

مـــاذا فكّـــر دانيال وراشايل حين وجدا أمهما تربط الحبل حول معصميهما؟ حين نظرا إلى عينيها؟

"أوه، يا الله!".

"أعرف. لكنك لي. وتحاول".

قال لها: "أوه صغيرتي. أرجوك لا تقولي المزيد".

وإدوارد. لا شـــك في أن إدوارد ركض. توجب عليها مطاردته في المنـــزل.

إنها مشرقة الآن، سعيدة. قالت: "فلنضعهم في المطبخ".

"ماذا؟".

استلقت فوقه، وداعبته، وعانقته بجسمها الرطب. "فلنضعهم على الطاولة، آندرو". قبّلت جفنيه.

أمسكها بالقرب منه، ثم بكى عند كتفها.

قالت: "سيكونون الدمى الأحياء. سنجففهم".

"ماذا؟". اختنق صوته في كتفها.

"سنبدل ملابسهم". همست في أذنه.

لم يستطع رؤيتها في صندوق، صندوق من المطاط الأبيض مع نافذة صغيرة في الباب.

"سنجعلهم ينامون في سريرنا الليلة".

"من فضلك توقفي عن الكلام".

"هذه الليلة فقط".

"أرجوك".

"ثم نأخذهم غداً في نزهة في الطبيعة".

"إذا أحببتني يوماً...". استطاع رؤيتهم مستلقين على الشاطئ.

"لطالما أحببتك صغيري".

قال تيدي: "إذا أحببتني يوماً، أرجوك توقفي عن الكلام".

أراد الذهاب إلى أولاده، إعادتهم أحياء، أخذهم بعيداً عن هنا، بعيداً عنها.

وضعت دولوريس يدها على مسدسه.

شبك يده فوق يدها.

قالت: "أريدك أن تحبني. أريدك أن تحررني".

مدّت يدها إلى مسدسه لكنه أبعد يدها. نظر إلى عينيها. كانتا ساطعتين جداً لدرجة الألم. ليستا عيني كائن بشري، كلب ربما، ذئب ربما.

بعد الحرب، بعد داتشاو، أقسم ألا يقتل مجدداً، إلا إذا لم يعد لديه خيار آخر. إلا إذا كان سلاح الرجل الآخر موجهاً صوبه. فقط حينها.

لا يستطيع تحمل المزيد من الموت. لا يستطيع.

أمسكت بمسدسه وأصبحت عيناها أكثر إشراقاً، وأبعد يدها مجدداً.

نظر إلى الشاطئ ورآهم مصطفين قرب بعضهم بعضاً، الكتف قرب الكتف.

أخرج مسدسه من قرابه. أراها إياه.

قـــضمت شفتها، وبكت، وأومأت برأسها. نظرت إلى السقف وقالت: "سنـــزعم أهم معنا. سنحممهم، آندرو".

وضـــع المسدس في بطنها وارتجفت يده وارتعشت شفتاه وقال: "أحبك دولوريس".

وبالرغم من ذلك، مع وجود مسدسه على جسمها، لم يكن واثقاً من أنه يستطيع فعل ذلك.

نظـــرت إلى الأسفل، كما لو أها متفاجئة من أها لا تزال هناك، من أنه لا يزال تحتها. "أنا أحبك أيضاً. أحبك كثيراً. أحبك مثل...".

وضـــغط علـــى الزناد. خرج صوته عبر عينيها وخرج الهواء من فمهـــا، ووضعت يدها فوق الفجوة ونظرت إليه، فيما أمسكت يدها الأخرى بشعره.

وفـــيما خرج الطلق الناري منها، شدّها بالقرب منه وأصبحت لينة على جسمه، وأمسك بها وأمسك بها وبكى حبه المريع في فستاها القديم.

جلـــس في الظلمة وشمّ رائحة دخان السجائر قبل أن يرى النار وتتقد النار، فيما مجّ شيهان سيجارته وراقبه.

جلـــس علـــى السرير وبكى. لم يستطع التوقف عن البكاء. قال اسمها. قال:

"راشايل، راشايل، راشايل".

ورأى عينيها تراقبان الغيوم وشعرها يطفو حولها.

حـــين تـــوقفت النوبات، حين جفت الدموع، قال شيهان: "راشايل من؟".

قال: "راشايل لايديز".

"ومن أنت؟".

قال: "آندرو. اسمي آندرو لايديز".

أشـــعل شيهان ضوءاً صغيراً وظهر كاولي وحارس آخر في الجهة الأخرى من القضبان. كان الحارس يدير ظهره لهما، لكن كاولي حدّق إليه ووضع يديه على القضبان.

"لماذا أنت هنا؟".

أخذ المنديل الذي أعطاه إيّاه شيهان ومسح وجهه.

كرر كاولي: "لماذا أنت هنا؟".

"لأنني قتلت زوجتي".

"ولماذا فعلت ذلك؟".

"لأنها قتلت أولادنا واحتاجت إلى السلام".

قال شيهان: "هل أنت مارشال أميركي؟".

"لا، كنت قبلاً. لم أعد الآن".

"كم مضى على وجودك هنا؟".

"منذ الثالث من مايو 1952".

"من راشايل لايديز؟".

"ابنتي. كانت في الرابعة".

"من راشايل سولاندو؟".

"غير موجودة. أنا ابتكرتها".

قال كاولي: "لماذا؟".

هزّ تيدي رأسه.

كرر كاولي. "لماذا؟".

"لا أعرف، لا أعرف...".

"بلى، تعرف آندرو. قل لي لماذا".

"لا أستطيع".

"بلى، تستطيع".

أمسك تيدي برأسه وهزّه في مكانه. "لا تجعلني أقولها. من فضلك. من فضلك دكتور!".

أمسك كاولي بالقضبان. "أحتاج إلى سماع ذلك، آندرو".

نظر إليه عبر القضبان، وأراد التقدم إلى الأمام وقضم أنفه.

"لأن". قال وتوقف. نحنح حنجرته وبصق على الأرض: "لأنني لم أستطع تحمل أن أعرف أنني سمحت لزوجتي أن تقتل أطفالي. تجاهلت كل الإشارات. حاولت التغاضي عن الأمر. قتلتهم لأنني لم أوفر لها المساعدة".

"و؟".

"لأنني أعرف أن هذا كثير. لا أستطيع تحمل ذلك".

"لكن عليك ذلك. أنت تدرك هذا".

أومأ برأسه. سحب ركبتيه إلى صدره.

نظر شيهان إلى الخلف نحو كاولي. حدّق كاولي إليهما عبر القضبان، أشعل سيجارة، راقب تيدي بهدوء.

"هذا هو خوفي، آندرو. لقد وصلنا إلى هذه المرحلة قبلاً. وصلنا إلى الاستراحة نفسها، قبل تسعة أشهر. ثم تراجعت. بسرعة".

"أنا آسف".

قال كاولي: "أقدّر ذلك. لكنني لا أستطيع استخدامه بمثابة عذر في الوقت الحاضر. أحتاج لأن أعرف أنك قبلت بالحقيقة. لا يستطيع أي منا تحمل انتكاسة أخرى".

نظر تيدي إلى كاولي، إلى ذلك الرجل النحيل جداً مع هالات كبيرة تحت عينيه. هذا الرجل الذي جاء لإنقاذه. هذا الرجل الذي قد يكون الصديق الوحيد الذي حظي به.

تذكـــر صـــوت مسدسه عندما نظر إلى عينيها وشعر بالمعاصم الـــرطبة لابنـــيه، فيما وضعهما على صدريهما، ورأى شعر ابنته، فيما أبعده عن وجهها بسبابته.

قال: "لن أنتكس. اسمي آندرو لايديز. قتلت زوجتي، دولوريس، في ربيع العام 52...".

25

كانت الشمس في الغرفة حين استيقظ.

جلـــس ونظر نحو القضبان، لكن القضبان لم تكن موجودة. فقط نافـــذة، منخفـــضة أكثر مما هو مفترض، إلى أن أدرك أنه على السرير العلوي في الغرفة التي تشاركها مع تراي وبيبــــي.

كانت فارغة. قفز عن السرير وفتح الخزانة ورأى ملابسه هناك، آتـــية حديثاً من المصبغة، وارتداها. توجه إلى النافذة ووضع قدماً على حافـــتها لربط حذائه، ونظر إلى خارج المجمع، ورأى مرضى وممرضين وحراساً بعدد متساوٍ، بعضهم يمشي أمام المستشفى، فيما يتابع بعضهم الآخر عمليات التنظيف، وبعضهم يشذب ما بقي من شجيرات الورد قرب القاعدة.

تأمـــل يديه، فيما ربط الحذاء الثاني. إنهما ثابتتان. أصبحت رؤيته واضحة مثلما كانت عندما كان ولداً، وكذلك هي الحال بالنسبة إلى رأسه.

غادر الغرفة ونـــزل السلالم وخرج من المجمّع ومرّ أمام الممرضة مارينو، التي وجهت إليه ابتسامة وقالت: "صباح...".

قال لها: "جميل جداً".

"رائع. أظن أن العاصفة ودّعت فصل الصيف".

اتكـــأ علـــى الدرابزين ونظر إلى السماء التي كان لونها مثل لون العيـــنين الزرقاوين لطفل بريء، واستطاع شم النضارة في الهواء الذي يفتقده منذ شهر يونيو.

"اســتمتع بيومك". قالت الممرضة مارينو وراقبها وهي تمشي في الممر، وأحسّ أنّ استمتاعه بتمايل وركيها هو دليل صحة ربما.

دخــل المجمــع ومرّ أمام بعض الحرّاس الذين هم في يوم إجازتهم يرمون الكرة لبعضهم بعضاً ولوّحوا له وقالوا: "صباح الخير". فلوّح لهم وقال: "صباح الخير".

سمــع صــوت المركب يصدح، فيما يقترب من الرصيف ورأى كــاولي وآمــر السجن يتحدثان وسط المرج أمام المستشفى وأومأا له برأسيهما فأومأ لهما برأسه.

جلــس عــند زاويــة درج المستشفى ونظر إلى كل ذلك وشعر بارتياح لم يشعر به منذ زمن طويل.

"خذ".

أخــذ السيجارة ووضعها في فمه، وانحنى نحو اللهبة، وشمّ رائحة الكاز الصادرة من قدّاحة زيبو قبل إغلاقها.

"كيف حالنا هذا الصباح؟".

"جيد. وأنت؟". امتص الدخان عبر رئتيه.

"لا أستطيع التذمر".

لاحظ أن كاولي وآمر السجن يراقبانهما.

"هل عرفت يوماً، ما ذلك الكتاب الذي يحمله آمر السجن؟".

"لا. قد أذهب إلى القبر من دون أن أعرف".

"هذا عار حقيقي".

"ربمــا هــناك بعــض الأمور التي لا يجدر بنا معرفتها على هذه الأرض. انظر إلى الأمر بهذه الطريقة".

"منظور مثير".

"حسناً، سأجرب".

مج السيجارة مرة جديدة، ولاحظ كم أن مذاق التبغ لذيذ! إنه أغنى ويلتصق بكعب حنجرته.

قال: "ما خطوتنا التالية؟".

"أنت قل لي سيدي".

ابتسم لتشاك. كانا يجلسان هما الاثنان تحت ضوء الصباح، مرتاحين، ويتصرفان كما لو أن كل شيء جيد في العالم.

قال تيدي: "علينا العثور على طريقة للابتعاد عن هذه الجزيرة. العودة إلى منازلنا".

أومأ تشاك برأسه. "تصورت أنك ستقول شيئاً كهذا".

"هل تملك أي أفكار؟".

قال تشاك: "أعطني دقيقة".

أومأ تيدي برأسه واتكأ على السلالم. لديه دقيقة. أو ربما دقائق قليلة. راقب تشاك وهو يرفع يده ويهزّ رأسه، في الوقت نفسه، ورأى كاولي يومئ له ثم يقول كاولي شيئاً ما لآمر السجن، ويعبران المرج نحو تيدي مع أربعة حراس وراءهم، فيما أحد الحراس يمسك بحزمة بيضاء، من نوع القماش، وظن تيدي أنه لمح بعض المعدن عليها، فيما فتحها الحارس ولمع المعدن تحت أشعة الشمس.

قال تيدي: "لا أعرف، تشاك. هل تظن أنهم آتون إلينا؟".

"لا". أرجع تشاك رأسه إلى الخلف، وطرفت عيناه قليلاً تحت أشعة الشمس وابتسم لتيدي. "نحن أذكى من ذلك".

قال تيدي: "نعم. أليس كذلك؟".

جزيرة منعزلة... مستشفى للأمراض العصبية... مجرمة فارة...
شيفرة سرية... إعصار مدمر... إشاعات حول تجارب طبية مشبوهة

ينسج الكاتب خيوطاً عدة ليصنع منها عقدة روائية لا تخطر ببال، عبر تهيئة مسرحية آسرة وشخصيات متطورة التركيب وحوار يتملّك القارئ بمرحه وأحزانه وغموضه يوجّه تفكيره وخياله نحو متاهات وسراديب هيتشكوكية تُصعِّد تشويقه مع كل صفحة.

مرفق عسكري سابق في «جزيرة شاتر» المغلقة تم تحويله إلى مصح للأمراض العقلية تهرب منه مجرمة مريضة حسناء. يتم استدعاء رجلي شرطة للتحقيق في ملابسات عملية الهرب ليكتشفا سريعاً بأن الموضوع هو أكثر تعقيداً من مجرد العثور على امرأة مفقودة. ورغم أن الشرطيين لا زالا جديدين في العمل معاً كشريكين، ولكنهما يطوّرا علاقة تشوبها المرارة والسخرية أثناء تبادل تفاصيل هموم حياتهما الشخصية. ولكن وبعد مراجعتهما سجلات المرضى الطبية يصلا إلى حائط مسدود بفضل مدير المصح الغير متعاون. وفجأة يختفي أحد رجلي الشرطة في ظروف غامضة خلال هبوب عاصفة بحرية هوجاء، فتتملك شريكه هواجس عدة ليس أقلها الخطر على حياته.



من هنا تنطلق العقد الروائية واحدة إثر أخرى في إطار من التشويق النفسي الأخاذ لتترك القارئ في طوفان من الإثارة المستمرة حتى النهاية يبدو فيها العنف الإجرامي باهتاً أمام رعب مؤامرات العقل البشري.



ISBN 978-9953-87-949-9



الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com

ص. ب. 5574-13 شوران 2050-1102
بيروت – لبنان
هاتف: 785107/8 (1-961+)
فاكس: 786230 (1-961+)
البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb